

المئة
في مفسدات الأخوة

للشيخ عبد المجيد حمود عامر

(أبي البراء الإبي رحمه الله)

بيت المقدس



1443 هـ 2021 م

Baytalmaqdiss44@gmail.com

بيت المقدس

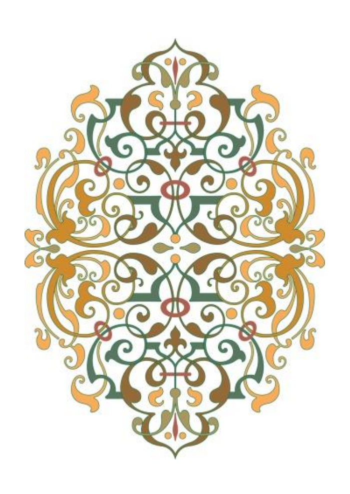
المِئة

في مفسدات الأخوة

للشيخ/

عبد المجيد حمود عامر

(أبي البراء الإبي – رحمه الله–)



بيت المقدس

الفهرس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الصلاة السلام على رسول الله ﷺ. وبعد:

فإننا في زمن يَعِزّ فيه وجود أخٍ واحدٍ في الله، فينعم برباط الأخوّة الصادقة التي ندر وجودها، التي قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إذا رزقكم الله عز وجل مودة امرئ مسلم فتشبثوا بها".

وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا خرج إلى أصحابه قال: "أنتم جلاء حزني".

وكان بلال بن سعد الأشعري يقول: "أخ لك كلما لقيك ذكّرك بحظك من الله خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك ديناراً".

وكان المحدث القارئ طلحة بن مصرف إذا لقي مالك بن مغول يقول له: "لَلُقياك أحبّ إليّ من العسل".

يحكى أن امرأة كان لها ابن وأخ وزوج وقعوا في غضب الحجاج، فأراد الإيقاع بهم، وعهد إلى المرأة أن تختار أحدهم كفيلاً لها ليقتل من عداه، فاختارت الأخ قائلة: إن الابن والزوج يمكن الاعتياض عنهما، وأما الأخ فلا عوض عنه، فأعجب الحجاج بقولها؛ لأنها غلَّبت العقل والحكمة على الحنان والشهوة، وعفا عن الجميع وقال: لو اختارت غير الأخ لقتلت الكل ولم أدع لها أحداً.

وقال بعض السلف: ليس لأحد أعظم منة على أخيه من موسى عليه السلام على أخيه هارون عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيا ورسولا معه إلى فرعون وملئه، ولهذا قال ربه في حقه ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: 69] وقال في مقام آخر ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 53].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "جمهور الناس اليوم معارف، ويندر فيهم صديق في الظاهر، أما الأخوة والمصافاة فذاك شيء نسخ فلا يُطمَع فيه"، ثم بيّن سبب نسخ وجود الأخوة والصفا لكون السلف كانت همتهم الآخرة وحدها فصفت نياتهم في الأخوّة والمخالطة فكانت ديناً لا دنيا، أما الآن فقد استولى حب الدنيا على القلوب إلا ما شاء الله.

الأخوة مرآة يرى فيها المؤمن عيوبه، ولو فات هذا الأمر لعمَّ الفساد أرجاء المعمورة ولابدَّ، إذ سيزداد الشر ويتقلص الخير تباعًا، وتنمو الشبهات وتستحكم الشهوات والغفلات، فبكلمة واحدة من أخٍ ناصح لك أمين تنكسر هذه الموجات على صخرة"الأخوة الإيمانية".

قال رسول الله ﷺ: (المؤمن مرآة المؤمن، المؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه) أخرجه أبو داود والحديث حسنه الشيخ الألباني.

الأخوة هي روح الدنيا، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين قال: "لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاث: قراءة القرآن، والتهجد بالليل، ومجالسة الإخوان".

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما أعطي عبد بعد الإسلام خيراً من أخٍ صالح، فإذا رأى أحدكم وداً من أخيه، فليتمسك به".

الأخوة شرف ومكانة.

الأخوة أخوة القلوب، زار يوسف القاضي الإمام إبراهيم الحربي رحمهما الله يوماً، فقال له: يا أبا إسحاق لو جئناك على مقدار واجب حقك، لكانت أوقاتنا كلها عندك. فقال له الإمام الحربي: ليس كل غيبة جفوة، ولا كل لقاء مودة، وإنما هو تقارب القلوب.

فالإخوان وإن شطت بهم المزارات، أو تباعدت بهم الديار، أو فرقت جمعهم الدنيا، إلا أن قلوبهم متقاربة، وألسنتهم تلهج بالدعاء.

الأخوة التي نبحث عنها، هي التي تجعلك تزداد طاعة برؤيته: كان ذو النون المصري – رحمه الله يقول: بصحبة الصالحين تطيب الحياة، والخير مجموع في القرين الصالح، إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانك.

وقال أحدهم له يوماً: من أجالس؟!

فقال: "عليك بصحبة من تذكرك الله عز وجل رؤيته، وتقع هيبته على باطنك، ويزيد في عملك منطقه، ويزهدك في الدنيا عمله، ولا تعصي الله ما دمت في قربه، يعظك بلسان فعله، ولا يعظك بلسان قوله".

وهي التي تدخلك تحت ظل عرش الله تعالى، في حديث أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي الْيَوْمَ؟ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي)، (رواه مسلم).

وعنه أيضاً عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: (قَالَ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ – وذكر منهم – وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ) (متفق عليه).

بل المتآخون في الله يغبطهم الشرفاء، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ قَالَ هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَ اللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، (رواه أبو داود).

كذلك تجد الأخوة في الله باب لنيل حلاوة الإيمان، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ). (متفق عليه).

أخـــاك أخـــاك فـــإن مـــن لا أخـــاً لـــه كســـــاعٍ إلى الهيجـــا بغـــير ســـــلاحِ

إن تضـييع الأخ الصـالح مـن أعظـم البـؤس، وأشـد البـأس علـى الـنفس، وأعجـز النـاس مـن فـرط في طلـب الإخـوان، وأعجـز منـه مـن ضـيع مَـن ظَفَـر بـه مـنهم، فربمـا يلقـاهم ثم يضـيعهم؛ فهـذا أعجـز مِـن الـذي فـرط في ملاقـاتهم والتعـرف علـيهم أصـلاً؛ لأنـه عـرف النعمة ثم كفرها.

وقـال الأصـمعي رحمـه الله: "إذا أردت أن تعـرف وفـاء الرجـل ووفـاء عهـده، فـانظر إلى حنينه إلى إخوانه، وتشوُّقه إليهم ".

لكـن هـذه الاخـوة هنـاك مـا يفسـدها، فأحببـت أن أذكـر مفسـداتها مـن أجـل أن نجتنبها.

عرفـــــــت الشـــــــر لا للشـــــــر ولكـــــــن لتوقيـــــــه
ومـــــــن لا يعـــــــرف الشـــــــر مـــــــن الخـــــــير يقـــــــع فيـــــــه

قـال المـاوردي في أدب الـدنيا والـدين: "قـال المـأمون: الإخـوان ثـلاث طبقـات: طبقـة كالغـذاء؛ لا يسـتغنى عنـه، وطبقـة كالـدواء؛ يحتـاج إليـه أحيـانًا، وطبقـة كالـداء؛ لا يحتـاج إليـه أبـدًا. اهـ. ولعمـري إن النـاس علـى مـا وصـفهم، ولكـن لـيس مـن كـان مـنهم كالـداء مـن الإخـوان المعـدودين، بـل هـم مـن الأعـداء المخـدورين، وإنمـا يـداجون ـ مـن داجـاه إذا سـاتره ـ المـودة استكشـافًا لشـرهم، وتحـرزًا مـن مكاشـفتهم، فـدخلوا في عـداد الإخوان بالمظاهرة والمساترة، وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة....

فـإذا خـرج مـن كـان كالـداء مـن عـداد الإخـوان، فـالإخوان هـم الصـنفان الآخـران، مـن كـان مـنهم كالغـذاء أو كالـدواء؛ لأن الغـذاء قـوام للـنفس وحياتهـا، والـدواء علاجهـا وصـلاحها، وأفضـلهما مـن كـان كالغـذاء؛ لأن الحاجـة إليـه أعـم. وإذا تميـز الإخـوان وجـب أن ينـزل كـل مـنهم حيـث نزلـت بـه أحوالـه إليـه، واسـتقرت خصـاله وخلالـه

عليـه، فمـن قويـت أسـبابه قويـت الثقـة بـه، وبحسـب الثقـة بـه يكـون الركـون إليـه، والتعويل عليه".

****

الأولى: الذنوب والمعاصي

في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (ما تواد اثنان في الله فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما)، رواه البخاري في الأدب المفرد.

قال المناوي في فيض القدير: "فيكون التفريق عقوبةً لذلك الذنب، ولهذا قال موسى الكاظم: إذا تغير صاحبك عليك فاعلم أن ذلك من ذنب أحدثته، فتب إلى الله من كل ذنب يستقم لك وده".

العجيب أننا أحيانا نتخاصم فيما بيننا، فكل واحد منا يلقي اللوم على الآخر بأنه هو السبب، ولا يوجد منا رجل رشيد من يقول بأن السبب ذنبه ومعصيته لهذا الحديث.

قال حكيم من الحكماء: "من أراد عزًا بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وجاهًا بين الإخوان، ومهابة عند السلطان، فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته".

لذلك ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه القيم"الجواب الكافي"قال: "من آثار المعصية وحشة يجدها العاصي مع إخوانه "أهـ.

لذلك تجد المنتكسين الذين بدأوا في مسلسل الضعف يتحاشون لقاء الإخوان، سبحان الله!!! فالمعاصي قطعت العلائق؛ لأنه قطع الصلة بالله فانقطعت الصلة مع أحبته في الله.

قال يحيى بن معاذ: "الحب في اللّٰه لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء، أي لا يزيد بأمرٍ من أمور الدنيا من الهدايا والعطايا وإنما يزيد بالطاعة والهداية، ولا ينقص بالبُعد والجفاء وإنما ينقص بالمعصية والتقصير".

فالمعاصي سبب للتفريق بين الإخوان، وسبب لتفرق الكلمة وضعف الصف، لذلك كان يحرص قادة الجيوش الإسلامية أن يبعدوا الجنود عن المعاصي؛ لأنه سهل على الأعداء اختراق الصف الذي تملأه المعصية، ولذلك ورد عن بعضهم أنه قال: لأنا أخوف على الجنود من المعاصي أكثر من الأعداء.

وهذا الذنب ليس بالضرورة أن يكون متعلقًا بحق أخيك، بل الذنوب مطلقًا التي يرتكبها العبد تؤدي إلى افتقاده لأحبابه وإخوانه واحدًا إثر الآخر، فربما كان الذنب متعلقًا بمعاملة مالية، وربما تركًا لواجب، أو خللاً في خلق أو سلوك، أو عدم حفظ للسان عن خسيس الكلام وقبيحه، وعن الغيبة والخوض في أعراض الناس وخصوصياتهم، وعن الاستهزاء بهم إلى غير ذلك من المعاصي والذنوب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في الفتاوى: "في أثر الذنوب في الاختلاف: ولهذا كانوا يعني: الصحابة في الحنيفية السمحة على عهد رسول الله ﷺ وكانوا على عهد أبي بكر خيرا مما كانوا على عهد عمر فلما كانوا في زمن عمر حدث من بعضهم ذنوب، أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم، كمنعهم من متعة الحج، وكإيقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة، وكتغليظ عقوبة الخمر، وكان أطوعهم لله وأزهدهم -مثل أبي عبيدة -ينقاد له عمر ما لا ينقاد لغيره، وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها، حتى تنازعوا فيها وهم مؤتلفون متحابون، كل منهم يقر الآخر على اجتهاده.

فلما كان في آخر خلافة عثمان، زاد التغير والتوسع في الدنيا، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر، فحصل بين بعض القلوب تنافر، حتى قتل عثمان، فصاروا في فتنة عظيمة، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: هذه الفتنة لا تصيب الظالم فقط، بل تصيب الساكت عن نهيه عن الظلم، كما قال النبي -ﷺ-: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب من منه» وصار ذلك سببا لمنعهم كثيرا من الطيبات، وصاروا

يختصمون في متعة الحج ونحوها، مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر، فطائفة تمنع المتعة مطلقا؛ كابن الزبير، وطائفة تمنع الفسخ؛ كبني أمية وأكثر الناس، وصاروا يعاقبون من تمتع، وطائفة أخرى توجب المتعة، وكل منهم لا يقصد مخالفة الرسول، بل خفي عليهم العلم، وكان ذلك سببه ما حدث من الذنوب، كما قال ﷺ: "خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى رجلان فرفعت، ولعل ذلك أن يكون خيرا لكم" اهـ.

قال قتادة: أهلُ رحمة الله أهل جماعة، وإن تفرقت دُورُهم وأبدانهم، وأهل معصِيتِهِ أهل فرقة وإن اجتمعت دورهم وأبدانهم.

وعن أبي الدرداء أنه قال: "حذر امرؤ أن تبغضه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ثم قال أتدري ما هذا.؟ قلت لا قال: عبد يخلو بمعاصي الله عز وجل فيلقى الله بغضه في قلوب المؤمنين".

من أجل ذلك كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلم أحدهما على الآخر، لقد كانا يتعاهدان على الإيمان والصلاح، يتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

****

الثانية: سوء الظَّنِّ

سوء الظن غيبةٌ بالْقلب وَهُوَ منهِي عَنْهُ، وَسُوءُ الظَّنِّ يَدْعُو إِلَى التَّجَسُّسِ وَالتَّحَسُّسِ وَقَدْ ﷺ: (لَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا). وَالتَّجَسُّسُ فِي تَطَلُّعِ الْأَخْبَارِ، وَالتَّحَسُّسُ بِالْمُرَاقَبَةِ بِالْعَيْنِ، فَسَتْرُ الْعُيُوبِ وَالتَّجَاهُلُ وَالتَّغَافُلُ عَنْهَا شِيمَةُ أَهْلِ الدِّينِ.

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "قال ابن عباس نهى الله تعالى المؤمن أن يظن بالمؤمن شرا وقال سعيد بن جبير هو الرجل يسمع من أخيه كلاما لا يريد به سوءا، أو يدخل مدخلا لا يريد به سوءا، فيراه أخوه المسلم فيظن به سوءا. وقال الزجاج هو أن يظن بأهل الخير سوءا، فأما أهل السوء والفسق فلنا أن نظن بهم مثل الذي ظهر منهم.

قال القاضي أبو يعلى هذه الآية تدل على أنه لم ينه عن جميع الظن والظن على أربعة أضرب محظور ومأمور به ومباح ومندوب إليه فأما المحظور فهو سوء الظن بالله تعالى والواجب حسن الظن بالله وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة محظور..."أهـ.

وذم الله تعالى الكافرين بأنهم قوم يتبعون الظن وما لهم من علم بما يقولون، فقال عز وجل ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ﴾ [النجم: 28].

وقال النبي ﷺ: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) رواه البخاري ومسلم.

قال عبد الله بن المبارك: "المؤمن يطلب معاذير إخوانه، والمنافق يطلب عثراتهم".

عامل الناس حسب ظواهرهم، فلا تشتغل بتفسير المقاصد؛ فمن الناس من تجده شكاكاً في الناس، مرتاباً في تعاملهم معه، تتجاذبه فيهم الظنون، وتتوارد عليه الرِّيب؛ فلسان حاله: فلان قد رابني أمره، وفلان أظنه فيه كذا، فإذا عرف أخوك أنك تسيء الظن به فإنه يفارقك ويترك مجالستك.

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدَّق ما يعتاده من تَوَهمِ
وعادى محبيه بقول عداتِه وأصبح في ليل من الشكِّ مظلمِ

وتجد الإنسان إذا ساء فعله؛ ساءت ظنونه بالناس، السارق يتهم الناس بالسرقة، والكاذب يتهم الناس بالكذب، والجبان يتهم الناس بالجبن، والمرائي يتهم الناس بالرياء، والجاسوس يتهم الناس بالجاسوسية، أما الصادق فلا يسيء ظنه بإخوانه إلا ببينة أوضح من الشمس في كبد السماء.

سبحان الله هناك من يسئ الظن بخيرة الناس وهم المجاهدين في سبيل الله، إذا رأيت الإنسان يتهم نيات الناس التي لا يطلَّع عليها إلا الله فهو متهم أيضاً "كاد المريب أن يقول خذوني!!".

وشعبياً يرادفه "اللي على راسه بطحه يحسس عليها".

قال الشيخ أبو يحيي الليبي: "وذكرَ العلماء للظن المذموم ثلاثة أمور:

أولاً: أن يكون هذا الظن في حقِ المسلم وليس في حقِ الكافر، كما قال الله عزَّ وجل هنا اجتنبوا كثيراً من الظن أي في حقِ إخوانكم من المسلمين.

الأمر الثاني: هو أن يكون هذا الظن أو هذا الظن المنهي عنه هو الذي يستقر في القلبِ ويثبت ويحققه صاحبه حتى يصبح ماذا؟ حتى يصبح كاليقين فيبني عليه تصرفاته وعلاقاته مع إخوانه، أما الهواجس والخواطر التي تعبُر بنفس الإنسان عبوراً

ولا تستقر ولا يبني عليها شيئاً ماذا؟ فهذا الأمر ماذا؟ هذا الإنسانً لا يؤاخذ على هذا الأمر.

الأمر الثالث: أن يكون هذا في من ظاهرةً الصلاح والتقوى وأما المجاهر بالمعصية والذي يُدخل نفسه في مواضع الريبة والشك فهذا هو الذي أوقع نفسه في ماذا؟ في دائرة التهمة، وقال الله عز وجل هنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾، والنبي ﷺ قال: "إياكم والظن فإنّ الظن أكذبُ الحديث"، وكثيراً ما يتعامل الإنسان مع ما يقع في نفسهِ من الظنون والأوهام وربما يبني عليها أحكاماً قد يكون هذا الحكم تفسيقاً أو تكفيراً أو هجراناً لأخيه المسلم وربما غيبةً وربما تحذيراً من أخيه المسلم إلى غير ذلك مما يُبنى على هذا الظن، فإذا تحقق من هذا وبحثَ عنه وتفحصه وجده مجرد وهم ومجرد ظنون لا أصلَ لها في الواقع". أ هـ.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "والكلمة الواحدة يقولها اثنان، يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه ويناظر عنه".

****

الثالثة: الطَمعُ فيما عند الناس

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (شرف المؤمن صلاته بالليل وعزه استغناؤه عما في أيدي الناس)، رواه البيهقي وصححه الألباني.

ويقول الرسول الله ﷺ: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)، رواه ابن ماجه وحسنه الألباني.

قال المناوي: "(يحبك الناس) لأن قلوبهم مجبولة على حبها مطبوعة عليها ومن نازع إنساناً في محبوبه كرهه وقلاه، ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه ولهذا قال الحسن البصري: لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه، وقيل لبعض أهل البصرة: من سيدكم؟ قال الحسن، قال بم سادكم؟ قال: احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا".

عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: عظني وأوجز. فقال: "إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدا، واجمع الإياس مما في أيدي الناس". رواه ابن ماجة وصححه الألباني.

قال أيوب السختياني رحمه الله: "لا يُقبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان العفة عما في أيدي الناس والتجاوز عما يكون منهم".

قال ابن القيم رحمه الله في الفوائد: "لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس" أ هـ.

ولذلك قيل: استغن عمن شئت فأنت نظيره، واحتج إلى من شئت فأنت أسيره، وأحسن إلى من شئت فأنت أميره.

هي القناعة فاحفظها تكن ملكا لو لم يكن لك منها إلا راحة البدن
وانظر إلى من ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير الطيب والكفن

ودخل أعرابي البصرة فقال: من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

قال ابن الجوزي: "واجتهد يا بني في صيانة عرضك من التعرض لطلب الدنيا والذل لأهلها، واقنع تعز، فقد قيل: من قنع بالخبز والبقل لم يستعبده أحد". أ هـ.

وهذا الإمام أحمد سأل حاتم الأصم فقال له: يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا؟

قال: يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال:

تغفر للقوم جهلهم.

وتمنع جهلك منهم.

وتبذل لهم شيئك.

وتكون من شيئهم آيساً.

فإذا كنت هكذا سلمت!!.

وقديماً قيل: كمال السخاوة قطع الطمع عما في أيدي الناس مع بذل ما في يدك.

قال ابن المبارك رحمه الله: "سخاء النفس عما في أيدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل".

ولذا قال الحسن: "لا تزال كريما على الناس، ولا يزال الناس يكرمونك، ما لم تتعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك، وأبغضوك".

ولهذا يقال: العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع.

ويُروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: "الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه".

وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه؛ فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيراً إليه، ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه فإن قلبه يتعلق به فيصير فقيراً إلى حصوله وإلى من يظن أنه سبب في حصوله.

حتى ذهب بعض أهل العلم إلى أن حقيقة التوكل هو كما قال القرطبي رحمه الله: "واختلف العلماء في حقيقة التوكل، فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال: قال فرقة: الرضا بالضمان وقطع الطمع من المخلوقين".

ومتى التفتَ القلبُ إلى غير الله وَكَلَه الله إلى من التفتَ إليه، وصارَ ذليلاً مخذولاً، قال: (من تعلّق شيئًا وُكل إليه) رواه الترمذي.

فالمؤمن الحق يعلم أن رزقه مكتوب، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: 2- 3]، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق لك، أو منعه وقطعه عنك فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله عليك، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين.

****

الرابعة: إفشاء السِّرِّ

يقول بعض العلماء: إن الأمين على السر أكمل من الأمين على المال لأن العفة عن الأموال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار ولأن الإنسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسَقَط كلامه ويشُح باليسير من ماله حفظًا له وضنًا به، ولهذا كان أمناء الأسرار أشد تعذرًا، وأقل وجودًا من أمناء الأموال، وكان حفظ المال أيسر من كتم الأسرار.

وإفشاء السر موجب للضغينة، موقع في الحرج، مفرق بين الأحبة، مخرب للأسرة، مسبب في اضطراب الأمن، ممكِّن للعدو من النيل من الإنسان أو الجماعة، فقد يكون عند الإنسان ثروة لو عرف الغير سرها لأغرت اللصوص أو أكثرت الحساد عليه، وقد يكون مشروع علمي لو اطلع الغير عليه لسبقه إليه أو تخطيط حربي لو عرفه العدو لأفاد منه.

قال سبحانه وتعالى ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: 3].

قال القاسمي رحمه الله: "أشار تعالى إلى غضبه لنبيّه، صلوات الله عليه، مما أتت به من إفشاء السرّ إلى صاحبتها، ومن مظاهرتهما على ما يقلق راحته، وأن ذلك ذنب تجب التوبة منه".

عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا حدث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهو أمانة). رواه أبو داود والترمذي وحسنه الألباني.

وقيل لبعض الأدباء: كيف حفظك للسر؟ قال: أنا قبره.

وقد قيل: صدور الأحرار قبور الأسرار.

وقيل: إن قلب الأحمق في فيهِ، ولسان العاقل في قلبه، أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبديه من حيث لا يدري.

وقيل: أفشى رجل لصديق له سرا من أسراره، فلما فرغ قال له: حفظته؟ قال: لا، بل نسيته.

وقد قيل لآخر: كيف تحفظ السر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر.

وقال آخر: أستره، وأستر أني أستره، وعَبَّر عنه ابن المعتز فقال:

ومستودعي سرًّا تبوأت كتمه   فأودعته صدري فكان له قبرًا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه:

وما السر في قلبي كثاوٍ بقبره   فإني أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكنني أنساه حتى كأنني   بما كان منه لم أُحط ساعة خُبرا
ولو جاز كتم السر بيني وبينه   عن السر والأحشاء لم أعلم السرا

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في الرياض الناضرة: "كن حافظا للسر، معروفا عند الناس بحفظه، فإنهم إذا عرفوا منك هذه الحال أفضوا إليك بأسرارهم، وعذروك إذا طويت عنهم سر غيرك الذي هم عليه مشفقون، وخصوصا إذا كان لك اتصال بكل واحد من المتعادين؛ فإن الوسائل لاستخراج ما عندك تكثر وتتعدد من كل من الطرفين، فإياك إياك أن يظفر أحد منهم بشيء من ذلك تصريحا أو تعريضا، واعلم أن للناس في استخراج ما عند الإنسان طرقا دقيقة، ومسالك خفيفة؛ فاجعل كل احتمال ـ وإن بعد ـ على بالك، ولا تؤت من جهة من جهاتك؛ فإن هذا من الحزم.

واجزم بأنك لا تندم على الكتمان، وإنما الضرر والندم في العجلة والتسرع، والوثوق بالناس ثقة تحملك على ما يضر".

وقال ابن الجوزي: "رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم، فإذا ظهر، عاتبوا من أخبروا به.

فوا عجبًا! كيف ضاقوا بحبسه ذرعًا، ثم لاموا من أفشاه؟!" أ هـ.

إذا ضاق صدر المرء عَن بعض سره فألقاه في صدري فصدري أضيق
ومن لامني في أن أضيع سره وضيعه قبلي فذو السر أخرق

والذي لا يحفظ السر ولا يبالي بإفشائه رجل فيه ثلاث صفات مذمومة:

1. ضيق صدره وقلة صبره.

2. غفلته عن الحذر الذي يجب أن يكون عند العقلاء، وسهوه عن اليقظة التي ينبغي أن يتصف بها الأذكياء فهو رجل أحمق غبي.

3. ارتكابه الضرر والمخاطرة بما لا يعرف عقباه.

وأعظم من يحفظ أسرارهم، أسرار المجاهدين، لما اعتزم النبي فتح مكة أمر عائشة أن تجهزه، فدخل عليها أبوها أبو بكر وهي تعد الجهاز، فقال: أي بنية أمركن رسول الله بتجهيزه؟ قالت: نعم قال: فأين ترينه يريد، فقالت والله ما أدري، ثم أعلم النبي الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتجهيز وقال: "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، لكن حاطب بن أبي بتلعة كتب إلى قريش بذلك وأرسل الكتاب مع امرأة وجعل لها جعلا فأخفته في قرون رأسها، وكان من أمره ما كان وكان من رأي عمر قتله، ولكن النبي عفا عنه لأنه من أعلى بدر، ونزل في ذلك قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ

إِلَـيْهِمْ بِالْمَـوَدَّةِ وَقَـدْ كَفَـرُوا بِمَـا جَـاءَكُمْ مِـنَ الْحَـقِّ يُخْرِجُـونَ الرَّسُـولَ وَإِيَّاكُـمْ أَنْ تُؤْمِنُـوا بِاللَّهِ رَبِّكُـمْ إِنْ كُنْـتُمْ خَـرَجْتُمْ جِهَـادًا فِي سَـبِيلِي وَابْتِغَـاءَ مَرْضَـاتِي تُسِـرُّونَ إِلَـيْهِمْ بِالْمَـوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَـمُ بِمَـا أَخْفَيْـتُمْ وَمَـا أَعْلَنْـتُمْ وَمَـنْ يَفْعَلْـهُ مِـنْكُمْ فَقَـدْ ضَـلَّ سَـوَاءَ السَّـبِيلِ﴾ [الممتحنـة: 1] ففـي هـذه القصـة عـدم إخبـار عائشـة أباهـا بمقصـد النـبي -ﷺ-، ومنهـا دعـا النـبي أن يأخـذ العيـون مـن قـريش حـتى يبغتهـا، وغضـب النـبي علـى عمـل حاطـب ورأي عمـر في قتله، ووعيد الله للجواسيس والعملاء. (الموسوعة الأمنية).

وقـد أجـاز بعـض العلمـاء الانتحـار خوفـا مـن إفشـاء أسـرار المجاهـدين كمـا أفـتى بـذلك الشيخ محمد بن ابراهيم رحمه الله.

****

الخامسة: التعامل المالي بين الأخوة

كم من أرحام تقطعت ووشائج انفصلت بسبب المال كم من أخٍ لم يرَ أخاه منذ سنوات بسبب حفنة من مال، كثيرًا ما يشترك بعض الأخوة أو الأقارب في مشروع أو شركة ما دون أن يتفقوا على أسس ثابتة، ودون أن تقوم الشركة على الوضوح والصراحة، بل تقوم على المجاملة، وإحسان الظن.

فإذا ما زاد الإنتاج، واتسعت دائرة العمل دب الخلاف، وساد البغي، وحدث سوء الظن، خصوصًا إذا كانوا من قليلي التقوى والإيثار، أو كان بعضهم مستبدًا برأيه، أو كان أحد الأطراف أكثر جدية من الآخر.

ومن هنا تسوء العلاقة، وتحل الفرقة، وربما وصل الحال بهم إلى الخصومات في التحكيم، فيصبحون بذلك سُبَّةً لغيرهم، يقول الله تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: 24].

قال ابن القيم رحمه الله: "ولما كانت الشركة منشأ الضرر في الغالب فإن الخلطاء يكثر فيهم بغي بعضهم على بعض، شرع الله سبحانه رفع هذا الضرر بالقسمة وانفراد كل من الشريكين بنصيبه، وبالشفعة تارة وانفراد أحد الشريكين بالجملة"أهـ.

وفي عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (كيف أنتم إذا فُتحت عليكم خزائن فارس والروم، أي قوم أنتم؟) قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: نقول كما أمرنا الله، قال: (أوَ غَير ذلك تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون). رواه مسلم.

وعن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ قال: (والله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبْسطَ عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم) رواه البخاري

ولما فتحت كنوز كسرى على عمر بن الخطاب ﷺ بكى فقال: "إن هذا لم يُفتح على قوم قط إلا جعل الله بأسهم بينهم".

وقال ابن القيم رحمه الله: "الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج"أ هـ.

قال أبو حازم: "إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك ".

قال يحيى بن معاذ الرازي: "الدنيا بأجمعها لا تساوي غم ساعة، فكيف بغم طول عمرك وقطع إخوانك بسببها، مع قلة نصيبك منها".

قال بعض السلف: "احذروا دار الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت، فإنهما يفرقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرق بين العبد وربه ".

هي الدنيا تفرق كل جمع   وإن أَلِفَ القرين بها القرينا

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد: "فإن الدنيا: دار ظعن، وليست بدار إقامة، وإنما أنزل آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزّها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن كالمداوي جراحته، يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرارة، الحيالة الخداعة، التي زينت بخدعها وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشرفت لخطابها، فأصبحت كالروس المجلية، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر على الأول مزدجر، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبر عنها مدكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتر، وطغى، ونسي المعاد، فشغل فيها لبه حتى زالت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، فخرج بغير زاد، وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسر ما تكون فيها؛ احذر ما تكون

لهـا، فـإن صـاحب الـدنيا كلمـا اطمـأن منهـا إلى سـرور، أشخصـه إلى مكـروه، وقـد وصـل الرخـاء منهـا بالـبلاء، وجعـل البقـاء فيهـا إلى فنـاء، فسـرورها مشـوب بالحـزن، لا يرجـع منهـا مـا ولى فـأدبر، ولا يـدرى مـا هـو آت فينتظـر، أمانيهـا كاذبـة، وآمالهـا باطلـة، وصـفوها كـدر، وعيشـها نكـد، وابـن آدم فيهـا علـى خطـر، ولقـد عرضـت علـى نبيـك محمد - ﷺ - بمفاتيحهـا وخزائنهـا، فـأبى أن يقبلهـا، كـره أن يحـب مـا أبغـض خالقـه، أو يرفـع مـا وضـع مليكـه، فزواهـا عـن الصـالحين اختبـارًا، وبسـطها لأعدائـه اغـترارًا، وجـاءت الروايـة أنـه تبـارك وتعـالى قـال لموسـى عليـه السـلام: «إذا رأيـت الغـنى مقـبلاً فقـل: ذنـب عجلـت عقوبتـه، وإذا رأيـت الفقـر مقـبلاً فقـل: مرحبًـا بشـعار الصالحين".

****

السادسة: كَثرةُ المعَاتبَة

بعض الناس يزعج إخوانه بكثرة انتقاده، ولا يكاد أن يعجبه شيء، فلا يرى في الطعام اللذيذ إلا الشعرة التي سقطت فيه سهواً، ولا في الثوب النظيف إلا نقطة الحبر التي سالت عليه خطئاً، ولا في الكتاب المفيد إلا خطئاً مطبعياً وقع سهواً، ولا في المعركة العظيمة إلا رداءة ثوب أو سلاح أو سيارة، ولا في الخطبة العصماء إلا لحن في كلمة.

قالت عائشة رضي الله عنها: وهي تصف حال تعامله ﷺ معها: "ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه"متفق عليه.

قال بشّار بن برد:

إذا كنت في كلّ الأمور معاتبا صديقك لم تلق الّذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنّه مقارف ذنب مرّة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأيّ النّاس تصفو مشاربه

فإن من تتبع الأخطاء، وتكدر من الهفوات، ووقف كثيراً عند السقطات، وضخم السيئات، وساءه بعض التصرفات، وآلمه بعض الإشارات، وقال: هذا ليس من أخلاق الإخوان، وهذا لا يليق بالإخوان، من كان هذا هو نهجه، وهذه هي طريقته، فلن يبقي له أخ أبداً.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: من طلب أخًا بلا عيب بقي بلا أخ.

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسن فقط؟

وقال آخر:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

لابد من العتاب لكن!!!!

عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً بعنوان: من لم يواجه الناس بالعتاب.

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "صنع الرسول ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزّه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب، فحمد الله ثم قال: "ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية".

ورسولنا ﷺ هو ألطف الناس وأحسنهم خلقاً، لم يفضحهم على رؤوس الخلائق، بل عاتبهم وأنبهم من غير جرح لمشاعرهم وأحاسيسهم. ولا يفهم من فعل الرسول -ﷺ- ترك العتاب، بل يفهم: عدم المواجهة.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: "أما المعاتبة فقد حصلت منه بلا ريب، وإنما لم يميز الذي صدر منه، ستراً عليه، فحصل منه الرفق من هذه الحيثية لا بترك العتاب أصلاً" أ هـ.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: الفتوة: الصفح عن عثرات الإخوان.

وكما يحب الإنسان أن يعامل إذا أخطأ بالصفح والتغافل فينبغي كذلك أن يعامل إخوانه.

قال ابن الأعرابي: "تناسَ مساوئ الإخوان يدم لك ودهم".

قيل: لا تكثرن من معاتبة إخوانك، فيهون عليهم سخطك.

قيل: يجب أن تكون عندنا مقبرة جاهزة لندفن فيها أخطاء الأصدقاء.

****

السابعة: أن يكون ثقيلاً

قال الحسن البصري في قوله تعالى ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: 53] قال: نزلت في الثقلاء.

وقال السري أحد رجال الحديث: ذكر الله جل وعلا الثُقلاء في القرآن في قوله تعالى ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾.

وكان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله، قال ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: 12].

وقال ثقيل لمريض: ما تشتهي؟ قال: أشتهي ألا أراك.

وإن كنت تصرّ على مخالفة هذا الأدب فاصبر على مخاطبة الشاعر:

أنت يا هذا ثقيلٌ وثقيلٌ وثقيلْ أنت في المنظرة إنسان وفي الميزان فيل

يقول ابن القيم في البدائع واصفاً الثقلاء: "ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به فهو يحدث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يوما عند شيخنا (أي شيخ الإسلام) قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله وقد ضعف القوى عن حمله فالتفت إلي وقال: مجالسة الثقيل، حمى الربع. ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة أو كما قال وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجا ومخرجا" أ. هـ.

قيل للإمام أحمد من هم الثقلاء؟ قال: الثقلاء هم أهل البدع؛ لأن للناس تصانيف في الثقلاء من الجلساء، فيقولون: كان الأعمش إذا رأى رجلاً من الثقلاء أعرض وهو عالم محدث وقال: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: 12].

ويقول من ضمن مزاحه: "إذا صليت بجانب ثقيل على ميسرتك فسلم تسليمة تجزئك".

وقال ابن سيرين: "سمعت رجلا يقول نظرت إلى ثقيل مرة فغشي علي".

وكان أبو يعقوب الخُرَيمي يقول: "من فضائل العمى ومحاسنه: سقوط الواجب من الحقوق، والأمان من فضول النظر الداعية إلى الذنوب، وفقد النظر إلى الثقلاء والبغضاء".

وقال أبو حَنِيفة للأعمش، وأتاه عائِداً في مرضه: "لَوْلا أن أُثْقُل عليك أبا محمَد لعُدْتك واللهِ في كلّ يوم مَرّتين، فقال له الأعمش: والله يا بن أخي، أنتَ ثَقِيل عليّ وأنتَ في بَيْتك، فكيف لو جئتني في كلّ يوم مَرَّتين".

ذكر في بعض كتب الأدب: أن أحد الثقلاء دخل على مريض يعوده، فما كاد يجلس حتى قال:

فلان، وجهك أصفر، قال المريض: الحمد لله على كل حال.

قال: يبدو عليك الإرهاق، قال: الله يعين.

قال: المرض ظاهر عليك، متى بدأت علتك؟ قال: منذ أيام.

قال: مما تشتكي؟ قال: شكوى يسيرة وأسأل الله الشفاء.

قال: ما هي؟ قال: مرض معين.

قال: ما هو؟ أليس له اسم!! طيب.

هل أنت بخير؟ فقال المريض: كنت بخير قبل أن تدخل عليّ.

قال: حسناً أنا ذاهب، هل لك حاجة؟

قال: نعم، حاجتي أنك إذا خرجت من عندي فلا ترجع إليّ أبداً.. حتى جنازتي أعفيك من الصلاة عليها.

قيل لأبي عمرو الشيباني لأي شيء يكون الثقيل أثقل على الانسان من الحمل الثقيل فقال لأن الثقيل يقعد على القلب والقلب لا يحتمل ما يحتمل الرأس والبدن من الثقل.

إذَا جَلَسَ الثَّقِيلُ إلَيْك يَوْمًا ... أَتَتْكَ عُقُوبَةٌ مِنْ كُلِّ بَابِ
فَهَلْ لَك يَا ثَقِيلُ إلَى خِصَالٍ ... تَنَالُ بِبَعْضِهَا كَرَمَ الْمَآبِ
إلَى مَالِي فَتَأْخُذَهُ جَمِيعًا ... أَحَلُّ لَدَيْكَ مِنْ مَاءِ السَّحَابِ
وَتَنْتِفُ لِحْيَتِي وَتَدُقُّ أَنْفِي ... وَمَا فِي فِي مِنْ ضِرْسٍ وَنَابِ
عَلَى أَنْ لَا أَرَاك وَلَا تَرَانِي ... مُقَاطَعَةً إلَى يَوْمِ الْحِسَابِ

وكان يقال مجالسة الثقيل عذاب وبيل، وأنشد بعضهم:

ليتني كنت ساعة ملك الموت ... فأفني الثقال حتى يبيدوا

سلم ثقيل على إبراهيم بن عبد الله القاري صاحب هارون فقال له يا هذا قد والله بلغت منك غاية الأذى أسلفني سلام شهر، وأرحني منك.

أكب رجل من بني مرة على مالك بن أسماء يحدثه في يوم صيف، ويُغِمّه، ويثقل عليه، ثم قال: أتدري من قتلنا منكم في الجاهلية؟.

قال: لا، ولكني أعرف من قتلتم منا في الإسلام.

و قال: من هم؟

قال: أنا قتلتني اليوم بطول حديثك، وكثرة فضولك.

وقال أحمد شوقي:

سقط الثقيل من السفينة في الدجى فبكى الرفاق لفقده وترحموا

وعند ما طلع الصباح أتت به نحو السفينة موجة تتقدم

قالت خذوه كما أتاني سالماً لم أبتلعه لأنه لا يهضم

****

الثامنة: الأنانية

رسول الله ﷺ مع نبوته وفضله ومؤيد بالوحي يقترح الصحابة أن يبنوا له عريشًا في بدر يكون فيه فيقبل ذلك منهم، ويقول أشيروا علي أيها القوم فيشيرون عليه بالخروج في أحد فيخرج ولم يكن ذلك ما يميل إليه، وها هي أم سلمة في الحديبية تشير عليه ﷺ أن يبدأ هو بحلق رأسه ونحر هديه حتى ينظر الصحابة إليه فيعملوا اقتداءً به فيعمل بقولها، وجاء اليهود إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقالوا: يا مُحَمَّد! إنكم تشركون وتنددون! قال: وكيف ذاك؟ قالوا: أصحابك يقولون: ما شاء الله وشاء مُحَمَّد، ويقولون: والكعبة، فقال النبي ﷺ لأصحابه: (لا تقولوا ما شاء الله وشاء مُحَمَّد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده، ولا تقولوا: والكعبة، ولكن قولوا: ورب الكعبة).

أما العقلية الفرعونية: مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ؟ فهي التي ضيعت العباد، وأضلت الناس عن سبيل الرشاد، وأفسدت ودّ الإخوان.

وقد قيل "من استقل بعقله ضل، ومن أعجب برأيه زل".

البعض من الناس لا يفتأ يتحدث عن نفسه، فيذكر محاسن نفسه، ويمتدح أعماله، ويفتخر بما يصدر منه من أفضال وأيادٍ.

ويدخل في ذلك تحدثه عن إعجابه بكلامه، عن شجاعته، عن اقتحاماته، عن جهاده، عن نفيره، عن سابقته، عن ذكائه، عن ذكاء أولاده، وذكر أخبارهم، عن زوجته، وحسن تدبيرها، ونحو ذلك من (الأنا).

والأصل في مدح الإنسان نفسه المنع؛ لقوله عز وجل ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ [النجم: 32].

قال الإمام النووي: "واعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان: مذموم ومحبوب.

فالمذموم أن يذكر للافتخار، وإظهار الارتفاع، والتميز على الأقران، وشبه ذلك.

والمحبوب أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمراً بمعروف، أو ناهياً عن منكر، أو ناصحاً بمصلحة، أو معلماً، أو مؤدباً، أو واعظاً، أو مذكراً، أو مصلحاً بين اثنين، أو يدفع عن نفسه شراً، أو نحو ذلك، فيذكر محاسنه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله، واعتماد ما يذكره".

إن مما يعاني الواحد منا؛ حينما يرى من يُكثر من إدراج ضمير المتكلم (أنا)، أو ما يقوم مقامه كأن يقول: (في رأيي)، أو (حسب خبرتي)، أو (هذا ما توصلتُ إليه)، ونحو ذلك.

وأقبح ما في هذا أن يفخّم نفسه أكثر من ذلك، فيأتي بضمير الجمع كأن يقول: (نحن)، أو (هذا رأينا)، أو (هذا ترجيحنا)، أو (هذا ما توصلنا إليه)، أو نحو ذلك من العبارات الفَجَّة، التي تنم عن غرور ونقص.

فهذا كله مجلبة لتباعد الأنفس بعد تقاربها، ولتناكر الأرواح بعد تعارفها.

قال ابن حزم: "إياك والامتداحَ؛ فإن كل من يسمعك لا يصدقك وإن كنت صادقًا، بل يجعل ما سمع منك من ذلك أول معايبك".

وكان شيخ الاسلام ابن تيمية يخرج إلى البراري ليلا متمثلا بقول مجنون ليلى:

وأخرج من بين البيوت متخفيا لعلي أحدث عنك السر خاليا

وكان يسجد لله ويمرغ وجهه في التراب ويدعو فيقول: اللهم يا معلم إبراهيم علمني ويا مفهم سليمان فهمني، وكان إذا مدح في وجهه قال: ما أنا في شيء ولا مني شيء.

وله أبياته المشهورة:

أنا الفقـــــــير إلى رب الـــــــبريّات | أنا المِسَـــيْكينُ في مجمـــوع حـــالاتي
أنا الظلـــوم لنفســـي وهـــي ظـــالمتي | والخـــير إن يأتنـــا مـــن عنـــده يأتي
لا أســـتطيع لنفســـي جلـــب منفعـــة | ولا عـــن الـــنفس لي دفـــع المضـــراتِ

وحكى عنه تلميذه ابن القيم أنه كان يقول:

أنا المكـــــدي وابـــــن المكـــــدي | وكـــــذا كـــــان أبي وجـــــدي

وقال عنه ايضا انه كان في سجوده يتمثل قول القائل

يامـــن الـــوذ بـــه فيمـــا أؤملـــه | ومـــن اعـــوذ بـــه فيمـــا أحـــاذره
لا يجـبر النـاس عظمـا أنـت كاسـره | ولا يهيضـــون عظمـــا انـــت جـــابره

فـإن وجـد مـا يقتضـي الحـديث عـن الـنفس وتزكيتهـا إمـا للتعريـف بنفسـه، وإمـا لتوضـيح الأمـور المبهمـة، وإمـا لـدفع تهمـة، وإمـا لغـير ذلـك مـن الأمـور المشـروعة فـإن تلـك التزكيـة جـائزة، ومـدح الـنفس والحـديث عنهـا حينئـذٍ لا غبـار عليـه كمـا فعـل عثمـان ﷺ لمـا حاصره الخوارج.

قـال القـرطبي: "فـلا تزكـوا أنفسـكم أي لا تمـدحوها ولا تثنـوا عليهـا، فإنـه أبعـد مـن الـرياء وأقرب إلى الخشوع، هو أعلم بمن اتقى أي أخلص العمل واتقى عقوبة الله.

عـن الحسـن وغـيره قـال الحسـن: قـد علـم الله سـبحانه كـل نفـس مـا هـي عاملـة ومـا هـي صانعة وإلى ما هي صائرة" أ هـ.

قال الإمام مالك: "إن الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه".

قال أحد العلماء: "والقرآن يحذر من تزكية النفس، بمعنى مدحها والثناء عليها، كما قال تعالى ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: 32]، وذم اليهود والنصارى الذين زكوا أنفسهم، فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 49]، وذلك أنهم قالوا، كما حكى عنهم القرآن ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]، وردَّ عليهم بقوله ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18].

سأل الدار قطني أحدُ تلاميذه، وقال: هل رأيت مثل نفسك؟ قال الدار قطني: قال الله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فقال: هل تعرف أحداً أحفظ منك يا شيخ؟ قال: يقول الله تعالى ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وكذلك سئل ابن حجر رحمه الله: أنت أحفظ أم الذهبي؟ فسكت وما أجاب. والمواقف التي تُنقل عن العظماء والأجلاء، عندما يأتي أحدهم إلى الإمام أحمد رحمه الله ويتمسح به، فينتفض ويدفع الشخص ويزجره، ويقول: عمن أخذتم هذا؟! من أين أخذتم هذا؟! والذي يأتي ويقول له: ادع لي، يطلب الدعاء؛ فيزجره الإمام أحمد رحمه الله ويذهب، ويقول: مني لا يطلب الدعاء، أنا أدعو لك! فإذا خلا بنفسه دعا له، والذي يقول له: جزاك الله عن الإسلام خيراً، فيقول: بل الإسلام جزاه الله عني خيراً، ومن أنا؟!

قال ابنُ رَجب رحمه الله: "وأمَّا مَنْ علمه غيرُ نافعٍ فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس، وإظهار فضل علمه عليهم ونسبتهم إلى الجهل، وتنقُّصهم ليرتفع بذلك عليهم؛ وهذا من أقبح الخصال وأردئها، وربما نسب من كان قبله من العلماء إلى الجهل والغفلة والسهو، فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها، وإحسان ظنه بها وإساءة ظنه بمن سلف، وأهل العلم النافع على ضد هذا يسيئون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بمن سلف من العلماء ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف

علـيهم وبعجـزهم عـن بلـوغ مـراتبهم والوصـول إليهـا أو مقاربتهـا، وكـان ابـن المبـارك إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد:

لا تعرضن لذكرنا في ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد"أ هـ.

****

التاسعة : إرضاء الأخ بكل شيء

إرضاء الناس كلهم غاية لا تدرك فإنك لا تكاد ترضي هذا حتى يسخط عليك هذا فاجعل رضا الله عنك مطلبًا لك، ومبتغى تبتغيه، وغاية تنشدها.

بعض الأخوة يريد إرضاء أخيه بكل شيء وهذا مما يودي إلى الخلاف والفرقة لأن هذا فوق المستطاع.

واعلم أخي الحبيب أن إرضاء الناس غير مقدور، وتحصيله غير مطلوب، ومن ذا الذي يقدر على إرضاء الناس. قال الله تعالى ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تيمية قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ: "وَمِمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ: لَا يَسُوغُ فِي الْعَقْلِ وَلَا الدِّينِ طَلَبُ رِضَا الْمَخْلُوقِينَ لِوَجْهَيْنِ:

(أَحَدُهُمَا): أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ: رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ. فَعَلَيْك بِالْأَمْرِ الَّذِي يُصْلِحُك فَالْزَمْهُ وَدَعْ مَا سِوَاهُ وَلَا تُعَانِهِ.

وَ (الثَّانِي): أَنَّا مَأْمُورُونَ بِأَنْ نَتَحَرَّى رِضَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ وَعَلَيْنَا أَنْ نَخَافَ اللَّهَ؛ فَلَا نَخَافُ أَحَدًا إلَّا اللَّهَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وَقَالَ ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾.

وَمَنْ لَزِمَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُ كَمَا كَتَبَتْ عَائِشَةُ إلَى مُعَاوِيَةَ:

"أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ مَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ؛ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ، وَعَادَ حَامِدُهُ مِنْ النَّاسِ ذَامًّا، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ".

فَالْمُؤْمِنُ لَا تَكُونُ فِكْرَتُهُ وَقَصْدُهُ إِلَّا رِضَا رَبِّهِ وَاجْتِنَابَ سَخَطِهِ وَالْعَاقِبَةُ لَهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاَللَّهِ"أ هـ.

قال أبو الدرداء ﷺ: "إن الله إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به من قِبَل العباد".

قال الشافعي رحمه الله: "رضا الناس غاية لا تدرك، وليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل، فعليك بما ينفعك فألزمه".

فيه عن الشافعي ﷺ أنه قال ليونس بن عبد الأعلى: "يا أبا موسى! رضا الناس غاية لا تدرك، ليس إلى السلامة من الناس سبيل فانظر ما فيه صلاح نفسك فالزمه ودع الناس وما هم فيه". رواه الخطابي في"العزلة ".

وقد قيل: إرضاء الناس غير مقدور، ولا مأمور، ولا مأثور.

يحكى أن رجلاً من عقلاء الناس كان له ولد، فقال له يومًا، يا أبي ما للناس ينتقدون عليك أشياء وأنت عاقل؟ ولو سعيت في مجانبتها سلمت من نقدهم. فقال: يا بني إنك غر لم تجرب الأمور، وإنَّ رضا الناس غاية لا تدرك، وإني أوقفك على حقيقة ذلك، وكان عنده حمار، فقال له: اركب هذا الحمار وأنا أتبعك ماشيًا، فبينما هو كذلك إذ قال رجل: انظر، ما أقل هذا الغلام بأدب! يركب ويمشي أبوه!! وانظر ما أشد تخلف والده لكونه يتركه لهذا! فقال له: انزل أركب أنا وامش أنت خلفي. فقال شخص آخر: انظر هذا الشخص ما أقله شفقة! ركب وترك ابنه يمشي! فقال له: اركب معي، فقال شخص: أشقاهما الله! فقال له: انزل بنا، وقدما الحمار وليس عليه راكب. فقال شخص: لا خفف الله عنهما! انظر كيف تركا الحمار فارغًا وجعلا يمشيان خلفه! فقال: يا بني: أسمعت كلامهم؟ وعلمت أن أحدًا لا يسلم من اعتراض الناس على أي حالة كان.

ضحِكْتُ فقالوا: ألا تحَتَشِمْ؟! بكيتُ فقالوا: ألا تبتسمْ؟!
بسمتُ فقالوا: يرائي بها عَبستُ فقالوا: بدا ما كَتَم

صَـــمَتّ فقـــالوا: كليـــل اللســـان نطقـــت فقـــالوا: كثـــير الكَلِـــمْ
حَلُمـــت فقـــالوا: صـــنيع الجبـــان ولـــو كـــان مقتـــدراً لانـــتقَم
بَسُـــلتُ فقـــالوا: لطـــيشٍ بـــهِ ومـــا كـــان مُجْـــترِئاً لـــو حَكُـــمْ
يقولـــون: شـــذّ؛ إذا قلـــتُ: لا، وإمّعـــــة حـــين وافَقْـــتُهُم
فأيقنـــــــت أنيَّ مهمـــــــا أُرِدْ رِضـــى النـــاس لابـــدّ مِـــنْ أنْ أذَمّ

إذاً لا صلاح للنّفس إلّا بإيثار رضا ربّها ومولاها على غيره، ولقد أحسن من قال:

فليتـــك تحلـــو والحيـــاة مريـــرة وليتـــك ترضـــى والأنام غضـــاب
وليـــت الّـــذي بيـــني وبينـــك عـــامر وبيـــني وبـــين العـــالمين خـــراب
إذا صـــحّ منـــك الـــودّ فالكـــلّ هـــيّن وكـــلّ الّـــذي فـــوق الـــتّراب تـــراب

****

العاشرة : النصيحة أمام الناس

النصيحة أمام الناس فضيحة وجرح لا يندمل في قلب الأخ، هلا أخذت بيده وواريته خلف حائط ونصحته فهذا أدعى للقبول، وعدم نسيان المعروف.

الإنسان لا يقبل أن يطلع أحد على عيبه، فإذا نصحته سرا، كان ذلك أرجى للقبول، وأدل على الإخلاص، وأبعد عن الشبهة، وأما إذا نصحته علنا أمام الناس فإن في ذلك شبهة الحقد والتشهير، وإظهار الفضل والعلم، وهذه حجب تمنع من استماع النصيحة والاستفادة منها.

قال الله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ [النساء: 63].

قال ابن كثير: قوله تعالى ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسهمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أَيْ وَانْصَحْهُمْ فِيمَا بَيْنك وَبَيْنهمْ بِكَلَامٍ بَلِيغ رَادِع لَهُمْ".

قال السعدي: "﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: انصحهم سرا، بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم، عما كانوا عليه. وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي، وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سرا، ويبالغ في وعظه، بما يظن حصول المقصود به".

قال ابن رجب: "وكان السلف يكرهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذا الوجه ويحبون أن يكون سراً فيما بين الآمر والمأمور فإن هذا من علامات النصح فإن الناصح ليس له غرض في إشاعة عيوب من ينصح له وإنما غرضه إزالة المفسدة التي وقع فيها".

قال الشافعي رحمه الله: "من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه".

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله:

تعمـــدْني بنصـــحِكَ في انفـــرادي	وَجّنْبــــني النصـــيحةَ في الجماعـــةْ
فـــإن النصـــحَ بـــين النـــاسِ نـــوعٌ	مـــن التـــوبيخِ لا أرضـــى اســـتماعَهْ
وإن خـــالفتني، وعصـــيتَ قـــولي	فـــلا تجـــزعْ إذا لم تُعْـــطِ طاعـــةْ

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: "المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير ".

ويعقب الحافظ ابن رجب على كلمة الفضيل هذه بقوله: "فهذا الذي ذكره الفضيل من علامات النصح، وهو أن النصح يقترن به الستر، والتعيير يقترن به الإعلان".

ويقول الإمام أبو حاتم بن حبان البستي رحمه الله تعالى: "النصيحة تجب على الناس كافة على ما ذكرنا قبل، ولكن إبداءها لا يجب إلا سراً، لأن من وعظ أخاه علانية فقد شانه، ومن وعظه سراً فقد زانه، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزين أخاه أحرى من القصد فيما يشينه".

ويقول الإمام أبو مُحَّد ابن حزم رحمه الله: "وإذا نصحت فانصح سراً لا جهراً، وبتعريض لا تصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فلابد من التصريح ".

****

الحادية عشر : كثرةُ المخَالفة للأخ

اعلم أنّ كَثرةَ المخالفة توغرُ الصدورَ، وأنّ طولَ المرافقة مِن كثرةِ الموافقة.

فمن الناس من هو محب للمعارضة، كَلِفٌ بالمخالفة، لا يوافق إخوانه على أمر، ولا يسلم لهم بشيء.

فإذا كان في قومٍ يتبادلون أطراف الحديث أشغلهم بكثرة شغبه واعتراضه.

المؤمن الحقيقي كما قال ﷺ: (ألا أنبئكم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟ على قريب هين سهل)، (رواه الترمذي) وصححه الألباني.

وفي رواية: (من كان سهلاً هينًا لينًا حرمه الله على النار).

قال ﷺ: (المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس) (رواه الدار قطني) وصححه الألباني.

وقال رسول الله – ﷺ: "المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف إذا قيد انقاد، وإذا أنيخ على صخرة استناخ".

وإذا صحبتَ فاصحبْ صَاحِبًا ... قوله للشيء لا إن قلت لا
حياء وعفافٍ وكرَم ... وإذا قلت نعم قال نَعَم

وهذا بلا شك فيما لا يخالف الشرع بل في الإطار الذي لا يمنع الشرع من الموافقة فيه، كما في الأمور التي ترجع إلى المزاج وما يهواه الصاحب مما لا تقييد فيه من قبل الشارع.

وقد كان ﷺ قدوة في اللين والسهولة والبعد عن الكبر والفظاظة حتى إن الأمة كانت تأخذ بيده فتنطلق به لحاجتها إلى حيث شاءت من المدينة، بل ما أعجب

ما ذكره أنس ﷺ خادمه إذ يقول: خدمت رسول الله – ﷺ – عشر سنين فما قال لي: أفٍ قط، ولا قال لشيء فعلته: لمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لِمَ لَمْ تفعلْه؟! هذا مع الخادم فكيف مع الصاحب؟!

فالموافقة وقلة المعارضة تجلب المحبة، وتستديم الألفة، وكثرة المعارضة وقلة الموافقة تستدعي المباغضة، وتقود إلى العداوة.

قال الشافعي:

أُحِبُّ من الإخوان كلَّ مُواتي ... وكلَّ غضيضِ الطَّرْفِ عن عثراتي
يوافقني في كلِّ أمرٍ أقولُه ... ويحفظني حياً وبعد مماتي
فمن لي بهذا؟ ليت أني لقيته ... لقاسمته مالي من الحسناتِ

وقال ابن حزم: "إياك ومخالفةَ الجليس، ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك في دنياك ولا في آخرتك وإن قل؛ فإنك تستفيد بذلك الأذى، والمنافرة، والعداوة، وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلاً"أ هـ.

وقال الخطابي: "محذراً من هذا الأمر: وقال بعضهم: إن من الناس من يولع بالخِلاف أبداً، حتى إنه يرى أن أفضل الأمور ألا يوافق أحداً، ولا يجامعه على رأي، ولا يواتيه على محبة.

ومن كان هذا عادتَه فإنه لا يبصر الحق، ولا ينصره، ولا يعتقده ديناً ومذهباً.

إنما يتعصب لرأيه، وينتقم لنفسه، ويسعى في مرضاتها، حتى لو أنك رُمْتَ أن تَتَرَضَّاه، وتوخَّيتَ أن توافقه على الرأي الذي يدعوك إليه تَعَمَّدَ لخلافك فيه، ولم يرض به حتى ينتقل إلى نقيض قوله الأول.

فإن عُدت في ذلك إلى وفاقه عاد فيه إلى خلافك".

وقال الخطابي أيضاً: "فمن كان بهذه الحال فعليك بمباعدته، والنِّفار عن قربه؛ فإن رضاه غايةٌ لا تدرك، ومدى شأوه لا تُلحق ".

ثم أورد أمثلة لذلك، فقال: أخبرني ابن التِّعْياني، قال: أخبرنا الزَّجاج، قال: كنا عند المبرِّد أبي العباس محمَّد، فوقف عليه رجل، فقال: أسألك عن مسألة في النحو؟.

قال: لا، فقال: أخطأت، فقال: يا هذا! كيف أكون مخطئاً أو مصيباً ولم أُجبْك عن المسألة بعدُ؟!.

فأقبل عليه أصحابه يُعَنِّفُونه، فقال لهم: خَلُّو سبيله، ولا تَعَرَّضوا له، أنا أخبركم بقصته؛ هذا رجل يحب الخلاف، وقد خرج من بيته وقصدني على أن يخالفني في كل شيء أقوله، ويخطِّئني فيه، فسبق لسانُه بما كان في ضميره.

****

الثانية عشر: طلب الكمال

لا تطلب الكمال من أخيك، بل اطلب منه أحسن الموجود! وهلا فكرت في نفسك كم فيك من العيوب.

لذا ينبغي أن يُعلم أن الأخوة جهد بشري، وأن الدنيا لا تخلو من منغصات، بدليل أن الشرع أباح الهجر دون ثلاث، وإنما يطيب العيش في الجنة، ولا يخفى ما حصل بين خيرة الأمة.

قال سيد قطب رحمه الله: "إن العظمة الحقيقية أن نخالط الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطأهم، وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم، ورفعهم إلى آفاقنا العليا، وليس معنى هذا أن نتخلى عن آفاقنا ومثلنا السامية أو نتملقهم ونثني على رذائلهم، بل إن التوفيق بين هذه المتناقضات وسعة الصدر هو العظمة الحقيقية"أ هـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ"أ هـ.

ورحم الله ابن الأثير الجزري إذ يقول: "وإنما السيد من عدَّت سقطاته وأخذت غلطاته، فهي الدنيا لا يكمل فيها شيء"أ هـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: "وكيف يُعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولاً؟ ولكن من عدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدَّت إصاباته"أ هـ.

ولنا في كلام رسول الله ﷺ غنية عما سواه من الكلام، فقد بيَّن عليه الصلاة والسلام أن الناس قد جبلوا على هذا الأمر وهو الخطأ ثم أرشدهم إلى الإنابة من هذا الخطأ عن طريق التوبة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ).

كن على يقين أنه لا يوجد إنسان كامل:

ركز على الأشياء الجميلة، ولا تركز على السلبيات فلا يوجد إنسان كامل خالي من العيوب قال الرسول ﷺ: (لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر) رواه مسلم.

فما منا من أحد يسلم من العيوب، فلا أب أو أم بلا عيوب، ولا أخ بلا عيوب، ولا زوجة بلا عيوب، ولا أبناء بلا عيوب، ولا صديق بلا عيوب.

قال سعيد بن المسيب رحمه الله: "ليس مِن شريفٍ ولا عالمٍ ولا ذي فضلٍ إلا فيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكر عيوبه".

فمن كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله.

وقال الكندي -رحمه الله-: "من لم يؤاخ من الإخوان إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإخلاصه له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه".

وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحب إليك؟؟

قال: "الذي يسد خلتي ويغفر زلتي ويقبل عثرتي".

وقد قيل: "من تتبّع خفيات العيوب حرمه الله مودّات القلوب ".

وقال الشاعر:

بكيت من عمروٍ فلما تركته — وجربت أقواماً بكيت على عمرو

******

الثالثة عشر: كثرة الاعتذار

في حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (إياك وكل ما يُعتذر منه)، في هذا الحديث الكريم عباد الله، يبين لنا فيه نبينا ﷺ أن نجتنب فعل الأمور التي يحتاج إلى الاعتذار بعد فعلها، وهي الأمور السيئة التي تجلب على صاحبها الذم، لأن الأمور الحسنة والأفعال الطيبة، لا يحتاج فاعلها إلى الاعتذار منها، وهذا فيه صيانة لدين الإنسان وحفظا لماء وجهه، فالذي يقترض مالا على سبيل المثال، ثم يعتذر لتأخره عن سداد ذلك المال، أولى في حقه أن لا يقترض، لكي لا يحتاج إلى الاعتذار، والذي يغضب ويخرج عبارات لا تلعق، كان الأولى به أن يمسك نفسه عند الغضب، والذي يوعد ثم يخلف، كان الأولى به ألا يعد أصلاً، ولا يفهم من الحديث أن النبي ﷺ ينهانا عن الاعتذار مطلقا، فإن الاعتذار عن الخطأ مشروع، وأمر محمود، ولكن المذموم هو أن ترتكب ما تحتاج معه إلى الاعتذار عنه، وكل من يُخطئ فله عذر، ولكن من الأعذار ما يكون مقبولا ومنها ما لا يُقبل، فالأعذار التي يأتي بها الظالمون يوم القيامة لا تنفعهم، قال تعالى: يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

أحياناً الأخ يتحمل منك الاعتذار الأول الهفوة الأولى وأحيانا الثانية والثالثة، لكن إذا كثرت الهفوات، فقد لا يتحمل ذلك، بل قد يشكل على الأخ صدقك من كذبك، وتكون حينئذ محل تهمة، بل ومحل سخرية لكثرت الاعتذارات.

قال ابن عون: اعتذر رجل عند إبراهيم فقال: قد عذرناك غير معتذر إن الاعتذار يخالطه الكذب.

سمعَ طلحةُ بن مصرف رجلاً يعتذرُ إلى رجلٍ فقالَ: لا تكثر الاعتذارَ إلى أخيكَ، أخافُ أنْ يبلغَ بكَ الكذبَ.

عـن أنـس بـن مالـك – رضي الله عنه – قـال: قـال رسـول الله – صلى الله عليه وسلم –: "إذا حـدثتم فـلا تكذبوا وإذا أؤتمنتم فلا تخونوا".

مـن أقـبح الاعتـذارات، اعتـذار المنـافقين، الاعتـذار كـذباً قـال الله تعـالى ﴿يَعْتَـذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 94].

مـا كـانوا يتوقعـون أن يعـود النـبي – صلى الله عليه وسلم – موفـورا منصـورا، بـل كـانوا يتوقعـون أن ينـال منـه الرومـان هـو ومـن معـه مـن المـؤمنين، حـتى لقـد كـانوا يقولـون في مجالسـهم، إن الرومـان سـيكبلون العـرب، والمنـافق مسـرف في القـول دائمـا، ولكـنهم رأوهـم قـد جـاءوا منتصـرين، وتخـاذل الرومـان عـن لقـائهم، وقـد راعهـم ذلـك، فبـدءوا يعتـذرون كـاذبين، كمـا اعتـذروا في التخلـف كـاذبين، ولـذا قـال تعـالى ﴿يَعْتَـذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ سـالمين أقـوياء مسـيطرين علـى أنفسـكم أحـرازا غـير مكبلـين، والاعتـذارات كاذبـة كقـولهم لـو نعلـم قتـالا لاتبعنـاكم، فيـأمر الله تعـالى نبيـه بقولـه تعالـت كلماتـه: ﴿قُـل لَا تَعْتَـذِرُوا﴾ فكـان النهـي عـن الاعتـذار؛ لأنـه كـذب، والتمـادي في الاعتـذار الكـاذب تمـاد في الكـذب، والتمـادي في الكـذب فجـور وهـو غـير مقبـول، ولـذا بـين السـبب فقـال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾، أي لـن نسـلم لكـم بمـا تقولـون مـن أكاذيـب، ونحـن نكـذبها لأن النبـأ اليقـين قـد جـاءنا عـن الله، ولـذا قـال تعـالى في سـبب التكـذيب وعـدم التسـليم لهـم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ النبـأ: الخـبر الخطـير، و(مِـنْ) هنـا للتبعـيض، أي قـد نبـأنا الله تعـالى بـبعض أخبـاركم وهـو مـا يتصـل بنيـاتكم وبقلـوبكم، وبالأفعـال الـتي تقصـدون بهـا إفسـاد عـزائم المـؤمنين، وتخـذيلهم عـن المجاهـدين، وحقيقـة مـا تقصدون باعتذاراتكم وأنها كاذبة. (زهرة التفاسير).

الرابعة عشر: عَدَمُ التأدب بآداب الخطاب

ومما ينبغي للأخ مع أخيه في الحديث أن يلزم الكلمة الطيبة اللينة اللطيفة العفيفة ويحذر من الكلام الخشن والكلام الذي يستحيا منه أو ينفر منه أصحاب المروءة، وقد قال ﷺ: (أطعموا الطعام، أطيبوا الكلام)، وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ﵁ أنه قال: (لم يكن ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا)، وقال علي ﵁: "من لانت كلمته وجبت محبته".

روى مسلم في صحيحه أن سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ ﵁ قال: "لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُلاَماً فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ أَنَّ هَا هُنَا رِجَالاً هُمْ أَسَنُّ مِنِّي".

قال بعض السلف: "إن الرجل ليحدثني بالحديث أعرفه قبل أن تلده أمه فيحملني حسن الأدب على الاستماع إليه حتى يفرغ".

قال معاذ بن سعد الأعور: "كنتُ جالساً عند عطاء بن أبي رباح فحدث رجل بحديث، فعرض رجل من القوم في حديثه، فغضب وقال: ما هذه الأخلاق؟ وما هذه الطبائع؟ إني لأسمع الحديث من الرجلِ وأنا أعلمُ به فأُريه أنه لا أُحسِنُ منه شيئاً".

وتأمل خلقه العظيم ﷺ وهو يسمع عتبة وهو مشرك فلا يقاطعه حتى إذا سكت قال له: "أقد فرغت يا أبا الوليد".

قالت جويرية: "دعوت الله أربعين سنة أن يعصمني من مخالفة الإخوان".

قال أبو زائدة: "كتب الأحنف إلى صديق له: أما بعد، فإذا قدم أخ لك موافق، فليكن منك بمنزلة السمع والبصر؛ فإن الأخ الموافق أفضل من الولد المخالف. ألم

تسمع قول الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه: ﴿إِنَهُ لَيسَ مِن أَهلِكَ إِنَهُ عَمَلٌ غَيرَ صَالِحٍ﴾" [هود: 46].

قال الأوزاعي: "كان الحسن رحمه الله إذا قص القاص لم يتكلم فقيل له في ذلك فقال: إجلالاً لله".

إن رمــــت أن تحــــدثا	بمـــا مضـــى أو حـــدثا
لتـــونس الأصـــحابا	فأحســـن الخطـــابا
واختصـــر العبـــارة	ولا تكـــن مهـــذارة
واخـــتر مـــن الكـــلام	مـــا لاق بالمقـــام
مـــن فـــائق العلـــوم	ورائـــق المنظـــوم
واذكـــر مـــن المنقـــول	مـــا صـــح في العقـــول
واجتنـــب الغرائبـــا	كـــيلا تظـــن كـــاذبا
وإن أخـــوك أسمعـــا	فكـــن لـــه مســـتمعا
والـــزم لـــه الســـكوتا	وأحســـن الإنصـــاتا
ولا تكـــن ملتفتـــا	عنـــه إلى أن يســـكتا
وإن أتـــى بنقـــل	سمعتـــه مـــن قبـــل
فـــلا تقـــل هـــذا الخـــبر	علمتـــه فيمـــا غـــبر
فـــلا تكـــذب مـــا روى	ودع ســـبيل مـــن غـــوى

****

الخامسة عشر: الاستخفاف بالأخ

من سمات الطغاة المتكبرين الاستخفاف بالآخر مهما كان، ولذلك وصفهم الله عز وجل في شخص كبيرهم وقدوتهم فرعون قال عز وجل ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54].

يقول سيد قطب رحمه الله في ظلال عند هذه الآية: "واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثَمَّ يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يَزِنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾"أ هـ.

روى الطبراني في الكبير وفيه ضعف عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ثلاث لا يستخف بهم إلا منافق: ذو الشيبة في الإسلام، وذو العلم وإمام مقسط).

والاستخفاف كأن يهزأ به ويسخر منه ويوجه كلاماً سيئاً إليه، ويسيء الأدب في حضرته، وينهره في وجهه ويحرك بعض أعضاءه مما يدل على الاستخفاف، وحركات الجسم تختلف من مكان إلى مكان التي تدل على الازدراء.

قال ابن المبارك: "من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته".

ومن أعظم الاستخفاف، الاستخفاف بمن هو أكبر منك أو بأميرك.

قال صاحب العمدة: "وإهانة ولي الأمر قد تكون بعصيان أوامره والاستخفاف بها، أو بالسخرية من الأمير بالقول والغمز واللمز، أو بوصفه بصفةٍ خُلُقيةٍ أو خَلْقيةٍ فيه تدعو للاستخفاف به، أو بمدح غيره بما فيه تعريضٌ بالذم لهذا الأمير، أو تشجيعٌ للآخرين على إهانة الأمير وعصيانه، وعموماً يدخل في الإهانة كل ما فيه انتقاصٌ لقدر الأمير وتجريحه.. فقد أمر الرسول -ﷺ- بطاعة الأمير وإن كان عبداً حبشياً مُجَدَّعَ الأطراف... فمن أقدم على إهانة الأمير فقد تعرض لإهانة الله له في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالعذاب".

وعن أبي بَكْرَة قال: "من أَجَلَّ سلطان الله أجلّه الله يوم القيامة"؛ وهذا ينطبق على كل من تولى إمارةً على غيره إذ أنه أميرٌ بحكم الشريعة...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيره يقولون: لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان).

تنبيه: ولا يَظُنَّ أحد أننا بدعوتنا الرعية إلى توقير الأمير ندعو بذلك إلى تقديسه، وإنما ندعو إلى الوسط كما هي دعوة الإسلام في كل أمر، فتوقير الأمير وسَط بين تفريطٍ وإفراط؛ فأما التفريط فهو إهانة الأمير التي وردت السنة بالنهي عنها والوعيد عليها، وذكرنا بعضَ صور الإهانة فيما سبق.. وأما الإفراط في توقير الأمير فهو أيضا منهي عنه ومذموم؛ ومن صوره السكوت عن منكرات الأمير، وأدهى من ذلك تبريرُ منكراته وتأويلها على وجه حسن، والمغالاةُ في مدحه، وخلعُ ما لا يجوز من الصفات عليه، فتوقير الأمير ليس مقصودا لذاته، بل من أجل المحافظة على وحدة الجماعة المسلمة، وهذا مقصد شرعي وسد لذريعة العصيان والشقاق".

******

السادسة عشر: التعيير والشماتة

هي الْفَرَحُ بِمَا يَنْزِل بِالْغَيْرِ مِنَ الْمَصَائِبِ، وَالشَّمَاتَةُ وَالْحَسَدُ يَتَلاَزَمَانِ، لأِنَّ الْحَسُودَ يَفْرَحُ بِمَصَائِبِ الْغَيْرِ.

قال هارون لموسى عليهما السلام حين أخذ برأسه ﴿فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: 150].

قال القرطبي في تفسيره: "والشماتة: السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدين والدنيا. وهي محرمة منهي عنها. وفي الحديث عن النبي ﷺ: (لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك). وكان رسول الله ﷺ يتعوذ منها ويقول: (اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء). أخرجه البخاري وغيره". وقال الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وقال ابن رجب: "فإذا أخبر أحد أخاه بعيب ليجتنبه كان ذلك حسناً لمن أُخبر بعيب من عيوبه أن يعتذر منها إن كان له منها عذر وإن كان ذلك على وجه التوبيخ بالذنب فهو قبح مذموم".

وقيل لبعض السلف: أتحبُّ أن يخبرك أحد بعيوبك؟ فقال: "إن كان يريد أن يوبخني فلا".

فالتوبيخ والتعيير بالذنب مذموم وقد نهى النبي ﷺ أن تُثَرَّبَ الأمة الزانية إذا زنت مع أمره بجلدها فتجلد حداً ولا تعير بالذنب ولا توبخ به"أ هـ.

فعن ابن عمر قال: "صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: (يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله)

معنى التعيير (أن يريد الإنسان ذم رجل وتنقصه وإظهار عيبه لينفر الناس عنه إما محبة لإيذائه أو لعداوته أو مخافة من مزاحمته على مال أو رئاسة أو غير ذلك من الأسباب المذمومة فلا يتوصل إلى ذلك إلا بإظهار الطعن فيه بسبب...).

قال ابن حبان . رحمه الله-: "فمن اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه؛ فإن أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه" أ هـ.

وعن المعرور بن سويد، قال: "لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلا فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: (يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم).

ولما ركب ابن سيرين الدَّيْن وحبس به قال: "إني أعرف الذنب الذي أصابني هذا عيَّرت رجلاً منذ أربعين سنة فقلت له: يا مفلس ".

وقال بعضهم: "لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك"، فإذاً: أنت لابد أن تحس يا أخي أنك يمكن أن تقع في نفس ما وقع فيه هذا الشخص، فعندما تعيره بالفاحشة فقد تقع في الفاحشة، وعندما تعيره بالكذب فقد تقع في الكذب ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 74] هذا الرسول ﷺ يقال له هذا الكلام، وقال يوسف ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ

وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: 33] هذا النبي يوسف عليه السلام يقول لربه لو لم تصرف عني كيد هؤلاء النسوة أقع في الفاحشة، وكان عامة يمينه ﷺ: (لا ومقلب القلوب).

في الحديث الصحيح: (إن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، قال الله: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك) هذا تعدٍّ على حق من حقوق الله، من الذي يغفر؟ إنه الله عز وجل هو الذي يغفر، أنت لا تعطي الناس كروتاً إلى جهنم والجنة توزع عليهم تقول: أنت يغفر لك وأنت لا يغفر لك، ليست من صلاحياتك.

****

السابعة عشر: الإصْغَاء للنمّامينَ

النميمة هي السعي بين الناس بالإفساد، تحريض الناس بعضهم على بعض، والإيقاع بينهم، وشحن قلوبهم بالعداء والضغينة، والنميمة قد تكون للإفساد بين صديقين، أو شريكين، أو زوجين، أو قريبين، أو حبيبين، أو أسرتين، أو قبيلتين، أو شعبين، بينهما صلات، ومودات.

النميمة كم جرت من ويلات وأفسدت من صلات وكشفت من عورات، كم بذرت بذورا للشحناء، وأرست من قواعد للعداوة والبغضاء. كم خربت من بيوت عامرة وفرقت بين أسر مجتمعة وأزهقت من أرواح بريئة.

وهي أخبث وسائل التفريق الشيطانية، وقد أبان رسول الله ﷺ أن النمام لا يدخل الجنة، فعن حذيفة ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ) (متفق عليه).

وروى ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: (إنَّهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنَّه كبير: أما أحدهما، فكان يمشي بالنميمة...) (متفق عليه).

قال الخليل بن أحمد: "من نم لك نم عليك، ومن أخبرك خبر غيرك أخبره بخبرك".

ورحم الله أبا الدرداء إذ يقول: "أطع أخاك ولن له، ولا تسمع فيه قول حاسد وكاشح". أي عدو.

قال الإمام النووي: "وكل من حملت إليه نميمة، وقيل له: فلان يقول فيك، أو يفعل فيك كذا فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدق، لأن النمام فاسق.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك، وينصحه، ويقبح له فعله.

وَعِنْدَهُمَا وَعِنْدَ غَيْرِهِمَا فِي أَوَّلِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ).

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى؛ فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث عن ذلك.

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكي نميمته عنه فيقول: فلان حكى كذا، فيصير به نماماً، ويكون آتياً ما نهى عنه..."أ هـ.

روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: أنّه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئا فقال له عمر: "إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية ﴿إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ وإن شئت عفونا عنك؟» فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدا".

قال الشّاعر:

لا تقبلنّ نميمة بلّغتها ... وتحفّظنّ من الّذي أنباكها

إنّ الّذي أهدى إليك نميمة ... سينمّ عنك بمثلها قد حاكها

****

الثامنة عشر: التفاخر بالأنساب

يقول الله تعالى في محكم التنزيل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ [الحجرات: 13] ثم بين الحكمة من ذلك قال: {لِتَعَارَفُوا} لا لتفاخروا، ثم بين معيار التفاضل بين الناس فقال: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قد أذهب الله عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي والناس بنو آدم وآدم من تراب). رواه الترمذي وصححه الألباني.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: (أكرم الناس عند الله أتقاهم)، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (أكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله) قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: (تسألوني عن معادن العرب؟) قالوا: نعم.

قال: (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا). رواه البخاري ومسلم.

عن أبي بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام. فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة، فمن أنت لا أم لك؟! قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام، قال: فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار، فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة، فأنت ثالثهما في الجنة" رواه أحمد وصححه الألباني.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) من بطأ به عمله، قصر في الطاعات والواجبات لم يسرع به نسبه عند الله ولن ينفعه نسبه.

والأصل أن لا يقع التفاخر بين المسلمين، لقوله عليه الصلاة والسلام: (إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يَبْغِ أحَد على أحد). رواه مسلم.

قال ابن تيمية: "إن تعليق الشرف في الدين بمجرد النسب هو حكمٌ من أحكام الجاهلية الذين اتبعتهم عليه الرافضة وأشباههم من أهل الجهل، ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحدا بنسبه، ولا يذم أحدا بنسبه، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان" أ هـ.

والفَخْر منه ما هو جائز، ومنه ما هو منهي عنه ممنوع شرعا.

قال عليه الصلاة والسلام كما في حديث جابر بن عتيك: (أما الخيلاء التي يحبها الله فاختيال الرجل في القتال واختياله عند الصدقة وأما الخيلاء التي يبغض الله فاختيال الرجل في البغي والفخر) رواه أبو داود والنسائي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "دل على أن الاستطالة على الناس ان كانت بغير حق فهي بَغْي، إذ البغي مُجاوزة الْحَدّ، وإن كانت بِحَقّ فهي الفَخْر" اهـ.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ بعد أن تحدث عن العجب وذكر شيئا من ضروبه: "وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا؛ لأن هذا الذي أعجبت به لا فائدة له أصلا في دنيا ولا آخرة، وانظر هل يدفع عنك جوعة؟ أو يستر لك عورة؟ أو ينفعك في آخرتك؟.

ثم انظر إلى من يساهمك في نسبك، وربما فيما هو أعلى منك ممن نالته ولادة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم ولادة الخلفاء، ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء، ثم ولادة ملوك العجم من الأكاسرة والقياصرة، ثم ولادة التبابعة، وسائر ملوك الإسلام، فتأمل غبراتهم وبقاياهم، ومن يدلي بمثل ما تدلي به من ذلك، تجد أكثرهم

أمثال الكلاب خساسة، وتلفهم في غاية السقوط، والرذالة، والتبذل، والتحلي بالصفات المذمومة، فلا تغتبط بمنزلة هم فيها نظراؤك أو فوك"...

ثم لعل الآباء الذين تفخر بهم كانوا فساقا، وشربة خمور... أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور، فأنتجوا ظلما وآثارا قبيحة تبقي عارهم بذلك الأيام، ويعظم أثمهم والندم عليها يوم الحساب.

فإن كان كذلك فاعلم أن الذي أعجبت به من ذلك داخل في العيب، والخزي، والعار، والشنار، لا في الإعجاب.

وإن أعجبت بولادة الفضلاء إياك فما أخل يدك من فضلهم إن لم تكن أنت فاضلا، وما أقل عناهم عنك في الدنيا والآخرة إن لم تكن محسنا.

والناس كلهم أولاد آدم الذي خلقه الله بيده، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته ولكن ما أقل نفعه لهم...

وإذا فكر العاقل في أن فضل آبائه لا يقربه من ربه ـ تعالى ـ ولا يكسبه وجاهة لم يحزها هو بسعده أو بفضله في نفسه، ولا مالا ـ فأي معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه؟ !

وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب بمال جاره؟ وبجاه غيره؟ وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه؟

وكما تقول العامة في أمثالها: كالغبي يزهى بذكاء أبيه"...

وقد كان ابن نوح، وأبو إبراهيم، وأبو لهب عم النبي ـ ﷺ ـ أقرب الناس من فضل خلق الله . تعالى . وممن الشرف كله في اتباعهم، فما انتفعوا بذلك"أ. هـ

قال أحد الشعراء:

أيها الطالب فخرا بالنسب إنما الناس لأم ولأب

هل تراهم خلقوا من فضة؟ أو حديد أو

أو تـــــرى فضـــــلهم في خلقهـــــم هـــل ســوى لحــم وعظــم وعصــب

إنمـــا الفضـــل بحلـــم أرجـــح وبأخـــــــــلاق كـــــــــرام وأدب

ذاك مـــن فـــاخر في النـــاس بـــه فـــاق مـــن فـــاخر مـــنهم وغلـــب

لقــد رفــع الإســلام ســلمان فــارس كمــا وضــع الكفــر الشــريف أبا لهــب

****

التاسعة عشر: عدم الاستئذان حال دخول البيوت

الاستئذان أدب رفيع، يدل على حياء صاحبه وشهامته، وتربيته وعفته، ونزاهة نفسه وتكريمها عن رؤية ما لا يحب أن يراه عليه الناس، أو سماع حديث لا يحل له أن يسترقه دون معرفة المتحادثين، أو الدخول على قوم وإيقاعهم بالمفاجأة والإحراج.

والاستئذان هو طلب الأذن، ويكون لدخول بيت، أو الانضمام إلى مجلس، أو الخروج منه، أو التصرف في متاع غيره، أو إبداء رأي في مجتمعات الناس، أو سماع حديثهم.

ولذا فإن أدب الاستئذان واجب الكبير والصغير، وله مكانة خاصة في التشريع الإسلامي حتى خصه الله تعالى بآيات تتلى على مر الأجيال، وتعاقب العصور، وله أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية والأسرية.

فدخول البيوت دون استئذان من أهلها مما ينافي الأدب ومكارم الأخلاق، ومما يوجب الريبة من الداخل، ويدعو لإساءة الظن به، واتهامه باستراق الحديث وتتبع العورات. ولذلك أدبنا الله تبارك وتعالى بأن نستأذن إذا أردنا دخول بيوت غير بيوتنا.

قال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: 27].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "هذه آداب شرعية، أدب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان أمرهم ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا، قبل الدخول، ويسلموا بعده.

قال: وقال قتادة في قوله (حتى تستأنسوا) هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردُّو" أ هـ.

قال الشيخ السعدي في تفسير الآية السابقة: "يرشد الباري عباده المؤمنين ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان؛ فإن في ذلك عدة مفاسد، منها ما ذكره الرسول" حيث قال: (إنما جعل الاستئذان من أجل البصر).

فبسبب الإخلال به يقعُ البصر على العورات التي داخل البيوت؛ فإن البيت للإنسان في سَتْرِهِ عورةَ ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل على الشر.

ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم، (حتى تستأنسوا) أي تستأذنوا.

سمي الاستئذان استأناساً؛ لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة.

ثم قال: ذلكم أي الاستئذان المذكور خيرٌ لك لعلكم تذكرون لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن دخل المستأذن.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ أي فلا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقّاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع فإن شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذا الحال"أ هـ.

ولهذا ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: (إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع).

والاستئذان يكون بالنداء، والسلام، وقرع الباب، ونحو ذلك.

أيها الأخوة: إن كل امرئ في بيته قد يكون على حالة خاصة، أو أحاديث سرية، أو شؤون بيتية، فيفاجئه داخل من غير إذن قريباً كان أو غريباً، وصاحب البيت مستغرق في حديثه، أو مطرق في تفكيره، فيزعجه هذا أو يخجله، فينكسر نظره حياءً، ويتغيظ سخطاً وتبرماً. وربما أدى إلى انقطاع الأوصال التي كانت بينهما.

كان نبينا مُحَّد ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن، أو الأيسر، ويقول: (السلام عليكم، السلام عليكم) رواه البخاري وأبو داود وصححه الالباني.

ووقف سعد بن عبادة مقابل الباب فأمره النبي أن يتباعد. وقال له: (وهل الاستئذان إلا من أجل النظر؟!) رواه الطبراني.

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ: (اطلع رجل من جحرٍ في حُجَر النبي ومع النبي مدرى - أي: مشط - يحك به رأسه، فقال النبي: لو أعلم أنك تنظر؛ لطعنت به في عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر) (متفق عليه).

قال الشيخ الشّنقيطيّ رحمه الله تعالى في الأضواء: "اعلم أنّ المستأذن إن تحقّق أنّ أهل البيت سمعوه لزمه الانصراف بعد الثّالثة؛ لأنّهم لما سمعوه، ولم يأذنوا له دلّ ذلك على عدم الإذن، وقد بيّنت السّنّة الصّحيحة عدم الزّيادة على الثّلاث، خلافا لمن قال من أهل العلم: إنّ له أن يزيد على الثّلاث مطلقا، وكذلك إذا لم يدر هل سمعوه أو لا؛ فإنّه يلزمه الانصراف بعد الثّالثة. ثمّ قال: والّذي يظهر لنا رجحانه من الأدلّة، أنّه إن علم أنّ أهل البيت لم يسمعوا استئذانه لا يزيد على الثّالثة بل ينصرف بعدها لعموم الأدلّة، وعدم تقييد شيء منها بكونهم لم يسمعوا خلافا لمن قال: له الزّيادة، ومن فصّل في ذلك، قال: والصّواب- إن شاء الله تعالى- هو ما قدّمنا من عدم الزّيادة على الثّلاث؛ لأنّه ظاهر النّصوص ولا يجوز العدول عن ظاهر النّصّ إلّا بدليل يجب الرّجوع إليه".

****

العشرون: التنابز بالألقاب

هـو التَّنَـادِي بِمَـا يَسُـوْءُ أخَـاه مِنْهـا ويُكْـرَهُ، مِمَّـا يَحْمِـلُ سُـخْرِيَّةً، ولَمْـزًا، ولا يَنْبَغِـي لإنْسَـانٍ أنْ يَسُـوْءَ أخَـاهُ، فَيُنَادِيْـه بِلَقَـبٍ يَكْرَهُـهُ، ويَتَـأذَّى بِـه: فَهَـذَا مَـدْعَاةٌ لِتَغْـيِرِ النُّفُـوْسِ، وعُدْوَانٌ على الأخُوَّةِ، ومُنَافَاةٌ للأدَبِ الإسْلامِيِّ.

قـال النـووي في الأذكـار: "اتفـق العلمـاء علـى تحـريم تلقيـب الإنسـان بمـا يكرهـه سـواء كـان صـفة لـه كـالأعمش، والأعـرج والأحـول والأصـفر، أو كـان صـفة لأبيـه أو لأمـه، أو غير ذلك مما يكرهه"أ هـ.

ويعـد التنـابز بالألقـاب فسـوقًا، كمـا في قولـه تعـالى ﴿وَلَا تَنَـابَزُوا بِالْأَلْقَـابِ بِـئْسَ الِاسْـمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 11].

بـل إن هـذا الجـرم قـد شـبهه المفسـرون بالـردة مـن بعـد إيمـان ﴿بِئْسَ الاسْـمُ الفُسُـوقُ بَعْـدَ الإِيمَـانِ﴾ ومـن وقـع منـه ذلـك ولم يتـب فإنمـا يظلـم نفسـه، ويوبقهـا بأغـلال تهـوي بـه إلى الجحيم ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ومن الآية نستنبط هذه الإشارات:

قـال أبـو جبـيرة بـن الضـحاك ﷺ: "فينـا نزلـت هـذه الآيـة في بـني سـلمة ﴿وَلَا تَنَـابَزُوا بِالْأَلْقَـابِ بِـئْسَ الِاسْـمُ الفُسُـوقُ بَعْـدَ الإِيمَـانِ﴾ قـال: قـدم علينـا رسـول الله ﷺ ولـيس منـا رجـل إلا ولـه اسمـان أو ثلاثـة فجعـل النـبي ﷺ يقـول: (يا فـلان، فيقولـون: مـه يا رسـول الله، إنـه يغضـب مـن هـذا الاسـم فأنزلـت هـذه الآيـة) رواه أبـو داود وصـححه الألباني.

ولمـا عـير أبـو ذر ﷺ رجـلا بأمـه قـال لـه: "يا ابـن السـوداء" غضـب النـبي ﷺ وقـال لـه (يا أبا ذر أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية) رواه البخاري.

من شأن التنابز بالألقاب أنه يقطع أواصر الأخوة الإيمانية، ويفسد المودات ويولد العداوات والأحقاد، وربما يوصل إلى التقاتل مع ثورات الغضب وهيجان الحماقات".

قَالَ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ الله في تفسيره: "هَذِهِ الآيَةُ ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي: لا يَقْتُلْ بَعْضُكُم بَعْضًا؛ لأنَّ المؤْمِنِيْنَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَكَأَنَّه بِقَتْلِ أخِيْهِ قَتَلَ نَفْسَهَ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ يَعْنِي: يُسَلِّمُ بَعْضُكُم على بَعْضٍ... وفي قوله: "أنفسكم" تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه، قال ﷺ: (المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى). وقال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمل عيَّابا، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال ﷺ: (يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه) وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

المرء إن كان عاقلا ورعا ... أشغله عن عيوبه ورعه
كما السقيم المريض يشغله ... عن وجع الناس كلهم وجعه

وقال آخر:

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا ... فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وقال الخازن: "قال بعض العلماء: المراد بهذه الألقاب ما يكرهه المنادى به أو يفيد ذما له، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها كالأعمش والأعرج وما أشبه ذلك فلا بأس بها إذا لم يكرهها المدعو بها، وأما الألقاب التي تكسب حمدا ومدحا تكون حقا وصدقا فلا يكره كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين ولعلي: أبو تراب ولخالد سيف الله ونحو ذلك".

****

الحادية والعشرون: المبالغة في المزاح

الْمَـذْمُومُ مِنْـهُ هُـوَ الْمُدَاوَمَـةُ عَلَيْـهِ وَالْإِفْـرَاطُ فِيـهِ، فَأَمَّـا الْمُدَاوَمَـةُ فَلِأَنَّـهُ اشْـتِغَالٌ بِاللَّعِـبِ وَالْهَـزْلِ، وَأَمَّـا الْإِفْـرَاطُ فِيـهِ فَإِنَّـهُ يُـورِثُ كَثْـرَةَ الضَّـحِكِ، وَالضَّـغِينَةَ فِي بَعْـضِ الْأَحْـوَالِ، وَيُسْـقِطُ الْمَهَابَـةَ وَالْوَقَـارَ، وَأَمَّـا مَـا يَخْلُـو عَـنْ هَـذِهِ الْأُمُـورِ، فَـلَا يُـذَمُّ، كَمَـا رُوِيَ عَـنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (إِنِّي لَأَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا).

وَقَدْ قَالَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "مَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ".

وَقَـالَ سَـعِيدُ بْـنُ الْعَـاصِ لِابْنِـهِ: "يَا بُـنَيَّ، لَا تُمَـازِحِ الشَّـرِيفَ فَيَحْقِـدَ عَلَيْـكَ، وَلَا الـدَّنِيءَ فَيَجْتَرِئَ عَلَيْكَ".

وَقِيـلَ: لِكُـلِّ شَـيْءٍ بَـذْرٌ، وَبَـذْرُ الْعَـدَاوَةِ الْمِـزَاحُ وَيُقَـالُ: الْمِـزَاحُ مَسْـلَبَةٌ لِلنُّهَـى، مَقْطَعَـةٌ لِلْأَصْدِقَاءِ.

فمــن مزاحــه ﷺ مَــا رُوِيَ أَنَّ عَجُــوزًا أَتَتْــهُ، فَقَــالَ لَهَــا: "لَا يَـدْخُلُ الْجَنَّــةَ عَجُــوزٌ، «فَبَكَــتْ، فَقَــالَ لَهَــا: "إِنَّــكِ لَسْـتِ بِعَجُـوزٍ يَوْمَئِـذٍ، قَـالَ اللَّهُ تَعَـالَى ﴿إِنَّا أَنْشَـأْنَاهُنَّ إِنْشَـاءً فَجَعَلْنَـاهُنَّ أَبْكَـارًا﴾ وَجَـاءَتِ امْـرَأَةٌ إِلَيْـهِ ﷺ فَقَالَـتْ: "إِنَّ زَوْجِـي يَـدْعُوكَ"قَالَ: "وَمَـنْ هُـوَ؟ أَهُـوَ الَّـذِي بِعَيْنِـهِ بَيَـاضٌ؟"، قَالَـتْ: "وَاللَّهِ مَـا بِعَيْنِـهِ بَيَـاضٌ"، قَـالَ: "بَلَـى إِنَّ بِعَيْنِـهِ بَيَاضًـا"، فَقَالَـتْ: "لَا وَاللَّهِ"، فَقَـالَ ﷺ: (مَـا مِـنْ أَحَـدٍ إِلَّا وَبِعَيْنِـهِ بَيَـاضٌ) وَأَرَادَ بِالْبَيَاضِ الْمُحِيطَ بِالْحَدَقَةِ.

وَجَـاءَتِ امْـرَأَةٌ أُخْـرَى فَقَالَـتْ: "يَا رَسُـولَ اللَّهِ احْمِلْـنِي عَلَـى بَعِـيرٍ"، فَقَـالَ: (بَـلْ نَحْمِلُـكِ عَلَـى ابْـنِ الْبَعِـيرِ)، فَقَالَـتْ: "مَـا أَصْـنَعُ بِـهِ؟! إِنَّـهُ لَا يَحْمِلُـنِي"، فَقَـالَ - ﷺ: (مَـا مِـنْ بَعِيرٍ إِلَّا وَهُوَ ابْنُ بَعِيرٍ).

وَقَـالَ أنـس بـن مالـك رضي الله عنه: كَـانَ لأبي طلحـة ابْـنٌ يُقَـالُ لَـهُ أبـو عمـير، وَكَـانَ رَسُـولُ اللَّهِ يَأْتِيهِمْ وَيَقُولُ: (أبا عمير، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ) النُّغَيْرُ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ، وَهُوَ فَرْخُ الْعُصْفُورِ.

قال محمود الوراق:

تلقى الفتى يلقى أخاه وخِدْنه ... في لَحْن منطقه بما لا يُغْفَرُ
ويقول كنتُ ممازحًا وملاعباً ... هيهات نارك في الحشا تتسعَّر
ألهبتها وطفقت تضحك لاهياً ... مما به وفؤاده يتفطر
أو ما علمت ومثل جهلك غالبٌ ... أن المزاح هو السباب الأكبر

قال ابن عبد البر: "وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح، لما فيه من ذميم العاقبة، ومن التوصل إلى الأعراض، واستجلاب الضغائن، وإفساد الإخاء ".

وقال ميمون بن مهران رحمه الله تعالى: "إذا كان المزاح أمام الكلام كان آخره اللطم والشتام ".

ولا شك أن التبسط لطرد السأم والملل، وتطيب المجالس بالمزاح الخفيف فيه خير كثير، قال ابن تيمية رحمه الله: "فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة".

وقد اعتبر بعض الفقهاء المزاح من المروءة وحسن الصحبة، ولا شك أن لذلك ضوابط منها:

1- ألا يكون فيه شيء من الإستهزاء بالدين:

فإن ذلك من نواقض الإسلام قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 65] قال ابن تيمية رحمه الله: "الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه".

2- ألا يكون المزاح إلا صدقا:

قال ﷺ: (ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له) (رواه أبو داود).

3- عدم الترويع:

عن ابن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب مُحَّد أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع، فقال رسول: (لا يحل لمسلم أن يروع مسلما) (رواه أبو داود).

4- ألا يكون فيه استهزاء ولا غمز ولا لمز:

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 11].، قال ابن كثير في تفسيره: "المراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم والإستهزاء بهم، وهذا حرام، ويعد من صفات المنافقين".

وحذر من السخرية والإيذاء؛ لأن ذلك طريق العداوة والبغضاء قال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب إمرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام؟ دمه، وماله، وعرضه) (رواه مسلم).

5- ألا يكون المزاح كثيرا:

قال ﷺ: (لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) (صحيح الجامع:7312).

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: "من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به".

وبذلك نبه الغزالي رحمه الله بقوله: "من الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة".

قال الإمام النووي – رحمه الله –: "المزاح المنهي عنه هو الذي فيه إفراط ويداوم عليه، فإنه يورث الضحك وقسوة القلب، ويشغل عن ذكر الله تعالى: ويؤول في كثير من الأوقات إلى الإيذاء، ويورث الأحقاد، ويسقط المهابة والوقار، فأما من سلم من هذه الأمور فهو المباح الذي كان رسول الله يفعله".

6- معرفة مقدار الناس:

إن العالم والكبير لهم من المهابة والوقار منزلة خاصة، ولأن المزاح قد يفضي إلى سوء الأدب معهما غالباً فينبغي الابتعاد عن المزاح معهما خشية الإخلال بتوجيه النبي ﷺ؛ حيث يقول: (إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم).

وقال سعد بن أبي وقاص: "اقتصر في مزاحك، فإن الإفراط فيه يذهب البهاء، ويجرىء عليك السفهاء".

7- ألا يكون فيه غيبة:

وهذا مرض خبيث، ويزين لدى البعض إنه يحكى ويقال بطريقة المزاح، وإلا فهو داخل في حديث النبي ﷺ: (ذكرك أخاك بما يكره)، (رواه مسلم).

لا تَمْزَحَنْ وإذا مزحت فلا يكن مزحًا تضاف به إلى سوء الأدب

واحذر ممازحةً تعود عداوةً إن المزاح على مقدمة الغضب

****

الثانية والعشرون: عدم التثبت في الأقوال والأفعال

إن الإشاعة ونقل الأخبار بمجرد سماعها وعدم التثبّت منها قد يترتّب على ذلك عواقب وخيمة في المجتمع، وهذا أمر مُشاهد معلوم، ويكفي لبيان أثر ذلك مثال واحد حدث زمن النبي ﷺ عندما أُشيع خبر مقتله ﷺ في غزوة أحد، فكان من أثر ذلك أن قعد بعض الصحابة ﭫ عن القتال.

والإسلام جعل منهجاً واضحاً عند سماع الأخبار ونقلها، وهو التثبّت والتبيّن منها، بل جعل من يحدّث بكل ما سمع كذّاباً، كما في حديث أبي هريرة ـ ﭬ ـ أن النبي -ﷺ- قال: (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع).

والتثبت منهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، فهذا سليمان عليه السلام يقول للهدهد بعد أن أخبره الخبر: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ [النمل: 27] وقد عاتب الله داود في حكمه للخصمين قبل أن يسمع ويتثبت من الآخر، قال النحاس: "ويقال إن خطيئة داود هي قوله ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت".

ويقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].

ولعظم أمر التثبت أمر الله به حتى في جهاد الكفار في سبيل الله. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَ اللهَ كَانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيْراً﴾ [النساء: 94].

عن جابر بن سلمة (أنّ أهل الكوفة شكوا سعدا إلى عمر في كلّ شيء حتّى قالوا: لا يحسن يصلّي، فقال سعد: "أما إنّي لا آلو أن أصلّي بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أطيل الأوليين، وأحذف الأخريين"، فقال: الظّنّ بك يا أبا إسحاق، وكان قد بعث من يسأل عنه بمحالّ الكوفة، فجعلوا لا يسألون أهل مسجد إلّا أثنوا خيرا، حتّى مرّوا بمسجد لبني عبس، فقام رجل يقال له أبو سعدة أسامة بن قتادة، فقال:

إنّ سعدا كان لا يسير في السّريّة، ولا يقسم بالسّويّة، ولا يعدل في الرّعيّة القضيّة. فبلغ سعدا فقال: اللّهمّ إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة فأطل عمره وأدم فقره، وأعم بصره وعرّضه للفتن، قال: فأنا رأيته بعد ذلك شيخا كبيرا قد سقط حاجباه على عينيه، يقف في الطّريق فيغمز الجواري، فيقال له، فيقول: شيخ مفتون أصابته دعوة سعد) رواه البخاري.

قال الشيخ عبد العزيز الجليّل في كتابه"منارات في الطريق":

"إن التفريط في هذا المنهج العظيم الذي أوصى الله به عباده المؤمنين، لمن أعظم أسباب الفرقة والعدوان والبغضاء فكم من مظلوم في ماله أو بدنه أو عرضه كان سبب ذلك التسرع في نقل الأخبار وإشاعتها دون تمحيص أو تثبت، وكم من أواصر وصلات قطعت بين الأرحام والإخوان سببها عدم التثبت والقول بالظنون أو بلا علم، بل كم قامت من حروب وفتن أساسها أخبار وشائعات وظنون وتهم باطلة".

وقال ابن الجوزي- رحمه الله تعالى في صيد الخاطر: "ما اعتمد أحدٌ أمراً إذا هم بشيء مثل التثبت؛ فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم؛ ولهذا أمر بالمشاورة؛ لأن الإنسان بالتثبت يفتكر؛ فتعرِض على نفسه الأحوال، وكأنه شاور.

وقد قيل: خمير الرأي خير من فطيره.

وأشد الناس تفريطاً من عمل بما ورده في واقعة من غير تثبت واستشارة؛ خصوصاً فيما يوجب الغضب؛ فإنه طلب الهلاك أو الندم العظيم".

وقال أيضاً: "فالله ألله! التثبت التثبت في كل الأمور، والنظر في عواقبها؛ خصوصاً الغضب المثير للخصومة".

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى في إغاثة اللهفان: "وقد جاء في حديث مرسل: "إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات".

****

الثالثة والعشرون: إخلافُ المواعيد من دون عذرٍ

الله سبحانه وتعالى مدح نبياً كريماً بالصدق في الوعد، والالتزام به، فقال–سبحانه– ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ [مريم: 54].

قال الإمام القرطبي– رحمه الله– عند هذه الآية: "صدق الوعد من خلق النبيين والمرسلين، وضده–وهو الخلف–مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين".

وقال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾، [التوبة: 114]. فإبراهيم عليه السلام يعلم كفر أبيه ولكنه تحرج عن الحنث في الوفاء بالوعد فاستغفر لأبيه للموعدة التي وعدها إياه فلو لم يكن الوفاء بالوعد لازما لما استغفر إبراهيم عليه السلام لمشرك عدو لله.

والنبي ﷺ حث على الوفاء بالوعد، وجعل من يخلف الوعد قد اتصف بصفة المنافق، فقال –عليه الصلاة والسلام–: (آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف).

وعن جابر بن عبد الله ﵁ قال: "لما مات رسول الله ﷺ جاء أبا بكر مال من قبل العلاء بن الحضرمي، فقال أبو بكر: من كان له على النبي ﷺ دين أو كانت قبله عدة فليأتنا. قال جابر: فقلت وعدني رسول الله ﷺ أن يعطيني هكذا وهكذا وهكذا فبسط يديه ثلاث مرات قال جابر: فعد في يدي خمسمائة ثم خمسمائة ثم خمسمائة".

ففي هذا الحديث دليل على وجوب الوفاء بالوعد؛ لأن المال ليس لأبي بكر وإنما هو من بيت مال المسلمين فدل ذلك على أن هذه العدة دين على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الشنقيطي في توجيه الاستدلال: "فجعل العدة كالدين وأنجز لجابر ما وعده به النبي ﷺ من المال فدل ذلك على الوجوب". اهـ.

قال ابن الجوزي: "خلف الوعد الرجوع عنه وهذا محمول على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر فأما من عزم على الوفاء فعرض له عذر منعه من الوفاء فليس بمنافق إلا أنه ينبغي أن يحتزر من صورة النفاق كما يحترز من حقيقته وأصل الخيانة النقص يقال فلان يتخونني حقي أي يتنقصني" أ. هـ.

وقال الثوري رحمه الله: "لا تعد أخاك موعداً فتخلفه فتستبدل المودة بغضه" يحل محل المودة البغض، وقال نصر المروزي رحمه الله:

يا واعد الوعد الذي أخلفا ... ما الخلف من سيرة أهل الوفا

ما كانَ ما أَظهَرتَ مِن وُدِّنا ... إِلّا سِراجاً لاحَ ثُمَّ اِنطَفا

الآثار السيئة على اخلاف المواعيد:

1- الناس يعرضون عمَّن يتخلف عن موعده وهذا الشخص لا يشارك في أمر ذي بال.

2- عدم الثقة بما يخلف المواعيد.

3- تعطل إنجاز الأعمال.

4- إلغاء أو تأجيل الفاء بالوعد قد يترتب عليها خسارات مادية واعتبارات شخصية وخلل اجتماعي.

5- اتصاف هذا الشخص أو ذاك بأنه كذاب وأنه يخلف الوعود وهذه صفة من صفات المنافقين.

****

الرابعة والعشرون: الاستهزاء والسخرية

الفرق بين الاستهزاء والسخرية: أن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله.

والسخرية: يدل على فعل يسبق من المسخور منه.

الاستهزاء هو ظلم قبيح من السلم لأخيه المسلم وعدوان على كرامته، وإيذاء لنفسه وقلبه، به تُقطع الروابط الاجتماعية القائمة على الأخوة والتواد والتراحم، وتبذر بذور العداوة والبغضاء، وتولد الرغبة بالانتقام.

الاستهزاء بالمسلم من كبائر الذنوب، قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: 11] الآية وقد أجمع العلماء على تحريم ذلك.

روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49] قال: "الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك على حالة الاستهزاء وهذا تصريح بأن ذلك من الكبائر".

وقال الغزالي في قول ابن عباس: "هذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من الجرائم والذنوب واعلم أن معنى السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على من يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وقد يكون بالضحك كأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه أو غلط أو على صنعته أو قبح في صورته، ونحو ذلك" أ. هـ.

يقول الله تعالى ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ نلاحظ أن القرآن عبر عن لمز الأخ الموحد لأخيه بلمز نفسه وكأنهم جسد واحد.

يقول النبي ﷺ: (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ).

عن عبد الله بن مسعود قال: "لو سخرت من كلب، لخشيت أن أكون كلباً، وإني لأكره أن أرى الرجل فارغاً ليس في عمل آخرة ولا دنيا".

وقال أبو موسى الأشعري: "لو رأيت رجلاً يرضع شاة في الطريق فسخرت منه، خفت أن لا أموت حتى أرضعها".

قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: 29-30].

فالاستهزاء بالمسلم لإسلامه: كفر، ولا يتأتَّى هذا من مسلمٍ أبدًا...، ومن هذا الباب -أيضًا- مُعاداتُه لأجل تدينه، وفتنه ليرجع عن دينه، وهذا كفر وصدٌّ عن سبيل الله تبارك وتعالى...".

وسئل فضيلة الشيخ مُحَمَّد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى عن حكم الاستهزاء بأهل الخير والصلاح،"والمجاهدون هم من أصلح الناس"؟

فأجاب: "هؤلاء الذين يسخرون بالملتزمين بدين الله المنقِّذين لأوامر الله، فيهم نوع نفاق، لأن الله قال عن المنافقين ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79].

ثم إن كانوا يستهزئون بهم من أجل ما هم عليه من الشرع، فإن استهزاءهم بهم استهزاء بالشريعة، والاستهزاء بالشريعة كفر، أما إذا كان يستهزئون بهم يعنون أشخاصهم وزيّهم بقطع النظر عمَّا هم عليه من اتباع السنة فإنهم لا يكفرون بذلك، لأن الإنسان قد يستهزئ بالشخص نفسه بقطع النظر عن عمله وفعله، لكنهم على خطر عظيم، والواجب تشجيع من التزم بشريعة الله ومعاونته وتوجيهه إذا كان على نوع من الخطأ، حتى يستقيم على الأمر المطلوب "أ. هـ.

دوافع الاستهزاء:

1) ضعف الإيمان، وقلة الخوف من الله عز وجل.

2) كثرة المجالس التي لا نفع فيها.

3) الفراغ الكبير الذي يعيشه معظمهم.

4) حُبُّ الثناء.

5) تناسي الوعيد الوارد في حق المستهزئين بالناس.

****

الخامسة والعشرون: الإفْرَاط في المَحَبَّةِ

في حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما) رواه الترمذي وصححه الألباني.

قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث»: "يعني: لا تسرف في الحب والبغض؛ فعسى أن يصير الحبيب بغيضًا والبغيض حبيبًا، فلا تكون قد أسرفت في الحب فتندم، ولا في البغض فتستحيي".

عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: "قال لي عمر بن الخطاب ﵁: يا أسلم لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا، قلت: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضا تحب أن يتلف صاحبك ويهلك".

وقال أبو الأسود الدؤلي:

وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت غير مباين ... فإنك لا تدري متى أنت راجع

والمقصود الاقتصاد في الحب والبغض، فإنّ الإسراف في الحب داع إلى التقصير، وكذلك البغض، فعسى أن يصير الحبيب بغيضا، والبغيض حبيبا، فلا تكن مسرفا في الحب فتندم، ولا في البغض فتأسف، لأن القلب يتقلب فيندم أو يستحي.

قال بعض الحكماء: ولا تكن في الإخاء مكثرا، ثم تكون فيه مدبرا، فيعرف سرفك في الإكثار، بجفائك في الإدبار.

ويخشى مع فرط المحبة أن يوافقه على باطل، أو يقصر معه في واجب النصيحة لله عزّ وجل، وقد تنقلب هذه المحبة إلى بغض مفرط، ويخشى عند ذلك إفشاء الأسرار، وترك العدل الإنصاف.

وعن الحسن قال: "أحبوا هونا وأبغضوا هونا، فقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا ".

قال الله تعالى ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7].

كان نزول هذه الآية سببا في معاداة المسلمين أقرباءهم من المشركين، ولما علم الله شدة وجد المسلمين وحرجهم في ذلك، نزل قوله تعالى كما بينا:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ أي بأن يسلم الكافر، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة، وخالطهم المسلمون، كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. وتزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان التي كانت متزوجة بعبد الله بن جحش، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة، إلا أن زوجها تنصر، ومات على النصرانية، وبقيت هي على دينها، فبعث النبي ﷺ إلى النجاشي، فخطبها، وأمهرها النجاشي من عنده أربع مائة دينار.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ أي: محبة بعد البِغْضَة، ومودة بعد النَّفرة، وألفة بعد الفرقة. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتنًا على الأنصار ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ

اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾" [آل عمران: 103].

يقول ابن القيم رحمه الله: "لما طلب آدم الخلود في الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين ".

****

السادسة والعشرون: تكليف الرّجُلِ جُلاّسَه بخدمته

وعن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ وكنا حديثي عهد ببيعة فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ثم قال: ألا تبايعون؟

فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك قال: (أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والصلوات الخمس وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئا فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه). (رواه مسلم).

فبعض الناس إذا زاره أحد فجلس إليه أخذ يأمره، وينهاه، ويكلفه ببعض الأعمال، وهذا الصنيع ليس من المروءة في شيء؛ إذ المروءة تقتضي القيام بخدمة الزائر، والمبالغة في إكرامه.

قال المقنع الكندي:

وإني لعبدُ الضيفِ ما دام نازلاً   وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

وقال ابن حبان: "ومن إكرام الضيف طيب الكلام، وطلاقة الوجه، والخدمة بالنفس؛ فإنه لا يذل من خدم أضيافه، كما لا يعز من استخدمهم، أو طلب لقراه أجراً.

ومن الاحتفاظ بالمروءة أن يتجنَّب الرجل تكليف زائريه ولو بعملٍ خفيف، كأن يكون بالقرب من الزائر كتاب فيطلب منه مناولته إياه، أو أن يكون بجانبه الزر الكهربائي فيشير إليه بالضغط عليه؛ لإنارة المنزل، أو أن يأمره بإدارة أقداح الشاي على الضيوف، أو نحو ذلك".

قال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: "قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت رجلاً أكمل أدباً، ولا أجمل عشرةً من أبيك؛ وذلك أني سهرت معه ليلة، فبينما نحن نتحدث إذ غشي المصباح، وقد نام الغلام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، قد غشي المصباح، أفنوقظ الغلام؛ ليصلح المصباح؟.

فقال: لا تفعل.

فقلت: أفتأذن لي أن أصلحه؟.

فقال: لا، لأنه ليس من المروءة أن يستخدم الإنسان ضيفه، ثم قام هو بنفسه، وحط رداءه عن منكبيه، وأتى إلى المصباح فأصلحه، وجعل فيه الزيت، وأشخص الفتيل، ثم رجع وأخذ رداءه، وجلس، ثم قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز.

أما إذا قام الزائر وتكرّم بخدمة مزوره فلا بأس في ذلك، خصوصاً إذا كان المزور له حق، أو كان من أهل الفضل والعلم والتقى.

روي أن رجلاً قال رجل لعمر -رضي الله عنه-: خدمك بنوك، فقال: "أغناني الله عنهم؛ أخدم نفسي، وأقوم بنفسي".

وقال علي رضي الله عنه لابنه الحسن في وصيته: "يا بني إذا استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، ولا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حراً".

وقد ذكر هذا شيخ الإسلام في كتاب العبودية: "استغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن لمن شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره"؛ لأنه يأسرك بهذا الإحسان والإفضال.

فلا حاجة أن تضع القيد والإسار في يدك والغل في عنقك، وتكون عبداً لغيرك، استغن عن الناس، ولهذا بايع النبي ﷺ بعض أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً، فكان

السوط يسقط من أحدهم وهو على الدابة، ولا يقول لصاحبه: ناولني، أما الذي ديدنه: أعطني، أقرضني، تصدق علي، احمل لي حاجتي، أوصلني معك وما أشبه ذلك، فهذا مستقل عند الناس، وهذا لا ينبل.

****

السابعة والعشرون: خيانته

الخيانة من سمات النفاق، فالخائن بالضرورة منافق، وإلا فكيف سيخفي خيانته إلا بالنفاق؟! قال النبي ﷺ: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)، (متفق عليه).

وأشد الناس فضيحة يوم القيامة هم الخائنون للحديث عن النبي صلى الله عليه أنه قال: (لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان)، (متفق عليه)، هذا الخائن وإن اندس بين الناس وإن عرف كيف يرتب أموره بحيث لا يفتضح أمام عباد الله فأين يذهب يوم القيامة؟!

وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ من الخيانة كما روى أبو داود أنه كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة) رواه أبو داود والنسائي.

الخيانة رأس كل خطيئة وعنوان كل جريمة مهما دقت أو جلت، والأمين لا يخون أبدا، لا يخون مسلما ولا كافرا ولا خائنا، وفي حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: (لا تخن من خانك) رواه أبو داود وصححه الألباني، ولذلك قال بعض السلف الصالح: "لم يخنك الأمين ولكن ائتمنت الخائن".

وقال علي ﵁: "أدِ الأمانة إلى البر والفاجر فيما جلَّ أو قلَّ ".

لقد حذر سبحانه وتعالى رسوله الكريم من أهل الخيانة تحذيرا صريحا لا لبس فيه فقال ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]، ولذلك قال ﷺ: (كل خصلة يطبع عليها أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب) ابن أبي شيبة في المصنف وفيه ضعف.

قال ابن مسعود: "يؤتى يوم القيامة بصاحب الأمانة الذي خان فيها، فيقال له: أد أمانتك فيقول: أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا؟ قال فتمثل له كهيئتها يوم أخذها في قعر جهنم ثم يقال له انزل إليها فأخرجها قال: فينزل إليها فيحملها على عاتقه فهي عليه أثقل من جبال الدنيا حتى إذا ظن أنه ناج هوت وهوى في أثرها أبد الآبدين ثم قال: الصلاة أمانة والوضوء أمانة والغسل أمانة والوزن أمانة والكيل أمانة".

قال ابن الحوزي: "وإياك يا أخي إن خنت درهما، خانك ابليس في سبعين درهما".

قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة من كنّ فيه فهو منافق، وان صلى وصام: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان) رواه البخاري ومسلم.

وقال بعضهم: دخلت لزيارة جار لي كان يبيع الحنطة، فلما قعدت عند رأسه وهو يقول: جبلان من نار، فسألت زوجته، فقالت: انه كال له مدّان، أحدهما كبير والآخر صغير، فإذا ابتاع من أحد شيئا اكتال بالمدّ الكبير، وإذا باع هو لأحد شيئا، كال له بالمد الصغير، فعلمت أن المدّين هما الذان تصورا له جبلين من نار.

قيل، وكان رجل بالبادية لبان يخلط اللبن بالماء، فجاء السيل، فذهب بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات، فصارت سيلا، ولسان الجزاء يناديه ﴿ذلك بما قدّمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾" [الحج: 10].

****

الثامنة والعشرون: بذاءة اللسان، والتفحش في القول

قال الغزاليّ- رحمه الله تعالى-: هي التّعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصّريحة.

وقال المناويّ: البذاء هو الفحش والقبح في المنطق، وإن كان الكلام صدقا.

قال الإمام النووي في كتابه الأذكار: "ومما ينهى عن الفحشُ، وبذاءة اللسان.

وبهذا جاء القرآن العزيز، والسنن الصحيحة المكرمة، قال الله تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187].

وقال تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 21].

وقال تعالى ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [النساء: 237].

وعن عبد الله بن مسعود قال: "قال رسول الله ﷺ: (ليس المؤمن بالطَّعَّان، ولا اللعَّان، ولا الفاحش البذيء).

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه".

عن لقيط بن صبرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن لي امرأة في لسانها شيء قال:

(فَطَلِّقْهَا إذاً) قال: قلت: يا رسول الله إن لي منها ولداً ولها صحبة قال:

(عِظْهَا فإن يَكُ فيها خير فَسَتَقْبَلُ ولا تَضْرِبْ ظعينتك ضربك أمتك) رواه أبو داود وصححه الألباني.

قال القاسمي: وإياك وما يستقبح من الكلام؛ فإنه يُنَفِّر عنك الكرام، ويُوَثِّب عليك اللئام.

ومما يدخل في فحش القول السبُّ، والشتم، واللعن.

وممـا يـدخل فيـه أيضـاً مـا كـان مسـتنكر الظـاهر، وإن كـان معنـاه سـليماً بعـد تـدقيق النظر فيه.

قـال الغـزاليّ رحمـه الله تعـالى في الإحيـاء: "إنّ السّـبّ والفحـش وبـذاءة اللّسـان مذمومـة ومنهـيّ عنهـا ومصـدرها الخبـث واللّـؤم، والباعـث عليهـا إمّـا قصـد الإيـذاء وإمّـا الاعتيـاد الحاصـل مـن مخالطـة الفسّـاق وأهـل الخبـث واللّـؤم لأنّ مـن عـادتهم السّـبّ. ومواضـع ذلـك متعـدّدة ويمكـن حصـرها في كـلّ حـال تخفـى ويسـتحيا منهـا، فـإنّ التّصـريح في مثـل هـذه الحـال فحـش وينبغـي الكنايـة عنهـا. وأكثـر مـا يكـون في ألفـاظ الوقـاع ومـا يتعلّـق بـه، فـإنّ لأهـل الفسـاد عبـارات صـريحة فاحشـة يسـتعملونها. وأمّـا أهـل الصّـلاح فـإنّهم يتحاشـون عنهـا بـل يكنـون عنهـا ويـدلّون عليهـا بالرّمـوز فيـذكرون مـا يقاربهـا ويتعلّـق بهـا، ألم تـر أنّ الله- عـزّ وجـلّ- كـنى باللّمـس عـن الجمـاع، ولـذلك فإنّـه تسـتعمل ألفـاظ مثـل المسّ واللّمـس والـدّخول والصّـحبة. كمـا يكـون الفحـش والبـذاء أيضـا في حـال قضـاء الحاجـة، فـإنّ اسـتعمال البـول والغـائط أولى مـن لفـظ التّغـوّط والخـراء. ويـدخل الفحـش أيضـا والبـذاء في ذكـر النّسـاء والكـلام عـنهنّ، فـلا يقـال: قالـت زوجتـك كـذا، بـل يقـال: قيـل في الحجـرة أو مـن وراء السّـتر، أو قالـت أمّ الأولاد فـالتّلطّف في هـذه الألفـاظ محمـود والتّصـريح فيهـا يفضـي إلى الفحـش. وكـذلك يـدخل أيضـا في ذكـر العيـوب الّـتي يسـتحيا منهـا فـلا ينبغـي أن يعـبّر عنهـا بصـريح اللّفـظ، فـلا يقـال فـلان الأبـرص والأقـرع بـل يقـال مـثلا فـلان الّـذي بـه العـارض الّـذي يشـكوه، وهـذا كلّـه يختلـف باخـتلاف الـبلاد. وأوائـل هـذه الأشـياء مكـروه، وآخرهـا محظـور، وبينهما درجات يتردّد فيها".

****

التاسعة والعشرون: تكذيب المسلم لأخيه

فلا يَحِلُّ له أن يُحدِّثه فيكذبه، وفي مسند الإمام أحمد عن النَّوَّاس بن سمعان، عن النَّبيِّ – ﷺ –، قال: (كَبُرَت خِيانةً أن تُحدِّثَ أخاكَ حديثاً هو لك مصدِّقٌ وأنت به كاذب).

لما رأى عيسى عليه السلام رجلا يسرق فقال له: سرقت، قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: (آمنت بالله وكذبت عيني)، (رواه البخاري).

قال ابن القيم: "إن الله تعالى كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذبًا. فدار الأمر بين تهمة الحالف، وتهمة بصره، فرد التهمة إلى بصره، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح [كما في الأعراف 21] ".

من الناس من إذا طرق سمعه كلامٌ غريب من متحدِّث ما بادر إلى تكذيبه، وتفنيد قوله، إما تصريحاً، أو تلميحاً، أو إشارةً باليد أو العين، وأن يهمز من بجانبه؛ ليشعره بأن المتحدِّث كاذب.

فهذا العمل من العجلة المذمومة، ومن إساءة الظن بمن يتحدّث، وهو مما ينافي كمال الأدب والمروءة.

فينبغي لمن استمع حديثاً من أحد ألا يبادر إلى تكذيبه، بل عليه أن يُنصت له، وإن رأى في هذا في الحديث وجهَ غرابةٍ فلا يستعجل الحكمَ عليه بالكذب، بل يستفصل من المتحدِّث، لعله يُبين له وجهته وأدلته.

ثم إن تأكد من كذبه فلينصح له على انفراد؛ لئلا يعاود الكذب مرةً أخرى.

فإن عاد إليه، واقتضت المصلحة أن يُبيِّن كذبه فلا بأس حينئذ من ذلك؛ حتى يرتدع من تلك الخصلة الذميمة.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقاً، وأصبحها وجوهاً، وأشدها حياءً، إن حدثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم بحق أو باطل لم يَكْذِبوك، وإن حدَّثتهم بحقٍ أو باطل لم يُكذِّبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة ابن الجراح".

قال بعض العلماء: "لا تجد العاقل يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يَعِدُ بما لا يجد إنجازه، ولا يرجو ما يُعنَّف برجائه، ولا يقدم على ما يخاف العجز عنه".

قال معاوية- رضي الله عنه- لرجل شهد عنده بشهادة: "كذبت"، فقال الأعرابيّ: "إنّ الكاذب للمتزمّل في ثيابك"، فقال معاوية: "هذا جزاء من يعجل".

وتكذيب الآخرين إنما يأتي من العجلة وعدم التربية.

قال ابن حبان في الروضة: "إنّ الرّافق لا يكاد يسبق كما أنّ العجل لا يكاد يلحق والسّاكت لا يكاد يندم، من نطق لا يكاد يسلم وإنّ العجل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم ويحمد قبل أن يجرّب، ويذمّ بعدما يحمد، ويعزم قبل أن يفكّر، ويمضي قبل أن يعزم، والعجل تصحبه النّدامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تكنيها أمّ النّدامات".

قال ابن حبّان أنشدني المنتصر بن بلال:

ولا تسبقنّ النّاس بالرّأي واتّئد   فإنّك إن تعجل إلى القول تزلل
ولكن تصفّح رأي من كان حاضرا   وقل بعدهم رسلا، وبالحقّ فاعمل

****

الثلاثون: الكبر والغرور

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ)، (رواه مسلم).

قال ابن القيم في كتابه الروح: "والكبرُ أثرٌ من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار، ولا يرى لأحد عليه حقاً ويرى حقوقه على الناس... لا يزداد من الله إلا بعداً، ومن الناس إلا صغاراً، أو بغضاً".

الكبر والغرور من أخطر الأمراض التي يقع بها الإنسان، بل وقع في أول معصية عصي الله بها، وصار كالشيطان الذي استكبر عن السجود لآدم فعصى الله عز وجل، وإنما أوقعه في ذلك غروره وإعجابه بنفسه، فاعترض على أمر الله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 76]، ومنع الكبر أيضا مشركي قريش في مكة من اتباع النبي ﷺ قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 35]، والكبر هو الذي صرف المنافقين وصدهم عن الانتفاع بالحق، قال تعالى عن المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: 5].

قال محمد بن الحسين بن علي: "ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط، إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر!".

رأي ابـن عمـر رضـي الله عنهمـا رجـلاً يختـال في مشـيته، ويجـر إزاره، فقـال: "إن للشيطان إخوانًا!".

النعمـة الله سبحانه وتعـالى قـادر على أن يسـلبها منـك، أنـت لمـا تكـون ذكيـاً فـالله عـز وجـل قـادر علـى أن يجعلـك معتوهـاً أبلهـاً، وعنـدما تكـون فصـيحاً تهـز المنـابر فـالله سـبحانه وتعـالى قـادر علـى أن يجعلـك أخـرس لا تسـتطيع أن تفصـح عمـا في قلبـك، ولا تسـتطيع أن تتفـوه بكلمـة واحـدة، وأنـت لمـا تكـون شـجاعاً الله قـادر علـى أن يجعلك جبانا لا تستطيع خوض معركة أصلاً.

قال الأحنف بن قيس: "عجبًا لابن آدم! يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين!".

يا مظهـر الكـبر إعجـابًا بصـورتـه ... انظـر خـلاك فـإن النـتن تثريـب
لـو فكـر النـاس فيمـا في بطونهـم ... مـا استشـعر الكـبر شـبان ولا شـيب
هـل في ابـن آدم مثـل الـرأس مكرمـة ... وهـو بخمـس مـن الأقـذار مضـروب
أنـف يسـيل وأذن ريحهـا سهـك ... والعـين مرمصـة والثغـر ملعـوب
يا ابـن الـتراب ومـأكول الـتراب غـدًا ... أقصـر فإنـك مـأكول ومشـروب

وفي صـيد الخـاطر لابـن الجـوزي أن عمـر بـن عبـد العزيـز قيـل لـه إن مـت نـدفنك في حجـرة رسـول الله ﷺ فقـال لأن ألقـى الله بكـل ذنـب غـير الشـرك أحـب إلي مـن أن أرى نفسي أهلا لذلك.

قـال أحمـد بـن عبـد الله العجلـي: "آجـر سـفيان نفسـه مـن جمـال إلى مكـة فـأمره أن يعمـل خبـزه فلـم تجـيء جيـده فضـربه الجمـال فلمـا قـدموا مكـة دخـل الجمـال فـإذا سـفيان قـد اجتمـع حولـه النـاس فسـأل فقـالوا هـذا سـفيان الثـوري فلمـا انفـض عنـه النـاس تقـدم الجمـال إليـه وقـال لم نعرفـك يا أبا عبـد الله قـال مـن يفسـد طعـام النـاس يصيبه أكثر من ذلك".

وانظر إلى عقوبة المتكبر المغرور قال النبي - ﷺ -: (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر! في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بولس! تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار؛ طينة الخبال!)، (رواه الترمذي والنسائي وصححه الألباني).

علاج الكبر والغرور:

جاء عن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - أنه قال: تقولون فيَّ التيه! وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة، وقد حلبت الشاة، وقد قال رسول الله - ﷺ -: (من فعل هذا، فليس فيه من الكبر شيء)، (رواه الترمذي وصححه الألباني).

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: "رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا ينبغي لك هذا. فقال: "لما أتاني الوفود سامعين مطيعين - القبائل بأمرائها وعظمائها - دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها".

وَمُدَاوَاتُهُ فَرْضُ عَيْنٍ، وَلَكَ فِي مُعَالَجَتِهِ مَقَامَانِ:

الأَوَّل: فِي اسْتِئْصَال أَصْلِهِ وَقَطْعِ شَجَرَتِهِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَعْرِفَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، وَيَعْرِفَ رَبَّهُ، فَإِنَّهُ إِنْ عَرَفَ نَفْسَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، عَلِمَ أَنَّهُ أَذَل مِنْ كُل ذَلِيلٍ، وَيَكْفِيهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَصْل وُجُودِهِ بَعْدَ الْعَدَمِ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ خَرَجَتْ مِنْ مَخْرَجِ الْبَوْل، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ، فَقَدْ صَارَ شَيْئًا مَذْكُورًا بَعْدَ أَنْ كَانَ جَمَادًا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُحِسُّ وَلاَ يَتَحَرَّكُ، فَقَدِ ابْتَدَأَ بِمَوْتِهِ قَبْل حَيَاتِهِ، وَبِضَعْفِهِ قَبْل قُوَّتِهِ، وَبِفَقْرِهِ قَبْل غِنَاهُ.

وَالثَّانِي: مَنِ اعْتَرَاهُ الْكِبْرُ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ هَذَا تَعَزُّزٌ بِكَمَال غَيْرِهِ، ثُمَّ يَعْلَمْ أَبَاهُ وَجَدَّهُ، فَإِنَّ أَبَاهُ الْقَرِيبَ نُطْفَةٌ قَذِرَةٌ، وَأَبَاهُ الْبَعِيدَ تُرَابٌ.

وَمَنِ اعْتَرَاهُ الْكِبْرُ بِالْجَمَال فَلْيَنْظُرْ إِلَى بَاطِنِهِ نَظَرَ الْعُقَلاَءِ، وَلاَ يَنْظُرْ إِلَى ظَاهِرِهِ نَظَرَ الْبَهَائِمِ.

وَمَنِ اعْتَرَاهُ مِنْ جِهَةِ الْقُوَّةِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ آلَمَهُ عِرْقٌ عَادَ أَعْجَزَ مِنْ كُل عَاجِزٍ، وَإِنْ شَوْكَةٌ دَخَلَتْ فِي رِجْلِهِ لأَعْجزَتْهُ، وَبَقَّةٌ لَوْ دَخَلَتْ فِي أُذُنِهِ لأَقْلَقَتْهُ.

وَمَنْ تَكَبَّرَ بِالْغِنَى، فَإِذَا تَأَمَّل خَلْقًا مِنْ الْيَهُودِ وَجَدَهُمْ أَغْنَى مِنْهُ، فَأُفٍّ لِشَرَفٍ تَسْبِقُهُ بِهِ الْيَهُودُ، وَيَسْتَلِبُهُ السَّارِقُ فِي لَحْظَةٍ، فَيَعُودُ صَاحِبُهُ ذَلِيلاً.

وَمَنْ تَكَبَّرَ بِسَبَبِ الْعِلْمِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ حُجَّةَ اللَّهِ عَلَى الْعَالِمِ آكَدُ مِنْ حُجَّتِهِ عَلَى الْجَاهِل، وَلْيَتَفَكَّرْ فِي الْخَطَرِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ بِصَدَدِهِ، فَإِنَّ خَطَرَهُ أَعْظَمُ مِنْ خَطَرِ غَيْرِهِ، كَمَا أَنَّ قَدْرَهُ أَعْظَمُ مِنْ قَدْرِ غَيْرِهِ.

وَلْيَعْلَمْ أَيْضًا: أَنَّ الْكِبْرَ لاَ يَلِيقُ إِلاَّ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ إِذَا تَكَبَّرَ صَارَ مَمْقُوتًا عِنْدَ اللَّهِ بَغِيضًا عِنْدَهُ، وَقَدْ أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ أَنْ يَتَوَاضَعَ، وَكَذَلِكَ كُل سَبَبٍ يُعَالِجُهُ بِنَقِيضِهِ، وَيَسْتَعْمِل التَّوَاضُعَ (نسب هذا الكلام لابن القيم ولم أجده من كلامه).

يقول السباعي: "تحدثك دائماً عن نفسك، دليل على أنك لست واثقاً منها".

****

الحادية والثلاثون: الفجور في الخصومة

قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: 204].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8]، وقال تعالى ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 2].

في حديث عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)، (رواه البخاري ومسلم).

الفجور في الخصومة على نوعين:

أحدهما: أن يدعي ما ليس له. الثاني: أن ينكر ما يجب عليه.

قال الحافظ في الفتح (1:90): "والفجورُ الميلُ عن الحقِّ والاحتيال في ردِّه" أ. هـ

وأما الفجور في الخصومة فهو حرام كما يدل على تحريمه الحديث المذكور، وقوله – ﷺ –: (كفى بالمرء إثما أن لا يزال مخاصماً).

والخصومة: لجاج في الكلام ليستوفي به الإنسان مقصوده من مال أو غيره، نعم إن خاصم الإنسان بحق يستوفي حقه فليس ذلك بحرام، وإنما الحرام المذموم من المخاصمة أن يخاصم بباطل أو بغير علم، كبعض وكلاء القضاة فإنه يتوكل بالخصومة قبل أن يعرف الحق في أي جانب فيخاصم بغير علم، فالخصومة مبدأ الشر، وهي توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب حصل الحقد بينهما،

فأطلق كل واحد منهما لسانه في حق الآخر، فينبغي للعاقل أن لا يفتح عليه باب الخصومة إلا لضرورة بالغة، وحينئذ يحفظ لسانه وقلبه عن آفاتها.

قال بعضهم: ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة.

فائدة: قال العلماء: ينبغي للإنسان إذا قال خصمه: بيني وبينك كتاب الله أو سنة رسول الله – ﷺ – وأقوال العلماء المسلمين أو نحو ذلك، أو قال: اذهب معي إلى حاكم المسلمين، أو للمفتي للفصل في الخصومة التي بيننا وما أشبه ذلك أن يقول: سمعنا وأطعنا، أو سمعاً وطاعة، أو نعم وكرامة أو شبه ذلك.

قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

وإذا قال له خصمه في المخاصمة والمنازعة في أمر: اتق الله، أو خف الله تعالى، أو راقب الله تعالى، أو اعلم أن الله مطلع عليك، أو اعلم أن ما تقوله يكتب عليك أو تحاسب عليه، أوقال له: قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً﴾ [آل عمران: 30]، وقال تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: 281]، أو نحو ذلك فيبنغي أن يتأدب ويقول سمعاً وطاعة، أو سل الله التوفيق، أو اسأل الله الكريم لطفه، ويتلطف في مخاطبة من قال ذلك، وليحذر كل الحذر من تساهله عند ذلك في عبارات فإن كثيراً من الناس يتكلمون عند ذلك بما لا يليق، وربما يتكلم بعضهم بما يكون كفراً. (شرح البخاري للسفيري).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم).

وفي سنن أبي داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (من خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتى ينزع) وفي رواية له أيضا (ومن أعان على خصومة بظلم فقد باء بغضب من الله).

قال ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم: "فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة - سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا - على أن ينتصر للباطل ويخيِّل للسامع أنه حق، ويوهن الحق ويخرجه في صورة الباطل، كان ذلك من أقبح المحرمات، وأخبث خصال النفاق".

****

الثانية والثلاثون: النميمة

النميمة: أن ينقل الإنسان كلام الناس بعضهم في بعض من أجل الإفساد بينهم، وهي من كبائر الذنوب.

النمام هو إنسان ذو وجهين يقابل كل من يعاملهم بوجه، فهو كالحرباء يتلون بحسب الموقف الذي يريده وقد حذر النبي من أمثال هؤلاء.

- قال تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: 10-13].

وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1].

(قيل: اللّمزة: النّمّام. عن أبي الجوزاء، قال: قلت لابن عباس: من هؤلاء هم الذين بدأهم الله بالويل؟ قال: هم المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون أكبر العيب).

عن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة نمام)، (متفق عليه).

وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: (إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير بلى إنه كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله)، (متفق عليه).

وفي الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: (من كان ذا وجهين في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار)، (رواه البخاري في الأدب المفرد وهو حديث صحيح)، وعن أبي هريرة عن النبي قال: (تجد من شر الناس يوم القيامة، عند الله، ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وهو من جملة صورة النمام، وإنما كان ذو الوجهين أشر الناس لأن حاله حال المنافق إذ هو متملِّقٌ بالباطل وبالكذب من مدخل للفساد بين الناس، فيأتي كل طائفة بما يرضيها على جهة الإفساد، ويظهر له أنه منها ومخالف لضدّها، وهذا عمل النفاق والخداع وكذب وتحيُّل على أسرار الطائفتين، وهي مداهنة محرّمة.

فأمّا من يقصد الإصلاح بين الناس فذلك محمود وهو أنه يأتي كل طائفة بكلام فيه صلاح الطائفة الأخرى ويعتذر لكل واحدة عند الأخرى وينقل إليها من الجميل ما أمكنه ويستر القبيح، أما المذموم فهو بالعكس" أ هـ.

قال يحي بن أكثم: النمام شر من الساحر ويعمل النمام في ساعة ما لا يعمل الساحر في سنه.

ويقال: عمل النمام أضر من عمل الشيطان، لأن عمل الشيطان بالخيال والوسوسة، وعمل النمام بالمواجهة والمعانية.

قال ابن حزم: "وما في جميع الناس شر من الوشاة، وهم النمامون، وإن النميمة لطبع يدل على نتن الأصل، ورداءة الفرع، وفساد الطبع، وخبث النشأة، ولابد لصاحبه من الكذب؛ والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه، وكل نمام كذاب" أ هـ.

قال الإمام النووي: "وكل من حملت إليه نميمة، وقيل له: فلان يقول فيك، أو يفعل فيك كذا فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدّقه، لأن النمّام فاسق.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك، وينصحه، ويقبّح له فعله.

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى؛ فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حُكِيَ له على التجسس والبحث عن ذلك.

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمّام عنه، فلا يحكي نميمته عنه فيقول: فلان حكى كذا، فيصير به نمّاماً، ويكون آتياً ما نهى عنه..." أ هـ.

بواعث النميمة:

أولا: جهل البعض بحرمة النميمة وأنها من كبائر الذنوب وأنها تؤدي إلى شر مستطير وتفرق بين الأحبة.

ثانيا: التشفي والتنفيس عما في النفس من غل وحسد.

ثالثا: مسايرة الجلساء ومجاملتهم والتقرب إليهم وإرادة إيقاع السوء على من ينم عليه.

رابعا: أراد التصنع ومعرفة الأسرار والتفرس في أحوال الناس فينم عن فلان ويهتك ستر فلان.

قال حماد بن سلمة: باع رجل عبداً، وقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة قال رضيت فاشتراه، فمكث الغلام أياماً، ثم قال لزوجة مولاه إن سيدي لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك، فخذي الموس واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات، حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً، وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها، فجاءت المرأة بالموس، فظن أنها تريد قتله، فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين.

****

الثالثة والثلاثون: الغيبة

قد نهى الله سبحانه وتعالى الذين آمنوا أن يغتاب بعضهم بعضاً، فقال تعالى ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:12].

والغيبة أن يذكر الإنسان أخاه في غيبته بما يكره، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ) فمن ذكر أخاه في غيبته بما يكره مما هو فيه فتلك هي الغيبة، ومن ذكر أخاه في غيبته بما يكره مما ليس فيه، فذلك البهتان، أي كذب عليه واتهمه بما ليس فيه.

والناس يتساهلون في أمر الغيبة مع شناعتها وقبحها عند الله ويدل على ذلك قوله ﷺ: "الربا اثنان وسبعون بابا أدناها مثل إتيان الرجل أمه وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه"، (السلسلة الصحيحة 1871).

قال الإمام النووي -رحمه الله-: "اعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرُها يحرم على السامع استماعُها وإقرارها، فيجب على من سمع إنساناً يبتدئ بغيبه محرمه أن ينهاه إن لم يخف ضرراً ظاهراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، ومفارقه ذلك المجلس إن تمكَّن من مفارقته، فإن قدر على الإنكار بلسانه، أو على قطع الغيبة بكلام اخر، لزمه ذلك، فإن لم يفعل عصى فإن قال بلسانه"اسكت"وهو يشتهى بقلبه استمراره فقال أبو حامد الغزالي: "ذلك نفاق لا يخرجه عن الإثم ولابد من كراهته بقلبه". انتهى.

وقال سفيان بن حسين: "ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر في وجهي، وقال أغزوت الروم؟ قلت: لا، قال: فالسند والهند والترك؟ قلت: لا، قال: أفتسلم منك الروم والسند والهند والترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟! قال: فلم أعد بعدها ".

أسباب الغيبة:

1) هو محاولة الانتصار للنفس والسعي في أن يشفي المغتاب صدره.

2) إرادة رفعة النفس وخفض غيره كأن يقول: فلان جاهل، أو فهمه ضعيف، أو سقيم، أو عبارته ركيكة تدرجاً إلى لفت أنظار الناس إلى فضل نفسه وإظهار شرفه.

3) موافقة الجلساء والأصحاب، والأصدقاء ومجاملتهم فيما هم عليه من الباطل.

4) السخرية والاستهزاء بالآخرين والاحتقار لهم.

5) الحسد فيحسد المغتاب من يُثني عليه الناس ويحبونه فيحاول المغتاب الحسود قليل الدين والعقل أن يزيل هذه النعمة فلا يجد طريقاً إلى ذلك إلا بغيبته والوقوع في عرضه حتى يزيل نعمته أو يقلل من شأنه عند من يثنون عليه.

6) التصنع، واللعب، والهزل، والضحك فيجلس المغتاب خبيث النفس فيذكر عيوب غيره مما يضحك به الناس فيضحك الناس فعند ذلك يرتاح ويزيد من الكذب والغيبة.

7) هو أن ينسب إليه فعلاً قبيحاً فيتبرأ منه ويقول: فلان الذي فعله ومحاولة إلقاء اللوم والتقصير على غيره؛ ليظهر بمظهر البريء من العيوب.

8) الشعور بأن غيره يريد الشهادة عليه أو تنقيصه عند كبير من الكبراء، أو صديق من الأصدقاء، أو سلطان فيسبقه إلى هذا الكبير ويغتابه؛ ليسقط من عينه، وتسقط عدالته، أو مروءته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في مجموع الفتاوى: "من الناس من يغتاب موافقه لجلسائه وأصحابه وعشائره مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون أو فيه بعض ما يقولون لكن يرى أنه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه: فيرى موافقتهم من حسن المعاشرة وطيب المصاحبة وقد يغضبون فيغضب لغضبهم فيخوض معهم.

ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى تارة في قالب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ولا أحب الغيبة ولا الكذب وإنما أخبركم بأحواله ويقول: والله إنه مسكين أو رجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت وربما يقول: دعونا منه يغفر الله لنا وله وإنما قصده إستنقاصه وهضماً لجنابه ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة يخادعون الله بذلك كما يخادعون مخلوقاً وقد رأينا منهم ألوانا كثيرة من هذا وأشباهه.

ومنهم من يرفع غيره رياء فيرفع نفسه فيقول: لو دعوت البارحة في صلاتي لفلان لما بلغني عنه كيت وكيت ليرفع نفسه ويضعه عند من يعتقده أو يقول: فلان بليد الذهن قليل الفهم، وقصده مدح نفسه وإثبات معرفته وأنه أفضل منه.

ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة والحسد. وإذا أُثني على شخص أزال ذلك عنه بما استطاع من تنقيصه في قالب دين وصلاح أو في قالب حسد وفجور وقدح ليسقط ذلك عنه.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزئ به.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب فيقول تعجبت من فلان وكيف لا يفعل كيت وكيت؟! ومن فلان كيف وقع منه كيت وكيت وكيف فعل كيت وكيت فيخرج اسمه في معرض التعجب.

ومنهم من يخرج الاغتمام فيقول مسكين فلان غمني ما جرى له وما تم له فيظن من سمعه أنه يغتم له ويتأسف وقلبه منطو على التشفي به ولو قدر لزاد على ما به وربما يذكره عند أعدائه ليشتفوا به. وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه.

ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول وقصده غير ما أظهر والله المستعان".

قال بعض العلماء: الغيبة كبيرة بحسب الأشخاص فغيبة العلماء سواءً كانت باللسان أو كانت بالجوارح والأركان يقصد تحقير عالم أو انتقاصه فقالوا: هذا يعتبر كبيرة ولو بمرة واحدة، فذكر العالم بما يكره في غيبته يعتبر كبيرة ولو بمرة واحدة وذلك لعظيم حرمتهم عند الله-عز وجل- ويدل على ذلك ما ثبت في الحديث عنه-عليه الصلاة والسلام- أنه لما قال المنافقون: ما رأينا مثل قرآئنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أجبن عند اللقاء، فأنزل الله-عز وجل- ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 65] قالوا لأن القراء وُقع في عرضهم ووقعت الغيبة فيهم لأنهم قراء لكتاب الله وكأن الأذية لهم من جهة الشرع.

قلت: وكذلك غيبة المجاهدين من خلقه، لبّوا نداء خالقهم فتركوا الأهل والأموال والأولاد والأوطان استجابة لأمر ربهم ونصرة لدينه ونصرة المستضعفين من خلقه لإمضاء العقد وتسليم المبيع ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: 111].

****

الرابعة والثلاثون: كثرة الشكوى

فمـا أكثـر مَـنْ ديدنُـهُ وهجـيراه الشـكوى إلى النـاس، وكثـرة السـخط، فـلا يعجبـه أحـد، ولا يروقه شيء.

فـإذا مـا جلـس مجلسـاً بـثَّ شـكاته إلى جُلاَّسـه، وآذاهـم بكثـرة اعتراضـه وتسـخطه، فـتراه يشـكو فقـره، وأولاده، وزوجتـه، ودابتـه، ومزرعتـه، وعملـه، ومـديره، ومـن تحـت يـده، وربمـا شـكى الحـر والقـر وزيـد وعمـرو وعبيـد، وهكـذا... فهـذا الصـنيع دليـل علـى ضعة النفس، وقلة التحمل.

قـال ابـن القـيم في الفوائـد: "الجاهـل يشـكو الله إلى النـاس وهـذا غايـة الجهـل بالمشـكو والمشـكو إليـه فإنـه لـو عـرف ربـه لمـا شـكاه ولـو عـرف النـاس لمـا شـكا إلـيهم ورأى بعـض السـلف رجـلاً يشـكو إلى رجـل فاقتـه وضـرورته فقـال يا هـذا والله مـا زدت علـى أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك وفي ذلك قيل:

إذا شـــكوت الي ابـــن آدم إنمـــا   تشـكو الـرحيم إلى الـذي لا يـرحم

قـال الحـافظ ابـن حجـر: كثـرة الشـكوى تـدل علـى ضـعف اليقـين، وتشـعر بالتسـخط للقضاء وتورث شماتة الأعداء"أ هـ.

والعـارف إنمـا يشـكو إلى الله وحـده وأعـرف العـارفين مـن جعـل شـكواه إلي الله مـن نفسـه لا مـن النـاس فهـو يشـكو مـن موجبـات تسـليط النـاس عليـه فهـو ناظـر إلى قولـه تعـالى ﴿وَمَـا أَصَـابَكُم مِّـن مُّصِـيبَةٍ فَبِمَـا كَسَـبَتْ أَيْـدِيكُمْ﴾ [الشـورى: 30] وقولـه ﴿وَمَـا أَصَـابَكَ مِـنْ سَـيِّئَةٍ فَمِـنْ نَفْسِـكَ﴾ [النسـاء:79]. وقولـه ﴿أَوَلَمَّـا أَصَـابَتْكُمْ مُصِـيبَةٌ قَـدْ أَصَـبْتُمْ مِثْلَيْهَـا قُلْـتُمْ أَنَّىٰ هَـذَا قُـلْ هُـوَ مِـنْ عِنْـدِ أَنْفُسِـكُمْ﴾ [آل عمـران: 165].

فالمراتب ثلاثة أخسها أن تشكو الله إلى خلقه وأعلاها أن تشكو نفسك إليه وأوسطها أن تشكو خلقه إليه". أ. هـ.

وهذه الصفة من صفات النساء في صحيح مسلم، عن جابر ﵁ قال: شهدت الصلاة مع رسول الله صلاة العيد بغير أذان ولا إقامة قبل الخطبة ثم قام متوكئا على بلال يعظ النساء، وأخذ في الحث على تقوى الله تبارك وتعالى وطاعته وقال: (وتصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار) فقامت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين، قالت: ولم يا رسول الله؟ قال: (لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير) تكثرن من الشكاية وتكفرن العشير.

ثم إن كان هناك من حاجة لبث الشكوى لأحد المخلصين، أو لمن يهمهم الأمر؛ طلبًا للنصيحة، أو المشورة، أو إصلاح الوضع وتيسير المهمة فلا بأس.

وإلا فلماذا نثير انتباه الذين لا يعنيهم أمرنا، ولا ننتظر منهم أي فائدة لنا؛ فنفضح بذلك أنفسنا، ونُبِيْن عن ضعفنا وخورنا في سبيل الحصول على شفقة، أو عطف ليس له من نتيجة سوى ازدياد الحسرة، وتفاقم المصيبة.

فتجد بعض الناس كثير التشكي إلى الناس يستأنس بالشكوى ويتلذذ بها كما قِيْل:

تَلَذُّ لَهُ الشَّكْوَى وَإِنْ لَمْ يَجِدْ بِهَا ... صَلاحًا كَمَا يَلْتَذُّ بِالْحَكِّ أَجْرَبُ

وقد مدح بعض السلف بقوله:

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلتِ

وقال آخر:

لا يفرحون إذا ما الدهر طاوعهم ... يوماً بيسر ولا يشكون إن نكبوا

فـاللائق بالمسـلم العاقـل أن يتحلـى بالصـبر الجميـل، وألا يشـكو إلا إلى ربـه، وألا ينـزل حاجاته إلا ببابه، فالناس لا يملكون له ضرًا ولا نفعًا.

****

الخامسة والثلاثون: الخلطة الزائدة

قال ابن القيم رحمه الله: "كم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من منحة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضر من قرناء السوء، لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة، توجب له سعادة الأبد وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة ويعض المخلط عليها يديه ندما كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يا وَيْلَتَا ليتني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً* لَّقَدْ أضلني عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءني﴾ [الفرقان: 27-28]، وقال تعالى: ﴿الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، وقال خليله إبراهيم لقومه ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25]، والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات فإذا دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم وليصبر على أذاهم فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلا وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه" أ هـ.

قال ابن القيم رحمه الله: "فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة وكم زرعت من عداوة وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة" أ. هـ.

ويقول ابن القيم في مدارج السالكين: "فأما ما تؤثره كثرة الخلطة ما امتلأ القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود ويوجب له تشتتاً وتفرقاً وهماً وغماً وضعفاً وحملاً لما يعجز حمله من مؤنة قرناء السوء واضاعة مصلحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم وتقسم فكره في أداء مطالبهم وارادتهم فماذا منه لله والدار الآخرة".

يقول ابن القيم رحمه الله: "فما على العبد أضر من عشائره وأبناء جنسه؛ فنظره قاصر وهمته واقفة عند التشبه بهم ومباهاتهم والسلوك أين سلكوا؛ حتى لو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخل معهم".

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

****

السادسة والثلاثون: الجدال والمراء

الجدال والمراء يوحش القلوب ويوغرها لاسيما وأنه أصبح لحظ النفس لإظهار الحق وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يؤمن العبد الايمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء وإن كان محقا) وفي الحديث الآخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وبيت في اعلى الجنة لمن حسن خلقه).

وفي حديث أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل).

قال الإمام الغزالي رحمه الله: "المراء طعنك في كلام الغير لإظهار خلل فيه، لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه".

يقول الآجري في كتابه القيم "أخلاق العلماء": "فالمؤمن يدارى ولا يمارى، ينشر حكمة الله سبحانه، فإن قبلت حمد الله، وإن رُدت حمد الله".

وقال خالد بن معاوية رحمه الله: "إذا كان الرجل ممارياً لجوجاً معجباً برأيه فقد تمت خسارته".

قال الزبرقان بن عبد الله الأسدي قال: "سَبَبْتُ يوماً الحَجَّاجَ عند أبي وائل فقال: لا تسبَّه لعله قال يوماً اللهم ارحمني فرحمه، إيَّاك ومجالسة من يقول: أرأيت، أرأيت".

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: "ما ماريت أخي أبدا لأني إن ماريته إما أن أكذبه وإما أن أغضبه، وأنا في سعة من الأمرين جميعاً".

وقال الأوزاعي رحمه الله: "إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل".

وقال الأصمعي: "سمعت أعرابياً يقول: من لاحى الرجال وماراهم قلَّتْ كرامته، ومن أكثر من شيء عُرِف به".

وعمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: "من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل".

وقال محمد بن علي بن حسين ﷺ: "الخصومة تمحق الدين، وتنبت الشحناء في صدور الرجال".

وقيل لعبد الله بن حسن بن حسين: ما تقول في المراء؟.

قال: يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة.

وقيل للحكم بن عتيبة الكوفي: ما اضطر الناس إلى هذه الأهواء؟ قال: الخصومات.

قال الشافعي رحمه الله: "المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن".

وما أجمل قول الشافعي حين قال:

قالوا سكتَّ وقد خوصمتَ قلتُ لهم ... إن الجوابَ لِبَابِ الشَّرِّ مفتاحُ

والصمت عن جاهلٍ أو أحمقٍ شرفٌ ... وفيه أيضاً لصون العرض إصلاحُ

أما ترى الأسْدَ تُخشى وهي صامتةٌ ... والكلب يخسى لعمري وهو نباحُ

****

السابعة والثلاثون: التسرع في تخطئة الآخرين

كلما رقَّ دين العبد وقلَّ ورعه أطلق لسانه في أعراض إخوانه، وتجرأ على جرح العلماء والدعاة والمجاهدين، فأهون شيء عليه أن يتطاول على الغير.

لا تتسرع في تخطئة الآخرين فربما يكون للمخطئ بنظرك وجه فيما أقدم عليه، وربما صنع ذلك لمصلحة خفيت عليك ولا تتعجل بالعقوبة إن كانت بيدك قبل أن تعرف ظرف المخطئ أو تتبين الأمر، فكم من رجل طلق زوجه بسبب تعجله في العقوبة وقد كانت تسعى لمصلحته.. وكم من أب جنى على ابنه ولم يمهله ليدفع عن نفسه، وكم من أمير عاقب بعض أفراده دون استماع إلى عذرهم، وكم من أخ هجر أخاه لتسرعه وعدم إمهاله!!

لذا كن متأنيا فإن التسرع ليس من الحكمة في شيء.

قال أبو تراب النخشبي: "إذا أَلِفَ القلب الإعراض عن الله؛ صحبه الوقيعة في أولياء الله".

ومن لطائف الإعذار وحسن الظن ما ذكره المولى جلّ وعلا عن النملة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 18].

قال العلاَّمة عبد الرحمن السعدي: "وعرفتْ حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرتْ عنهم أنهم إن حطموكم؛ فليس عن قصد منهم ولا شعور".

وقد حدثت لعمر ﷺ قصة رواها بنفسه فعَنْ حَدِيثِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ، أَنَّهُمَا سَمِعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ – ﷺ –، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَؤُهَا عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللهِ – صلى

الله عليه وسلم –، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ فَانْتَظَرْتُ حَتَّى سَلَّمَ فَلَمَّا سَلَّمَ أَتَيْتُهُ وَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ بِهَا؟ فَقَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ – ﷺ – فَقُلْتُ لَهُ: كَذَبْتَ فَوَ اللهِ إِنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – لَهُوَ أَقْرَأَنِي هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ بِهَا، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ – ﷺ – أَقُودُهُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، وَإِنَّكَ أَقْرَأْتَنِي سُورَةَ الْفُرْقَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: "يَا هِشَامُ اقْرَأْ" فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – "هَكَذَا أُنْزِلَتْ" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ– ﷺ–: "اقْرَأْ عُمَرُ" فَقَرَأْتُهَا الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَ لِي رَسُولُ اللهِ – ﷺ –، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: "هَكَذَا أُنْزِلَتْ" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ"، (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

التماس العذر يدل على صفاء القلب وكمال العقل، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (ليس أحد أحب إليه العذر من الله).

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلها   كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

******

الثامنة والثلاثون: إظهار الملالة من الأخ

فهناك من الناس من هو ضَيِّقُ الطبع، كثير الملامة، فإذا ما جلس إليه أحد أظهر الانقباض، وأبدى الضجر، ولم يتحدث إلى جليسه إلا على سبيل الاختصار.

وإذا أقبل إليه أحد، وتَقَصَّده ليجالسه لم يَتَطَلَّقْ له، ولم يفرح بمقدمه، بل ربما قابله بالإشاحة والصدود، وبالاكفهرار والعبوس.

وهذا الخلق مما يتنافى مع المروءة؛ إذ المروءة وكمال الأدب يقتضيان أن يتطلّق المرء لجليسه، وأن يظهر له الفرح، وأن يلاطفه بحسن الحديث، ويشكره على تفضله ومجيئه؛ فلجليسك ومن يَتَقَصَّدك حق ومكانة.

وكرامُ الناس وساداتهم يقضون هذا الحق، ويكرمون جليسهم ومن يقصدهم حق التكرمة، فيرفعون من قدره، ويعلون منزلته، ولا يرضون أن يهان أو ينال بمكروه مادام في حضرتهم.

والعرب تجعل الحديث، والبسط، والتأنيس، والتلقي بالبِشْر من حقوق القِرى، ومن تمام الإكرام.

وقالوا: من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة.

قال حاتم الطائي:

سلي الجائعَ الغرثان يا أمَّ منذرٍ إذا ما أتاني بين ناري ومجزري
هَلَ أبْسط وجهي إنه أَوَّلُ القِرى وأبذل معروفي له دون منكري

وقال مسكين الدارمي:

لحافي لحافُ الضيف والبيتُ بيتُه ولم يلهني عنه غزالٌ مُقَنَّع

أحدّثــه إن الحــديث مــن القِــرى وتعلــم نفســي أنــه ســوف يهجــع

وقال الآخر:

وإني لطلــقُ الوجــهِ للمبتغــي القِــرى وإن فنـــائي للقِـــرى لرحيـــبُ
أضــاحك ضــيفي قبــل إنــزالِ رحلــهِ فيخصــب عنــدي والمكــان جــديبُ
ومـا الخصبُ للأضيافِ أن يكثر القِرى ولكنمـــا وجـــهُ الكـــريمِ خصـــيبُ

وقـال ابـن عبـاس رضـي الله عنهمـا: "أَعَـزُّ النـاسِ علـيَّ جليسـي، الـذي يتخطّـى النـاس إليَّ، أما والله إن الذباب يقع عليه فيشق عليَّ".

وعن ابن عباس أنه سئل: من أكرم الناس عليك؟.

قال: "جليسي حتى يفارقني".

وقال الأحنف: "لو جلست إلى مائة لأحببت أن ألتمس رضى كل واحدٍ منهم".

وكـان القعقـاع بـن شـور إذا جالسـه رجـل، فعرفـه بالقصـد إليـه جعـل لـه نصـيباً مـن مالـه، وأعانـه علـى عـدوه، وشـفع لـه في حاجتـه، وغـدا إليـه بعـد المجالسـة شـاكراً. (أخطـاء المحادثة).

قال ابن حبان في روضة العقلاء: "الملالة تورث القطع ولا يكون لملول صديق".

****

التاسعة والثلاثون: عدم الإصغاء للمتحدث ومقاطعته

روى أبو هريرة ﷺ أنه قال: "بينما النبي ﷺ في مجلسٍ يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدثُ. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله. قال: (فإذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة). قال: كيف إضاعتها؟ قال: (إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة).

الشاهد قوله: (فمضى رسول الله صلى الله عليه سولم يحدث) أي: ولم يقطع حديثه، وذلك لأن الحق لمن كان بالمجلس لا لهذا السائل، فناسب أن لا يقطع النبي ﷺ حديثه حتى يقضيه.

وذلك بمقاطعته، ومنازعته الحديث، أو بالتشاغل عنه بقراءة جريدة، أو كتاب، أو متابعة متحدث آخر.

ومن ذلك الإشاحة بالوجه عن المتحدث، أو إجالة النظر عنه يمنة ويسرة.

كل ذلك مما ينافي الأدب في المحادثة، ومما يدل على قلة المروءة.

فينبغي للمرء أن يتجافى عن هذا الخلق الذميم، وأن يحسن الأدب مع من يَتَقَصَّدُه بالحديث، ومع من يتحث أمامه.

فمن أدب المروءة حسن إصغاء الرجل لمن يحدثه من الإخوان؛ فإن إقباله على محدثه بالإصغاء إليه يدل على ارتياحه لمجالسته، وأنسه بحديثه.

كما أن هناك متحدث بارع كذلك هناك مستمع بارع؛ فأحسن الاستماع، ولا تقاطع من تحادثه، بل شجعه على الحديث بحسن إنصاتك؛ من أجل يقابلك بالمثل. وبراعة الاستماع تكون بالإذن، وطرف العين، وحضور القلب، وإشراقة الوجه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لجليسي على ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس، وأن أصغي إليه إذا تحدث".

وقال عمرو بن العاص: "ثلاثة لا أَمَلُّهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رجلي".

وقال الحسن: "إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتَعَلَّمْ حسن الاستماع كما تَعَلَّمُ حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه ".

قال الحسين بن علي لابنه: "يا بني إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثا وإن طال حتى يمسك".

ويقول ابن المقفع: "تَعلَّمْ حُسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام؛ ومن حسن الاستماع: إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه. وقلة التلفت إلى الجواب. والإقبال بالوجه. والنظر إلى المتكلم. والوعي لما يقول".

سأل رجل ابن عمر ﵁ عن إطالة القراءة في سنة الفجر، فقال ابن عمر: "كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل مثنى مثنى، ويوتر بركعة"، فقاطع، فقال: لست عن هذا أسأل، فقال: "إنك لضخم، ألا تدعني أستقرئ لك الحديث"، أي: انتظر الجواب في بقية الحديث، أنا آتي لك بالحديث من أوله لتستفيد، وكلمة ضخم إشارة إلى الغباوة وقلة الأدب، وإنما قال له ذلك، لأنه قاطعه وعاجله قبل أن يفرغ من كلامه.

****

الأربعون : النجوى

يقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءامَنُواْ﴾ [المجادلة: 10].

النجـوى يفصـلها النـبي ﷺ في الحـديث الثابـت في الصـحيحين، حيـث يقـول: (إذا كنـتم ثلاثـة فـلا يتنـاجى اثنـان دون صـاحبهما فـإن ذلـك يحزنـه). ورواه أبـو داود؛ قـال أبـو صـالح: قلـت لابـن عمـر: فأربعـة؟ قـال: لا يضـرك. وفي روايـة: (فـإن ذلـك يـؤذي المؤمن، والله يكره أذى المؤمن).

قـال العلمـاء: إن الشـيطان يوسـوس للثالـث ويقـول لـه: إنهـم يتكلمـون فيـك، ويسـتهدفونك في كلامهـم، فاشـترط العلمـاء كمـا أشـار ابـن كثـير رحمـه الله إلى طلـب الإذن قبـل المناجـاة إن كـان هنـاك حاجـة، ولـيس طلبـه الإذن كعـادة بعـض النـاس يأخـذه بيـده ويقـول: عـن إذنـك، لا، لا بـد أن تطيـب نفسـه قبـل الشـروع في الابتعـاد، كـأن يقـول: تسـمح لنـا يا أخـي بحـديث في موضـوع خـاص سـري بيـني وبينـه يتعلـق بموضـوع لـو كـان لـك بـه علاقـة لمـا أخفينـاه عـن مثلـك، لـيس لـك بـه علاقـة، لكـن ثمـة سـر نكتمـه كمـا أمـر الله وأمـر رسـوله، فـإن طابـت نفسـه وقـال: لكـم مـا أردتمـا فـلا بأس، أمـا أن يقـول: عـن إذنـك وينصـرف فهـذا لا ينبغـي، الله يقـول: لِيَحْـزُنَ الَّـذِينَ ءامَنُواْ والنبي يقول: (فإن ذلك يحزنه).

بـل قـال بعضـهم: إذا ظهـرت علـى الأخ إمـارات الريبـة فـأبن لـه أطـراف الموضـوع إن كـان سـائغًا، حـتى تطيـب نفسـه بأنـه لـيس لـه علاقـة بالحـديث وأنـه لـن يـذكر مـن بعيـد ولا من قريب.

ألا يتنـاجى اثنـان دون الثالـث، وهـذا معلـوم كمـا قـال النـبي عليـه الصـلاة والسـلام: (إذا كنـتم ثلاثـة فـلا يتنـاجى رجـلان دون الآخـر، حـتى تختلطـوا بالنـاس؛ فـإن ذلـك يحزنـه) فالعلـة: حـتى لا يحـزن؛ لأنـه قـد يظـن أنـه دون مسـتوى الكـلام، ومعناهـا احتقـاره

بطريقــة غــير مباشــرة، أو أن يظــن أنكمــا تتــآمران عليــه، فــاختص الكــلام بينكمــا وتركتمـاه، فكأنكمـا تـدبران شـيئاً ضـده، ولأجـل ذلـك قـال: (فـإن ذلـك يحزنـه) فهـذا التناجي إذاً من الشيطان ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

قـال القـرطبي رحمـه الله: "فبـين هـذا الحـديث غايـة المنـع، وهـي أن يجـد الثالـث مـن يتحـدث معـه، كمـا فعـل ابـن عمـر، وذلـك أنـه كـان يتحـدث مـع رجـل، فجـاء آخـر يريـد أن يناجيـه، فلـم يناجـه حـتى دعـا رابعـاً، فقـال لـه ولـلأول: تأخـر، وناجـي الرجـل الطالب للمناجاة. خرجه الموطأ.

وفيـه أيضـا التنبيـه علـى التعليـل بقولـه: (مـن أن يحزنـه) أي يقـع في نفسـه مـا يحـزن لأجلـه، وذلـك بأن يقـدِّر في نفسـه أن الحـديث عنـه بمـا يكـره، أو أنهـم لم يـروه أهـلاً ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من أُلقيات الشيطان وأحاديث النفس.

وحصـل ذلـك كلـه مـن بقائـه وحـده، فـإذا كـان معـه غـيره أمـن ذلـك، وعلـى هـذا يسـتوي في ذلـك كـل الأعـداد، فـلا يتنـاجى أربعـة دون واحـد، ولا عشـرة ولا ألـف مـثلا، لوجـود ذلـك المعـنى في حقـه، بـل وجـوده في العـدد الكثـير أولى، وإنمـا خـص الثلاثـة بالـذكر، لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه... ". [الجامع لأحكام القرآن (17:295)].

حسـناً لـو كـان في المجلـس عشـرة فتنـاجى تسـعة دون العاشـر أفيكـون هـذا التنـاجي محرماً؟ نعم؛ لأنه أشد من تناجي الاثنان دون الثالث.

ولـو أن هنـاك ثلاثـة في المجلـس فـتكلم الأول والثـاني بلغـة لا يتقنهـا الثالـث ولا يعرفهـا، كــأن يكــون الثالــث لا يحســن الكــلام بالإنجليزيــة، فــتكلم الأول والثــاني بالإنجليزيــة بصـوت مرتفـع فيعتـبر هـذا تناجيـاً؛ لأن المفسـدة قـد حصـلت؛ لأنـه يجهـل اللسـان الذي تتحدثان به.

ولـو صـار في المجلـس أربعـة فـتكلم اثنـان سـراً بينهمـا، والثالـث والرابـع صـامتين بعيـداً عنهما فلا يعتبر هذا تناجياً؛ لأنه يمكن أن يأنس بصاحبه.

وقد فهم صحابة رسول الله ﷺ هذه المسألة حق فهمها، فروى الإمام مالك في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال: "كنت أنا وابن عمر عند دار خالد بن عقبة في السوق، فجاء رجل يريد أن يناجيه جاء رجل عند ابن عمر، وابن عمر يريد أن يناجيه وليس مع ابن عمر أحد غيري، فدعا ابن عمر رجلاً آخر من السوق قال لرجل رابع تعال حتى كنا أربعة، ثم قال لي وللرجل الثالث الذي دعا استأخرا شيئاً واستأخرا من التأخر حتى يبلغ المناجي مراده، تأخر أنت والرابع شيئاً حتى أتمكن من كلام هذا الرجل الذي معي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يتناجى اثنان دون الثالث".

****

الحادية والأربعون: رفع الصوت عليه

قال الله تعالى في وصية لقمان لابنه ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى عند تفسير هذه الآية: "أي لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه"، ولهذا قال: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير، وقال مجاهد: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير: "أي غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا فهو بغيض إلى الله، والتشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم"أ هـ.

قال ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أدبًا مع الناس، ومع الله، ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي أفظعها وأبشعها ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة لما اختص الحمار بذلك، الذي علمت خسته وبلادته'

قال ابن مفلح: قال الشيخ تقي الدين: من رفع صوته على غيره علم كل عاقل أنه قلة احترام له.

وقد كان هذا الأمر معهوداً حتى عند أهل الكفر.

قال أمية بن خلف وكان كافراً لسعد بن معاذ لما رفع سعد صوته على أبي جهل: "لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي". (أخرجه البخاري).

عبد الله بن عمرو بن العاص يصف النبي بقوله: (لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا) لم يكن فاحشًا يعني لم يكن قبيحًا في قوله أو فعله ولا متفحشًا ولا يتعمد ذلك، سجية فيه الكلام الطيب، ولكن بعض الناس عياذاً بالله حتى ولو لم يكن مثاراً ولم يكن في حالة غضب ينثر القيءَ والصديد يمينًا وشمالاً لم يتعود على الكلام المهذب،

ديدنه أعوذ بالله رفع الصوت والسباب والشتم والاحتقار والسخرية، فيزرع العداوات ويقضي على العلاقات.

مما يكره رفع الصوت بالجشاء، وينبغي تجنب الأطعمة التي تسببه أو الإكثار منها، وخفض الصوت به.

عن أبي جحفة ﷺ قال: "أكلت ثريدا من خبز ولحم ثم أتيت النبي ﷺ فجعلت أتجشأ". فقال: "أقصر من جشائك، فإن أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا"، (رواه الترمذي).

ويستحب تحويل الوجه أثناء العطاس عن وجوه الناس وعن الطعام والشراب لئلا يصيبها رذاذ العطاس، ووضع اليد أو المنديل على الفم وخفض الصوت بها ما أمكن.

عن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده على فيه وخفض بها صوته"، (رواه الترمذي).

كذلك يكره رفع الصوت في حال التثاؤب.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (التثاؤب في الصلاة من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع)، (رواه البخاري).

ولا شك أن رفع الصوت مزعج للسامع، ومثير لأعصابه، وهو ينبئ عن قلة الأدب.

قال الإمام مالك: "أرى من رفع صوته وشوش على المصلين يوم الجمعة أن يضرب ويخرج من المسجد".

وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم أو بترك الصياح جملة.

وقـد أثبـت العلـم الحـديث أن الضوضـاء بشـكل عـام تسـبب إجهـادا ذهنيـا وعـدم التركيـز وعـدم القـدرة علـى الاسـتيعاب والـتعلم وتـؤثر علـى درجـة الأداء الـذهني، كمـا أن الضوضـاء الشـديدة ترفـع مـن ضـغط الـدم وتـؤثر علـى الأوعيـة الدمويـة الصـغيرة في القلب، وتؤدي إلى انقباضها مما يؤدي إلى الشعور بالصداع الشديد.

****

الثانية والأربعون: التّقَعّرُ في الكلام

ذكر الإمام الغزالي الآفة السادسة من آفات اللسان فأدرج تحتها: "التقعر في الكلام بالتشدق، وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات، وما جرى به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة".

ثم قال: "وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت".

ثم قال أيضاً: "بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم". أ هـ.

قال الإمام النووي: "ويكره التقعير في الكلام بالتشدق، وتكلف السجع، والتصنع بالمقدمات التي يعتادها المتفاصحون، وزخارف القول.

فكل ذلك من التكلف المذموم، وكذلك تكلف السجع، وكذلك التحري في دقائق الإعراب، ووحشي اللغة في حال مخاطبة العوام.

بل ينبغي أن يقصد في مخاطبته لفظاً يفهمه صاحبه فهماً جلياً، ولا يستثقله". أ هـ.

قال عليه الصلاة والسلام: (وإن أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقاً الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون).

وقال عليه الصلاة والسلام: (سيكون قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر من الأرض). أخرجه أحمد والترمذي وهو في "السلسلة الصحيحة".

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (ألا هلك المتنطعون) ثلاث مرات. (رواه مسلم).

وقال أبو السعادات: "هم المتعمقون الغالون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم. مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولا وفعلا".

وقال النووي: "فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم". أ هـ.

عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ﵂، قالت: قال رسول الله ﷺ: "شرار أمتي الذين غذوا بالنعّيم الذين يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام". (أخرجه ابن عدي وصححه الألباني).

ومما يذكر عن بعض المتقعرين أنه مر أبو علقمة ببعض الطرق بالبصرة فهاج به مرة يعني عصارة المرارة هاجت به فنزل على الأرض من الألم، فسقط ووثب عليه قوم يعني ظنوه صرعته الجن فأقبلوا يعصرون إبهامه ويؤذنون في أذنه، ظنوا به جناً، فأفلت من أيديهم وقال: ما لكم تتكأكئون علي كما تتكأكئون على ذي جنة؟! افرنقعوا عني، فقال رجل منهم: دعوه فإن شيطانه هندي.

أما تسمعونه يتكلم بالهندية؟

وجلس أعرابي إلى أبي المكنون النحوي في حلقته وهو يريد أن يدعو بدعاء الاستسقاء فشرع في الدعاء، ثم قال: ومن أراد بنا سوءاً فأحط ذلك السوء به كإحاطة القلائد على كرائد الولائد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل، ثم قال: اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً مجلجلاً مسحنفراً مزجاً سحاً طبقاً غدقاً متعنجراً لاحظ بعض الألفاظ وردت في الحديث، وبعض الألفاظ من تقعراته، فقال الأعرابي: يا خليفة نوح! هذا الطوفان ورب الكعبة، دعني آوي إلى جبل يعصمني من الماء.

وهـاج بأبي علقمـة النحـوي دم فـأتوه بحجـام؛ فقـال لـه: اشـدد قصـب المحـاجم، وأرهـف ظبـات المشـارط، وأسـرع الوضـع، وعجـل النـزع، ولـيكن شـرطك وخـزاً، ومصـك نهـزاً، ولا تكرهن أبياً، ولا تردن أتياً.

فقال الحجام: ابعث خلفي عمرو بن معد يكرب، وأما أنا فلا طاقة لي بالحرب.

****

الثالثة والأربعون: الغلظة في الخطاب

من الناس من إذا خاطب الناس أغلظ لهم القول، وجابهم بالعنف، وواجههم بالشدة، مما يبذر الشقاق الذي نهينا عنه، وللكلمة الطيبة وقع عظيم في القلب؛ فكم من مودة استجلبت بها، وكم من عداوة زالت بسببها، قال الله تعالى ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 53].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: "يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلامَ الحسنَ، والكلمة الطيبة؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشرُّ، والمخاصمةُ، والمقاتلة؛ فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوتُه ظاهرة بينه" أ هـ.

وقال الله تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ [البقرة: 83]، قال الإمام الفخر الرازي: "قال أهل التحقيق كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية، أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية، فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان، وهو مع الكفار، أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع المنافقين أما الدعوة إلى الإيمان فلا بد وأن تكون بالقول الحسن، كما قال تعالى لموسى وهارون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44]، أمرهما الله بالرفق مع فرعون مع جلالتهما، ونهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله تعالى، وقال لمحمد ﷺ ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، وأما دعوة الفساق، فالقول الحسن فيه معتبر قال تعالى﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]، وقال ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34].

وأما في الأمور الدنيوية، فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول لم يحسن سواه، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخله تحت قوله تعالى﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾". أ هـ.

قال تعالى لموسى عليه السلام عندما بعثه إلى فرعون ﴿اذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 43 -44].

وقال عز وجل في الآية الأخرى ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: 17-19].

قال ابن القيم رحمه الله: وتأمل لامتثال موسى لما أُمِر به كيف قال لفرعون ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر، وقال ﴿إلى أن تزكى﴾ ولم يقل: إلى أن أزكيك، فنسب الفعل إليه هو، وذكر لفظ التزكي دون غيره؛ لما فيه من البركة، والخير، والنماء.

ثم قال ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أكون كالدليل بين يديك، والذي يسير أمامك.

وقال ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ استدعاءً لإيمانه بربه الذي خلقه، ورزقه ورباه بنعمه صغيراً وكبيراً.

قال الإمام أحمد رحمه الله: "الناس محتاجون إلى مداراة ورفق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا غلظة، إلا رجل معلن بالفسق، فلا حرمة له".

****

الرابعة والأربعون: الثرثرة

فِي النِّهَايَةِ الثَّرْثَارُونَ هُمْ الَّذِي يُكْثِرُونَ الْكَلَامَ تَكَلُّفًا وَخُرُوجًا عَنْ الْحَقِّ، وَالثَّرْثَرَةُ كَثْرَةُ الْكَلَامِ وَتَرْدِيدُهُ. فتجد من الناس من هو ثرثار مهذار، يتكلم من كل باب، ويتولج كل مضيق.

فالثرثرة مظهر من مظاهر سوء الخلق، وهي دليل عل نقص العقل ورقّةِ الدين.

عن جابر ﵁ قال: قال النبي ﷺ: "إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقاً؛ الثرثارون، المتفيهقون، المتشدقون"، (رواه الترمذي وصححه الألباني).

وقال القاسمي: "إياك وفضول الكلام؛ فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن؛ فكلام الإنسان بيان فضله، وترجمان عقله؛ فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل" أ هـ.

رأى أحدُ الصالحين رجلاً كثيرَ الكلامِ قليلَ السكوتِ فقال له: يا هذا، إن اللهَ تعالى إنما خلقَ لك أُذُنينِ ولسانًا واحدًا ليكون ما تسمعه ضِعفَ ما تتكلم به ومن كَثُرَ كلامه، كَثُرتْ آثامُه.

وعن الحسن ﵁ قال: "من كثر قالُهُ كثرت ذنوبه ومن كثر كلامه كثر كذبه ومن ساء خلُقُه عذب نفسه".

وقال الشافعي:

لا خير في حشو الكلا ... م إذا اهتديت إلى عيونه

والصمتُ أجملُ بالفتى ... من منطقٍ في غير حينه

وقال الشاعر:

وفي الصمت سترٌ لعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

قال الإمام النووي رحمه الله: "اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام المباحُ وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء" أ هـ.

وقال القاسمي: "إياك وفضول الكلام؛ فإنه يُظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن؛ فكلام الإنسان بيان فضله وترجمان عقله؛ فاقصره على الجميع، واقتصر منه على القليل" أ هـ.

في سير أعلام النبلاء في سيرة زاذان الضرير، فساق الذهبي كلاماً لشعبة – رحمه الله –: وقال شعبة قلت للحكم لِمَ لَمْ تحمل عنه يعني زاذان قال كان كثير الكلام.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: "أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة".

والثرثرة أعظم مفتاح يمتلكه المرء لإغلاق باب المنازعات على نفسه، إذ لو تأمل العاقل في غالب منازعات الناس، لوجدها من عثرات الألسن، وصدق رسول الله ﷺ، حين قال لمعاذ – رضي الله عليه –: "وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم".

نعم إن فلتات اللسان مقاتل الإنسان، وأماني الشيطان، وصدق من قال:

يُصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يُصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرة القول تُذهِبُ رأسه وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

وآخر يقول:

احفـــظ لسانـــــك أيهـــا الإنســـــان لا يلـــــدغنّك إنـــــه ثُعبــــــــــان
كـــم في المقـــابر مـــن قتيـــل لســـانه كانـــت تهـــاب لقـــاءَهُ الشّـــجعان

وثالث يبيّن مدى السلامة في ترك الثرثرة:

الصـــمت زَيْـــنٌ والســـكوت ســـلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا
فلـــئن نـــدمت علـــى ســـكوتك مـــرة فلتنـــــدمنّ علـــى الكـــــلام مـــــرارا

وتـذكر قـول ابـن عبـاس رضـي الله عنهمـا –عنـدما اخـذ بلسـانه وهـو يقـول: "ويحـك، قـل خـيرا تغـنم، أو اسـكت عـن سـوء تسـلم، وإلا فـاعلم أنـك سـتندم". ومـا ذلـك إلا لان اللسان سبع ضار، وعدو مهلك متى أطلق له العنان. قال الناظم:

يقـول مصـطفى صـادق الرافعـي: "أربعـةُ آلافِ كَلِمـةٍ في الثَّرْثَـرَةِ، أَقَـلُّ مـن أربـعِ كلِمَـاتٍ في الحِكْمَة".

وقال أيضاً: "الرأسُ الفارغُ من الحِكمَةِ لا يُوازِنُه في صاحِبِه إلا فَمٌ مُمتلئٌ منَ الثَّرثَرَة".

قال عمر بن عبد العزيز: "إنه ليمنعني من كثير الكلام مخافة المباهاة".

وقـال عبيـد الله بـن أبي جعفـر: "إذا كـان المـرء يحـدث في مجلـس فأعجبـه الحـديث فليسكت وإن كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتحدث".

******

الخامسة والأربعون: الاستئثار بالحديث

فهناك من يثرثر حديثه، ولكنه يعطي غيره فرصة كي يتحدث.

والثرثرة قبيحة كما مر وأقبح منها أن يستأثر المرء بالحديث، فلا يعطي غيره فرصة لأن ينبس ببنت شفة.

والأثرة بالحديث آفة قبيحة، يغفل عنها كثير من المتحدثين؛ لظنهم أن سكوت من أمامهم إنما هو إعجاب بكلامهم، وموافقة لهم على الإطالة.

فمن الأدب بالكلام أن يقتصد المسلم في تحدثه في المجالس، وأن ينأى بنفسه من صنيع بعض الناس، ممن لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث في محافل الناس، فيملأون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: إياك أن تتصدى في مجالسك مع الناس للترؤس عليهم وأنت لست برئيس، وأن تكون ثرثاراً متصدراً بكل كلام.

تعلم حسن الاستماع حسن الإنصات والاستماع له، وكذلك كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم جامعاً بين الأمرين. عن أنس بن مالك - ﵁ - قال: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم مُحَمَّد؟ -والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: يا ابن عبد المطلب، فقال له النبي ﷺ: "قد أجبتك" فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك، فقال: "سل عما بدا لك" فقال: أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: "اللهم نعم"، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ فقال: "اللهم نعم"، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ فقال: "اللهم نعم"، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ

هـذه الصـدقة مـن أغنيائنـا فتقسـمها علـى فقرائنـا؟ فقـال النـبي ﷺ: "اللهـم نعـم"، فقـال: الرجـل آمنـت بمـا جئـت بـه، وأنا رسـول مـن ورائـي مـن قـومي وأنا ضـمام ابـن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر. (رواه البخاري).

الاسـتئثار بالحـديث صـفة غـير مقبولـة. ومشـاركة الحضـور للمجلـس وطـرح الأفكـار علامـة علـى رفعـة الشـخص وحسـن أدبـه، وفي صـفة الإنصـات وحسـن الاسـتماع دلالـة علـى رجاحـة العقـل وتمامـه، وتقـدير الآخـرين وهـو مـن مفـاتيح القلـوب وسـلب محبـة النفـوس.. والنـاس اليـوم يحبـون مـن يسـتمع إلـيهم لكثـرة حـديثهم ومشـاكلهم، فـتراهم ينثرون خبايا الصدور ومكنون النفوس لأقرب مستمع وأدنى صاحب.

قـال أبـو الـدرداء - رضي الله عنه -: "أنصـف أذنيـك مـن فيـك، فإنمـا جُعـل للإنسـان أذنان وفـم واحد".

لنسـمع أكثـر ممـا نقـول ولهـذا تجنـب المقاطعـة أو التعليـق الغـير مهـم أثنـاء حـديث محـدثك، بـل أظهـر حسـن الاسـتماع والإصـغاء وإذا انتهـى فـاطرح رأيـك وملاحظاتـك بأدب ورفق.

يقـول عطـاء بـن رباح: "إن الرجـل ليحـدثني بالحـديث فأصـمت لـه، كـأني لم أسمعـه وقـد سمعته قبل أن يولد".

قـال الحسـين بـن علـي لابنـه: "يا بـني إذا جالسـت العلمـاء فكـن علـى أن تسـمع أحـرص منـك علـى أن تقـول، وتعلـم حسـن الاسـتماع كمـا تـتعلم حسـن الصـمت، ولا تقطع على أحد حديثا وإن طال حتى يمسك".

******

السادسة والأربعون: كذب الأخ على أخيه

قال الماوردي: "والكذب جماع كل شر، وأصل كل ذمٍّ؛ لسوء عاقبته، وخبث نتائجه؛ لأنه ينتج النميمةَ، والنميمةُ تنتج البغضاءَ، والبغضاءُ تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة؛ ولذلك قيل: من قلَّ صدقُه قلَّ صديقُه".

قال ﷺ: (وإياكم والكذب، فإن الكذب يهي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا)، (متفق عليه).

وقال النبي ﷺ: "تحرّوا الصدق، وإن رأيتم أن فيه التهلكة، فإن فيه النجاة، وتجنبوا الكذب، وإن رأيتم أنّ فيه النجاة، فإن فيه التهلكة".

وقال الفاروق عمر رضي الله عنه: "لأن يضعني الصدق، وقلّما وضع، أحبُّ إليّ من أن يرفعني الكذب، وقلّما يفعل".

وقيل في ذم الكذاب: لا تطلبوا الحوائج من كذاب فإنه يقربها وإن كانت بعيدة، ويبعدها وإن كانت قريبة.

من الناس من قد ألف الكذب، ومرد عليه، فلا يخجل من نسج الأباطيل، ولا يأنف من اختلاق الأقاويل، لاتردعه تقوى، ولايزمُّه دين أو مروءة.

فإذا حضر مجلساً أطلق لسانه بالكذب، فتراه يأتي بالغرائب، ويغرب في العجائب، ويسوق مالا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال؛ كل ذلك لأجل أن يُسْتَظْرَفَ ظلُّه، ويُسْتَطْرَفَ حديثُه، ويرغب في مجلسه.

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعض عماله: "إياك أن تستعين بكذوب فإنك إن تطع الكذوب تهلك".

فالكـذب مـن أعظـم الآثام؛ ومـن مسـاوئ الأخـلاق؛ وقـد كـان أهـل الجاهليـة يترفعـون عنـه، حـتى قـال أبـو سـفيان- وقـد كـان مشـركاً-: "كنـت امـرءاً سـيداً أتكـرم عـن الكذب".

قال الثعالبي: "من صدقت لهجته ظهرت حجته. من قلّ صدقه قلّ صديقه".

الصـدوق بـين المهابـة والمحبـة. مـن عـرف بالصـدق جـاز كذبـه، ومـن عـرف بالكـذب لم يجز صدقه. الصدق ينجي، والكذب يشجي".

الكذب دليل على ضعة النفس، وحقارة الشأن، وسقوط الهمة.

قيل في ذم الكذب:

ومـا شـيء إذا فكـرت فيـه بأذهـب للمـروءة والجمـال
مـن الكـذب الـذي لا خـير فيـه وأبعـد بالبهـاء مـن الرجـال

وقيل في ذم الكذوب: ليس لكذوب مروءة، ولا لضجور رياسة.

وقال آخر:

إذ مـا المـرء أخطـأه ثـلاثٌ فَبِعْـهُ ولـو بكـفٍّ مـن رمـادِ
سـلامةُ صَـدْرِهِ والصـدقُ منـه وكتمـانُ السـرائرِ في الفـؤاد

****

السابعة والأربعون: القيام عنه قبل أن يكمل حديثه

من قلة الأدب، ومما ينافي إكرام الجليس والصاحب، أن يقوم عن المتكلم قبل أن يكمل حديثه؛ لما في ذلك من استجلاب الضغينة، واحتقار المتحدِّث إلا إذا احتاج السامع للقيام، واستأذن من محدِّثه فهنا ينتفي المحذور.

قال أبو مجلز: إذا جلس إليك رجل يَتَعَمَّدُك فلا تقم حتى تستأذنه.

عن أبي بردة قال: دخلت مسجد المدينة فإذا عبد الله بن سلام، فسلمت ثم جلست، فقال: يا ابن أخي! إنك جلست ونحن نريد القيام.

وقال أسماء ابن خارجة: ما جلس إليَّ رجل إلا رأيت له الفضل عليَّ حتى يقوم عني.

﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاس﴾ [لقمان: 18] ينهى لقمان ابنه عن الكبر، والمعنى أن لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم، أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم. والصعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر حركة الكبر والازورار وإمالة الخد للناس في تعال واستكبار.

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: "هو أن تلوي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره، فالمعنى: أقبل عليهم متواضعاً مؤنسا مستأنسا، وإذا حدثك أصغرهم فأصغ إليه حتى يكمل حديثه، وكذلك كان النبي ﷺ يفعل". أ هـ

****

الثامنة والأربعون: العبوس في وجه أخيه

قال الجاحظ: "العبوس هو التّقطيب عند اللّقاء بقلّة التّبسّم وإظهار الكراهية، وهذا الخلق مركّب من الكبر وغلظ الطّبع؛ فإنّ قلّة البشاشة هي استهانة بالنّاس، والاستهانة بالنّاس تكون من الإعجاب والكبر، وقلّة التّبسّم وخاصّة عند لقاء الإخوان تكون، من غلظ الطّبع، وهذا الخلق مستقبح وخاصّة بالرّؤساء والأفاضل"أ هـ.

وقال الرّاغب: العبوس: "قطوب الوجه من ضيق الصّدر"أ هـ.

الأطباء يقولون إن جهد عضلات العبوس أكثر وأشد من جهد عضلات التبسم.

قالوا يحرك الانسان عند الابتسام 17 عضلة، وعند العبوس 43 عضلة.

وفي المثل: الكلام الحسن مصايد القلوب، والعبوس من طبعه البُؤس.

عاتب الله عز وجل رسوله الله ﷺ بقوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ في لفتة رائعة إلى كراهة العبوس والتولي حتى عمن لا يروننا.

والعرب كانت تمتدح بالأول، وتذم بالثاني، فإذا أرادت العرب أن تمدح شخصاً قالت: فلان بسام الثنايا، طلق الوجه، بشوش للضيف، ويعتبرون هذا مما يمدح به الإنسان؛ لأنه يدل على كرم أخلاقه، وحسن معشره وطيب معاملته، وقد يذمون بالآخر وهو الاكفهرار والعبوس.

فيقولون: فلان عبوس الوجه، جهم المحيا، كريه المنظر، حامض الوجه، كأنما وجهه بالخل منضوح، أي: كأنما وضع الخل على وجهه فلشدة حموضته قطب واكفهرت أساريره، وكأنما أسعط خيشومه بالخردل، أي: كأنما وضح الخردل في أنفه سعوطاً فكان مقطباً: فالعرب تمدح بالأول وتذم بالثاني.

حتى أن ابن الجوزي يقول في صيد الخاطر: "رأيت أناساً يتزمتون ويظهر عليهم العبوس، ويظهرون التعبد للناس، وإن القلوب لتنفر منهم، ورأيت أناساً يتبسمون ويمزحون، وإن القلوب تطوف بهم؛ لأن الحب من الواحد الأحد وليس من الناس؛ فأنت لا تتصنع للناس".

كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات:

الـقَ بالبشر من لقيت من النا س جميعًا ولاقِهِمْ بالطلاقةْ
تَجْنِ منهم به جناءَ ثمارٍ طيِّبًا طعمه لذيذ المذاقةْ
ودعِ التِّيهَ والعبوسَ عن النا س فإن العبوس رأس الحماقةْ
كلما شئتَ أن تعادي عاديـ ـت صديقًا وقد تعز الصداقةْ

والعبوس صفة من صفات أهل النار قال تعالى ﴿ووُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تظن أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة:24 - 25]. باسرة: شديدة العبوس. وفاقرة: داهية تقصمهم..

قال الذهبي في السير: "وينبغي لمن كان عبوسا منقبضا، أن يتبسم ويحسن خلقه، ويمقت نفسه على رداءه خلقه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم، ولا بد للنفس من مجاهدة وتأديب".

يقولُ أحمد أمين في فيْضِ الخاطرِ: "ليس المبتسمون للحياة أسعدَ حالاً لأنفسِهِمْ فقط، بلْ هم كذلك أقدرُ على العملِ، وأكثرُ احتمالاً للمسؤوليةِ، وأصلحُ لمواجهةِ الشدائدِ ومعالجةِ الصعابِ، والإتيانِ بعظائمِ الأمورِ التي تنفعهُمْ وتنفعُ الناس.

لو خُيِّرتُ بين مالٍ كثيرٍ أو منصبٍ خطيرٍ، وبين نفسٍ راضيةٍ باسمةٍ، لاخترتُ الثانيةَ، فما المالُ مع العبوسِ؟! وما المنصبُ مع انقباضِ النفسِ؟! وما كلُّ ما في الحياةِ إذا كان صاحبُه ضيّقاً حرجاً كأنه عائدٌ من جنازة حبيبٍ؟! وما جمالُ الزوجة إذا

عبسـتْ وقلبـتْ بيتهـا جحيمـاً؟! لخـيرٌ منهـا – ألـفَ مـرةٍ – زوجـةٌ لم تبلـغْ مبلغهـا في الجمالِ وجعلتْ بيتها جنَّةً.

ولا قيمـةَ للبسـمةَ الظـاهرةِ إلا إذا كانـتْ منبعثـةً ممـا يعـتري طبيعـة الإنسـانِ مـن شـذوذ، فـالزهرُ باسِـمٌ والغـاباتُ باسمـةٌ، والبحـارُ والأنهـارُ والسـماءُ والنجـومُ والطيـورُ كلُّهـا باسمـةٌ. وكـان الإنسـانُ بطبعـهِ باسمـاً لـولا مـا يعـرضُ لـه مـن طمـعٍ وشـرٍّ وأنانيـةٍ تجعلُـهُ عابسـاً، فكـان بـذلك نشـازاً في نغمـاتِ الطبيعـةِ المنسـجعةِ، ومـنْ أجـلِ هـذا لا يـرى الجمـال مـن عبسـتْ نفسُـه، ولا يـرى الحقيقـةَ مـن تـدنَّس قلبُـه، فكـلُّ إنسـانٍ يـرى الـدنيا مـن خـلال عمِلـه وفكْـرِه وبواعِثـه، فـإذا كـان العمـلُ طيبـاً والفكـرُ نظيفـاً والبواعـثُ طـاهرةً، كـان منظـارُه الـذي يـرى بـه الـدنيا نقيـاً، فـرأى الـدنيا جميلـةً كمـا خُلقـتْ، وإلاَّ تغبَّشَ منظـارُه، واسودَّ زجاجُه، فرأى كلَّ شيء أسود مغبشاً"أ هـ.

قـال ابـن عقيـل الحنبلـي رحمـه الله: "البشـر مـؤنس للعقـول، ومـن دواعـي القبـول، والعبوس ضده ".

****

التاسعة والأربعون: التدخل في خصوصيات الأخ

في الحديث عن رسولنا ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، (رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير).

قال ابن القيم: "قد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة، فقال: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، فهذا يعم الترك لما لا يعني من: الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع".

وَفِي التِّرْمِذِيِّ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: تُوُفِّيَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَبْشِرْ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ -: وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، أَوْ بَخِلَ بِمَا لَا يُنْقِصُهُ قَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى: "كل مسألة لا ينبني عليها عمل؛ فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي. وأعني بالعمل: عمل القلب وعمل الجوارح، من حيث هو مطلوب شرعاً. والدليل على ذلك استقراء الشريعة؛ فإنا رأينا الشارع يُعرض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به؛ ففي القرآن الكريم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، فوقع الجواب بما يتعلق به العمل؛ إعراضاً عما قصده السائل..."أ. هـ.

وقال تعالى بعد سؤالهم عن الساعة: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: 42 -43]، أي: إن السؤال عن هذا سؤال عما لا يعني؛ إذ يكفي من علمها أنه لا بد منها، ولذلك سئل عليه الصلاة والسلام عن الساعة فقال للسائل: (ما أعددت لها؟)؛ إعراضاً عن صريح سؤاله إلى ما يتعلق بها مما فيه فائدة، ولم يجبه عما سأل. وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ

لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101] ومن هنا نهى عليه الصلاة والسلام: (عن قيل وقال، وكثرة السؤال)؛ لأنه مظنة السؤال عما لا يفيد وقرأ عمر بن الخطاب: ﴿وفاكهة وأبا﴾، وقال: (هذه الفاكهة، فما الأبّ؟، ثم قال: نهينا عن التكلف).

وروى أبو عبيدة عن الحسن قال: من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه.

وقال سهل التُسْتَرِيُّ: من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق.

وقال معروف: كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله عز وجل.

ودخلوا على بعض الصحابة في مرضه ووجهه يتهلل، فسألوه عن سبب تهلل وجهه فقال: ما من عمل أوثق عندي من خصلتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي سليمًا للمسلمين.

فهذا الأحنف بن قيس عندما قال له رجل: كيف سدت قومك وأنت قصير، دميم الخلقة؟

وكان الأحنف من سادات العرب ومن أهل الحلم والفضل، فقال كلمة عظيمة في جواب هذا السائل المحتقر له المزدري له في خلقته قال له: بتركي لما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك.

قال مورق العجلي: لقد سألت الله حاجة أربعين سنة ما قضاها ولا يئست منها.

قيل له: وما هي؟

قال: ترك ما لا يعنيني.

******

الخمسون: تتبع عثراته

قال ﷺ: (يا معشرَ مَن آمن بلسانِه ولم يدخلِ الإيمان قلبَه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عَوراتِهم، فإنّه من تتبّع عوراتِهم تتبّع الله عورتَه، ومن تتبّع الله عورتَه يفضحه ولَو في جوفِ بيتِه)، (رواه أبو داود والترمذيّ).

وقال الإمام أحمد رحمه الله: "الوقيعةُ في أهلِ العِلم ـ ولا سيّما أكبارهم ـ مِن كبائِر الذنوب".

وقال مالك بن دينار رحمه الله: "كفى بالمرءِ شرًّا أن لا يكونَ صالحًا وهو يقَع في الصالحين".

وقال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: "فمن ذا الذي سلم من الخطأ غير أنبياء الله ورسله، وكم لبعض المشاهير من العلماء من زلات، لكنها مغتفرة بجانب ما هم عليه ما هم عليه من الحق والهدى والخير الكثير:

من الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

ولو أخذ كل إنسان بهذا لما بقي معنا أحد، ولصرنا مثل دودة القز، تطوي نفسها بنفسها حتى تموت.

وانظر: ما ثبت في (الصحيحين) عن جابر رضي الله عنه: "أن رسول الله ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم أو يلتمس عثراتهم".

هذا وهم أهل بيت الرجل وخاصته فكيف بغيرهم؟

وما شرع أدب الاستئذان، وما يتبعه من تحسيس أهل البيت بدخول الداخل إلا للبعد عن الوقوع على العثرات فكيف بتتبعها"أ هـ.

هنـاك مـن النـاس مـن تكـون غايـةُ دنيـاه وأكـبرُ همِّـه ومُنـاه تتبّـعَ العثـراتِ وتصـيُّدَ الـزّلاّت والـنّفخَ في الهِنَـاتِ الهيِّنـات والتشـهيرَ بهـا عـبرَ المجـالس والمنتـديات؟! لا يفتـؤون همَـزًا، ولا ينفَكّـون لمـزًا، ولا يبرَحـونَ غمـزًا. ديـدنُهم التشـويش، ومطيّـتُهم التحـريش، وسـجيّتُهم الإثارةُ والتهـويش. قاموسُـهم سُـوءُ الظـنّ، ومعـاجِمُهم الأذَى والمـنّ، يبـادِرون بالاتّهـام، ويسـتَعجِلون بالجفـاء، يكثِـرون الوقيعـةَ والعِتـاب، ولا يتورّعـون عـن الشّـتائم والسّـباب. يطعَنـون إخـوانَهم فِي الخواصِـر، إذا رَأَوك في نعمـةٍ حسَـدوك، وإن تواريـتَ عـنهم اغتابوك.

إن يسـمَعوا هَفـوةً طـاروا بِهـا فرحًـا ... ومـا علِمـوا مِـن صـالحٍ كتَمـوا

فـإن الاشـتغال بعيـوب الـنفس يشـغل عـن عيـوب الغـير، وقـد قـال الإمـام مالـك رحمـه الله: "كـان هنـا يعـني: بالمدينـة أناسٌ لهـم معايـب، فسـكتوا عـن عيـوب النـاس، فنسـيت عيـوبهم، وكانـت أناسٌ لهـم معايـب، فتكلمـوا في عيـوب النـاس فبقيـت عيـوبهم وذكـرت مـن بعـدهم"ثم إن الـنفس الأصـل فيهـا الجهـل والظلـم والتعـدي علـى الخلـق، فلـذلك يـرى الإنسـان كمـا قـال النـبي ﷺ: (يبصـر أحـدكم القـذى في عـين أخيـه، وينسـى الجذع في عينه) فهو يبصر أخطاء الناس وإن دقت، وينسى أخطاءه هو.

إذا مـا بـدت مـن صـاحب لـك زلـة ... فكـن أنـت محتـالاً لزلتـه عـذرا
أحـب الفـتى ينفـي الفـواحش سمعـه ... كـأن بـه عـن كـل فاحشـة وقـرا
سـليم دواعـي الصـدر لا باسـط أذى ... ولا مـانع خـيراً ولا قائـل فجـرا

****

الحادية والخمسون: الجلوس في مكان الأخ إذا قام لحاجة

روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به) وروى ابن خزيمة وغيره من طريق ابن جريج قال: سمعت نافعاً يقول: (أن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: (لا يُقِمْ أحدكم أخاه من مجلسه ثم يخلفه فيه) فقلت له: في يوم الجمعة، قال: فيه وفي غيره).

قال النووي: "قال أصحابنا: هذا الحديث فيمن جلس في موضع من المسجد أو غيره لصلاة مثلاً، ثم فارقه؛ ليعود، بأن فارقه ليتوضأ، أو يقضي شغلاً يسيراً ثم يعود لم يبطل اختصاصه، بل إذا رجع فهو أحق به في تلك الصلاة، فإن كان قد قعد فيه غيره فله أن يقيمه، وعلى القاعد أن يفارقه لهذا الحديث.

هذا هو الصحيح عند أصحابنا، وأنه يجب على من قعد فيه مفارقته إذا رجع الأول.

وقال بعض العلماء: هذا مستحب، ولا يجب، وهو مذهب مالك، والصواب الأول.

قال أصحابنا: ولا فرق بين أن يقوم منه، ويترك سجادة ونحوها أم لا، فهذا أحق به في الحالين.

قال أصحابنا: وإنما يكون أحق به في تلك الصلاة وحدها دون غيرها والله أعلم"أ هـ.

قال ابن حجر: "وقال عياض: اختلف العلماء فيمن اعتاد بموضع من المسجد للتدريس والفتوى، فحكي عن مالك أنه أحق به إذا عُرِفَ به.

قال: والذي عليه الجمهور أن هذا استحسان وليس بحق واجب، ولعله مراد مالك.

وكـذا قـالوا في مقاعـد الباعـة مـن الأفنيـة والطـرق الـتي هـي غـير ممتلكـة، قـالوا: مـن اعتـاد بالجلوس في شيء منها فهو أحق به حتى يتمَّ غرضُه"أ هـ.

وقـال القـرطبي في المفهـم: "هـذا الحـديث يـدل علـى صـحة القـول بوجـوب اختصـاص الجـالس بموضـعه إلى أن يقـوم منـه ومـا احـتج بـه مـن حملـه علـى الأدب لكونـه لـيس ملكـا لـه لا قبـل ولا بعـد لـيس بحجـة لأنا نسـلم ملـك لـه لكـن يختص بـه إلى أن يخلـو غرضه فصار كأنه ملك منفعته فلا يزاحمه غيره عليه ".

مسألة:

هنــاك منكــر متعلــق بهــذا المفســد، إذا لم يجــد فرجــة في الصَّــف، أو مكــاناً فيــه، قــام بجـذب رجـل مـن الصّـف الأخـير، ليصّـف معـه، والأحاديـث الـواردة في ذلـك غـير صـحيحة، فبقـي هـذا العامـل تشـريعاً بـدون نـص صـريح، وهـذا لا يجـوز، بـل الواجـب أن ينضــمّ إلى الصــف إذا أمكــن، وإلا صــلّى وحــده، وصــلاته صــحيحة، لأنــه ﴿لاَ يُكَلِّـفُ اللهُ نَفْسًـا إلاَّ وُسْـعهاَ﴾ [البقـرة: 286]، وحـديث الأمـر بالإعـادة محمـول علـى إذا مــا قصــر في الواجــب، وهــو الانضــمام إلى الصّــفّ وســد الفــرج، وأمــا إذا لم يجــد فرجـة، فلـيس بمقصّـر، فـلا يعقـل أن يحكـم علـى صـلاته بالـبطلان في هـذه الحالـة، وهـو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

****

الثانية والخمسون : عدم الفسح له في المجالس

قلة التفسح في المجالس خلق ذميم، ومسلك شائن، فهو ناتج عن ضيق النفس، وحبٌ في الاستئثار، وقلة المبالاة في الآخرين.

بل إن بعضهم قد يُوسَّع له في المجلس، فيأتي ويتربع، فيأخذ مساحة واسعة في المجلس، بل ربما لا يرضى أن يأتي أحد بعد ذلك بجانبه.

قال بعض الحكماء: رجلان ظالمان يأخذان غير حقهما: رجل وُسِّعَ له في مجلس ضَيِّقٍ فَتَرَبَّعَ وتفتّح، ورجل أهديت له نصيحة فجعلها ذَنْباً.

ولهذا أدبنا الله عز وجل أن نتفسح في المجالس؛ لما في ذلك من زرع للمؤدة، وتوثيق لعرى الأخوة، وتخلص من الأخلاق الذميمة.

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: 11].

قال الشيخ السعدي رحمه الله في هذه الآية: "هذا أدب من الله لعباده إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم، أو بعض القادمين للتفسح له في المجلس فإن من الأدب أن يفسحوا له؛ تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للفاسح شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه.

والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح لأخيه فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه"أ هـ.

قال سيد قطب رحمه الله: "والغرض هو إيجاد الفسحة في النفس قبل إيجاد الفسحة في المكان. ومتى رحب القلب اتسع وتسامح، واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة، فأفسح لهم في المكان عن رضى وارتياح. فأما إذا رأى القائد أن هناك

اعتبارا من الاعتبارات يقتضي إخلاء المكان فالطاعة يجب أن ترعى عن طواعية نفس ورضى خاطر وطمأنينة بال. مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك، من عدم تخطي الرقاب أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه.

وإنما هي السماحة والنظام يقررهما الإسلام. والأدب الواجب في كل حال.

وعلى طريقة القرآن في استجاشة الشعور عند كل تكليف، فإنه يعد المفسحين في المجالس بفسحة من الله لهم وسعة ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾.. ويعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلونه عن طاعة لأمر الرسول برفعة في المقام ﴿وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾..

وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقي الأمر بالقيام.

وقد كانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول- ﷺ- لتلقي العلم في مجلسه. فالآية تعلمهم:

أن الإيمان الذي يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر، والعلم الذي يهذب القلب فيتسع ويطيع يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات. وفي هذا مقابل لرفعة المكان الذي تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول- ﷺ- ﴿وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.. فهو يجزي به عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون، وبما وراءه من شعور مكنون". أ هـ

قال عمر بن الخطاب: مما يُصَفِّي لك ودَّ أخيك أن تبدأه بالسلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه، وأن توسع له في المجلس.

وقال الأصمعي: كان الأحنف إذا أتاه إنسان وَسَّعَ له، فإن لم يجد موضعاً تحرك؛ ليريه أن يوسع له.

******

الثالثة والخمسون: الخطبة على خطبته

يقول النبي ﷺ: (المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر)، (رواه مسلم عن عقبة بن عامر).

لأن فعل هذا مما يوغر الصدر، ويسبب العداوة، ويذهب الأخوة.

قال الإمام النووي رحمه الله: "هذه الأحاديث ظاهرة في تحريم الخطبة على خطبة أخيه، وأجمعوا على تحريمها إذا كان قد صرح للخاطب بالإجابة، ولم يأذن ولم يترك، فلو خطب على خطبته وتزوج والحالة هذه عصى وصحّ النكاح، ولم يفسخ هذا مذهبنا ومذهب الجمهور".

قال الشوكاني في نيل الأوطار: "قوله: (لا يخطب الرجل على خطبة الرجل) ظاهره أنه لا يجوز للرجل أن يخطب على خطبة الفاسق ولا على خطبة الكافر، نحو أن يخطب ذمية فلا يجوز لمن يجوز نكاحها أن يخطبها، ولكنه يقيد هذا الإطلاق بقوله في حديث أبي هريرة: (لا يخطب الرجل على خطبة أخيه) فإنه لا أخوة بين المسلم والكافر، وبقوله في حديث عقبة: "المؤمن أخو المؤمن... إلخ". فإنه يخرج بذلك الفاسق، وإلى المنع من الخطبة على خطبة الكافر والفاسق ذهب الجمهور قالوا: والتعبير بالأخ خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له وذهب الأوزاعي وجماعة من الشافعية أنها تجوز الخطبة على خطبة الكافر وهو الظاهر". اهـ

قال أبو عيسى الترمذي بعد الحديث: "قال مالك بن أنس: إنما معنى كراهية أن يخطب الرجل على خطبة أخيه: إذا خطب الرجل المرأة فرضيت به فليس لأحد أن يخطب على خطبته، وقال الشافعي: معنى هذا الحديث لا يخطب الرجل على خطبة أخيه: هذا عندنا إذا خطب الرجل المرأة فرضيت به وركنت إليه فليس لأحد أن يخطب على خطبته، فأمّا قبل أن يعلم رضاها أو ركونها إليه فلا بأس أن يخطبها،

والحجة في ذلك حديث فاطمة بنت قيس حيث جاءت النبي ﷺ فذكرت له أن أبا جهم بن حذيفة ومعاوية بن أبي سفيان خطباها، فقال: أما أبو جهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء وأما معاوية فصعلوك لا مال له، ولكن انكحي أسامة، فمعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم: أنّ فاطمة لم تخبره برضاها بواحد منهما ولو أخبرته لم يشر عليها بغير الذي ذكرت".

قال ابن القيم في إعلام الموقعين: "الشَّارِعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ نَهَى أَنْ يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ أَوْ يَسْتَامَ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ أَوْ يَبِيعَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَمَا ذَاكَ إلَّا أَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إلَى التَّبَاغُضِ وَالتَّعَادِي؛ فَقِيَاسُ هَذَا أَنَّهُ لَا يَسْتَأْجِرُ عَلَى إجَارَتِهِ وَلَا يَخْطُبَ وِلَايَةً وَلَا مَنْصِبًا عَلَى خِطْبَتِهِ، وَمَا ذَاكَ إلَّا لِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ إلَى وُقُوعِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ ".

قال الشيخ مُحَمَّد المختار الشنقيطي: "وذكر بعض أهل العلم حِكَماً عظيمة في هذا التحريم، منها: أن مقصود الشرع أن يجتمع شمل المسلمين، وأن يتآلفوا وأن يتراحموا ويتعاطفوا، وهذا هو الذي يقصد من كثير من شرائع الإسلام، ولذلك من تأمل أحب الأعمال إلى الله وأزكاها عند الله عز وجل بعد الشهادتين وهي: الصلاة، وجدها صلاةً مع الجماعة، تنتظم التآلف والتعاطف والتكاتف وكأنهم كالجسد الواحد.

وهذا المقصود الشرعي من الاجتماع، وقد دعا إليه بالترغيب فيه والتأليف فيه، ونهى عن ضده، حتى حرم بيع المسلم على بيع أخيه؛ لأن بيعه على بيعه يقطع أواصر الأخوة، ويحدث الشحناء والبغضاء، وحرم بيع الغرر ونحو ذلك من البيوع التي وردت السنة بتحريمها، مما يُقْصَد منه دفع الشحناء والبغضاء بين المسلمين"أ هـ.

******

الرابعة والخمسون: البيع على بيعه

فِي أَبِي هُرَيْـرَةَ أَنَّ النَّـبِيَّ ﷺ قَـالَ: (لَا يَخْطُـبُ الرَّجُـلُ عَلَـى خِطْبَـةِ أَخِيـهِ، وَلَا يَسُـومُ عَلَـى سَـوْمِهِ) وَفِي لَفْـظٍ: (لَا يَبِـعْ الرَّجُـلُ عَلَـى بَيْـعِ أَخِيـهِ، وَلَا يَخْطُـبْ عَلَـى خِطْبَـةِ أَخِيـهِ)، (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

لا تبيـع علـى بيعـه، حـتى يشـتري أو يتراجـع عـن الشـراء. وكثـيرا مـا تسـبب الوقـوع في مثل ذلك في تغير النفوس، وحلول العداوة والبغضاء محل المحبة والمودة.

قـال العراقـي في طـرح التثريـب: "فِيـهِ تَحْـرِيمُ الْبَيْـعِ عَلَـى بَيْـعِ أَخِيـهِ وَهُـوَ أَنْ يَقُـولَ لِمَـنْ اشْـتَرَى سِـلْعَةً فِي زَمَـنِ خِيَـارِ الْمَجْلِـسِ أَوْ الشَّـرْطِ افْسَـخْ لِأَبِيعَـك خَيْـرًا مِنْـهُ أَوْ أَرْخَـصَ وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ.

وَفِي مَعْنَـاهُ الشِّـرَاءُ عَلَـى شِـرَاءِ أَخِيـهِ وَهُـوَ أَنْ يَقُـولَ لِلْبَـائِعِ فِي زَمَـنِ الْخِيَـارِ افْسَـخْ لِأَشْـتَرِيَ مِنْـك بِأَكْثَـرَ وَهُـوَ مُجْمَعٌ عَلَـى مَنْعِـهِ أَيْضًـا، وَذَهَـبَ ابْـنُ حَبِيـبٍ مِـنْ الْمَالِكِيَّـةِ وَأَبُـو عُبَيْـدَةَ مَعْمَـرُ بْـنُ الْمُثَـنَّى وَأَبُـو عُبَيْـدِ الْقَاسِـمُ بْـنُ سَـلَّامٍ وَأَبُـو زَيْـدٍ الْأَنْصَـارِيُّ إلَى حَمْـلِ الْبَيْـعِ عَلَـى بَيْـعِ أَخِيـهِ، وَالشِّـرَاءُ عَلَـى شِـرَاءِ أَخِيـهِ؛ لِأَنَّ الْعَـرَبَ تَقُـولُ بِعْـت بِمَعْـنَى اشْـتَرَيْت قَـالُوا؛ لِأَنَّـهُ لَا يَبِيـعُ أَحَـدٌ عَلَـى بَيْـعِ أَحَـدٍ فِي الْعَـادَةِ وَمَـا أَدْرِي أَيُّ مُوجِـبٍ لِصَـرْفِ اللَّفْـظِ عَـنْ ظَـاهِرِهِ وَالِاسْـتِعْمَالُ الَّـذِي ذَكَـرُوهُ فِي تَسْـمِيَةِ الشِّـرَاءِ بَيْعًـا، وَإِنْ كَـانَ صَـحِيحًا وَلَكِـنْ عَكْسُهُ أَشْهَرُ مِنْهُ.

وَقَـدْ رَدَّ ذَلِـكَ ابْـنُ عَبْـدِ الْبَـرِّ وَكَـوْنُ الْبَيْـعِ عَلَـى الْبَيْـعِ لَا يَغْلِـبُ وُقُوعُـهُ مَـرْدُودٌ وَبِتَقْـدِيرِ ذَلِكَ فَهَذَا لَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُنْهَى عَنْهُ...

وَالسَّـوْمُ عَلَـى السَّـوْمِ هُـوَ أَنْ يَأْخُـذَ شَـيْئًا لِيَشْـتَرِيَ بِـهِ فَيَجِـيءَ إلَيْـهِ غَيْـرُهُ وَيَقُـولَ رُدَّهُ حَـتَّى أَبِيعَـك خَيْـرًا مِنْـهُ بِهَـذَا الـثَّمَنِ أَوْ يَقُـولَ لِمَالِكِـهِ اسْـتَرَدَّهُ لِأَشْـتَرِيَهُ مِنْـك بِأَكْثَـرَ مِـنْ هَـذَا الـثَّمَنِ وَحَمَـلَ مَالِـكٌ – رَحِمَـهُ اللَّهُ – النَّهْـيَ عَـنْ الْبَيْـعِ عَلَـى بَيْـعِ أَخِيـهِ عَلَـى السَّـوْمِ وَقَـدْ

ظَهَـرَ بِـذَلِكَ فِي تَفْسِـيرِ الْبَيْـعِ عَلَـى بَيْـعِ أَخِيـهِ ثَلَاثَـةُ أَقْـوَالٍ وَالسَّـوْمُ عَلَـى السَّـوْمِ مُتَّفَـقٌ عَلَـى مَنْعِـهِ إِذَا كَـانَ بَعْـدَ اسْـتِقْرَارِ الـثَّمَنِ وَرُكُـونِ أَحَـدِهِمَا إِلَى الْآخَـرِ، وَإِنَّمَـا يَحْـرُمُ ذَلِـكَ إِذَا حَصَلَ التَّرَاضِـي صَـرِيحًا فَـإِنْ لَمْ يُصَـرِّحْ وَلَكِـنْ جَـرَى مَـا يَـدُلُّ عَلَـى الرِّضَـى فَفِـي التَّحْـرِيمِ وَجْهَــانِ أَصَــحُّهُمَا لَا يَحْـرُمُ فَــإِنْ لَمْ يَجْـرِ شَـيْءٌ بَـلْ سَـكَتَ فَالْمَـذْهَبُ الَّـذِي عَلَيْـهِ الْأَكْثَرُونَ أَنَّهُ لَا يَحْرُمُ كَمَا لَوْ صَرَّحَ بِالرَّدِّ وَقِيلَ هُوَ عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْمُتَقَدِّمِينَ.

وَأَمَّا السَّوْمُ فِي السِّلْعَةِ الَّتِي تُبَاعُ فِيمَنْ يَزِيدُ فَلَيْسَ بِحَرَامٍ.

وَقَـالَ مَالِـكٌ وَالشَّـافِعِيُّ وَالْجُمْهُـورُ بِجَـوَازِ الْبَيْـعِ وَالشِّـرَاءِ فِـيمَنْ يَزِيـدُ وَكَرِهَـهُ بَعْـضُ السَّـلَفِ وَنَقَـلَ ابْـنُ عَبْـدِ الْبَـرِّ الْإِجْمَـاعَ عَلَى الْجَوَازِ وَنَقَـلَ ابْـنُ حَـزْمٍ اشْـتِرَاطَ الرُّكُـونِ فِي ذَلِـكَ عَـنْ مَالِكٍ ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا تَفْسِيرٌ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْحَدِيثِ.

(الثَّامِنَـةَ عَشْـرَةَ) قَـالَ الْقَاضِـي ابْـنُ كَـجٍّ مِـنْ الشَّـافِعِيَّةِ شَـرْطُ تَحْـرِيمِ الْبَيْـعِ عَلَـى بَيْـعِ أَخِيـهِ أَنْ لَا يَكُـونَ الْمُشْـتَرِي مَغْبُـونًا غَبْنًـا مُفْرِطًـا فَـإِنْ كَـانَ فَلَـهُ أَنْ يُعَرِّفَـهُ وَيَبِيـعَ عَلَـى بَيْعِـهِ؛ لِأَنَّهُ ضَرْبٌ مِنْ النَّصِيحَةِ.

وَقَـالَ النَّـوَوِيُّ: هَـذَا الشَّـرْطُ انْفَـرَدَ بِـهِ ابْـنُ كَـجٍّ وَهُـوَ خِـلَافُ ظَـاهِرِ إِطْـلَاقِ الْحَـدِيثِ وَالْمُخْتَارُ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَرْطٍ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ.

وَوَافَقَهُ ابْنُ حَزْمٍ الظَّاهِرِيُّ

فَقَـالَ: وَأَمَّـا مَـنْ رَأَى الْمُسَـاوِمَ أَوْ الْبَـائِعَ لَا يُرِيـدُ الرُّجُـوعَ إِلَى الْقِيمَـةِ لَكِـنْ يُرِيـدُ غَـبْنَ صَـاحِبِهِ بِغَيْرِ عِلْمِـهِ فَهَـذَا فَـرْضٌ عَلَيْهِ نَصِيحَةَ الْمُسْلِمِ فَقَـدْ خَـرَجَ عَـنْ هَـذَا النَّهْـيِ بِقَـوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ (الدِّينُ النَّصِيحَةُ).

(التَّاسِـعَةَ عَشْـرَةَ) مَحَـلُّ التَّحْـرِيمِ مَـا لَمْ يَأْذَنْ الْبَـائِعُ فِي الْبَيْـعِ عَلَـى بَيْعِـهِ فَـإِنْ أَذِنَ فِي ذَلِـكَ ارْتَفَـعَ التَّحْـرِيمُ عَلَـى الصَّـحِيحِ عِنْـدَ أَصْـحَابِنَا وَقَـدْ وَرَدَ التَّصْـرِيحُ بِـذَلِكَ فِي قَوْلِـهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ ". أ. هـ

أن قوله ﷺ: (ولا يبع بعضكم على بيع بعض) أي المسلمين خَرَجَ مَخْرجَ الغَالِب فلا مفهوم له، وإلا فالصحيح أن الكافر المعصوم كالذمي والمعاهد والمستأمِن لا يجوز أن تبيع عل بيعه، ولا أن تشتري على شراءه ولا أن تسوم على سومه قال ابن عبد البر: "أجمع الفقهاء على أنه لا يجوز دخول المسلم على الذمي في سومه إلا الأوزاعي وحده فإنه قال لا بأس به".

****

الخامسة والخمسون: إقامة الرجل من مجلسه والجلوس مكانه

لا يليق بالرجل أن يقيم أحداً من مجلسه ثم يجلس فيه؛ لما في ذلك من الكبر والتعالي، والإزراء بالآخرين.

ولهذا مُنع الرجل أن يقيم أخاه من مجلسه، ليجلس فيه، حرصاً على علاقة المسلمين ببعض أن تشوبها شائبة.

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا)، (متفق عليه).

وفي رواية قال (وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه).

قال الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة: "وفي الحديث تنبيه على آداب المجالس في عهد النبي ﷺ طالما أهمله الناس اليوم حتى أهل العلم، وهو أن الرجل إذا دخل المجلس، يجلس فيه حيث ينتهي به المجلس، ولو عند عتبة الباب، فإذا وجد مثله، فعليه أن يجلس فيه ولا يترقب أن يقوم له بعض أهل المجلس من مجلسه، كما يفعل بعض المتكبرين من الرؤساء، والمتعجرفين من المتمشيخين، فإن هذا منهي عنه صراحة"أ هـ.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح هذا الحديث: "قال: يعني ابن أبي جمرة: والحكمة من هذا النهي منع استنقاص حق المسلم المقتضي للضغائن، والحث على التواضع المقتضي للمودة، وأيضاً فالناس في المباح كلهم سواء، فمن سبق إلى شيء استحقه، ومن استحق شيئاً فأُخِذ منه بغير حق فهو غصب، والغصب حرام، فعلى هذا يكون بعض ذلك على سبيل الكراهة، وبعضه على سبيل التحريم ".

قال القرطبي في المفهم: "نهيه ﷺ عن أن يقام الرجل من مجلسه إنما كان ذلك لأجل أن السابق لمجلس قد اختص به إلى أن يقوم باختياره عند فراغ غرضه، فكأنه قد ملك منفعة ما اختص به من ذلك، فلا يجوز أن يحال بينه وبين ما يملكه".

****

السادسة والخمسون: المماطلة في قضاء الدين

من ترتب في ذمته دين حال، وكان موسرا قادرا على الوفاء، ولا عذر له في عدم الوفاء، وقد طلب الدائن دينه، فإنه يجب عليه الوفاء فورا بعد الطلب.

فإن لم يوف ما عليه من دين فإنه يعتبر مماطلا، وهو ظالم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – قَالَ: (مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ). (متفق عليه).

قال الإمام النووي رحمه الله: "قوله ﷺ: (مطل الغني ظلم) قال القاضي وغيره: المطل منع قضاء ما استحق أداؤه فمطل الغني ظلم وحرام".

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "ويدخل في المطل كل من لزمه حق، كالزوج لزوجته والسيد لعبده، والحاكم لرعيته، وبالعكس".

ويستحق العقوبة لظلمه، لقول النبي ﷺ: (لي الواجد يحل عرضه وعقوبته). وهذا باتفاق.

سواء أكان ذلك ببيع ماله أو حبسه أو ضربه أو غير ذلك من الوسائل.

والفقهاء متفقون كذلك على وجوب اتخاذ الوسائل التي تحمل المدين الموسر على الوفاء.

والتساهل في الاستدانة يقود إلى المماطلة في التسديد أو يؤدي إلى إضاعة أموال الآخرين وإتلافها، وقد قال النبي ﷺ محذرا من عاقبة هذا العمل: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله)، (رواه البخاري).

والناس يتساهلون في أمر الدين كثيرا ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، بل إن الشهيد مع ماله من المزايا العظيمة والأجر الجزيل والمرتبة العالية لا يسلم من تبعة

الدين ودليل ذلك قوله ﷺ: (سبحان الله ماذا أنزل الله من التشديد في الدين والذي نفسي بيده لو أن رجلا قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه دينه)، (رواه النسائي وصححه الألباني).

لا يجوز للمسلم إذا كان عليه دين أن يماطل في السداد إذا حل الأجل، ولهذا قال بعض العلماء: إنه إذا ماطل في السداد ولو مرة واحدة وهو قادر فإنه يعتبر فاسقاً؛ لأنها كبيرة، ويوصف بكونه فاسقاً وتسقط عدالته وترد شهادته.

وقال بعض العلماء: إنه يشترط في الحكم بسقوط العدالة أن يتكرر مطله، فلا يكون مرتكباً للكبيرة في المرة الواحدة، بل لابد وأن يتكرر منه الامتناع والمماطلة.

حث النبي ﷺ على الدعاء للدائن ففي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ﷺ قَالَ: اسْتَقْرَضَ مِنِّي النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعِينَ أَلْفًا فَجَاءَهُ مَالٌ فَدَفَعَهُ إِلَيَّ وَقَالَ: (بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْحَمْدُ وَالأَدَاءُ)، (رواه النسائي وصححه الألباني).

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ -: (إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللهِ الْمُوَفُّونَ الْمُطَيِّبُونَ)، (رواه أحمد وصححه الألباني).

وأَتَى النَّبِيَّ ﷺ رجلٌ يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ: (دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً). ثُمَّ قَالَ: (أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ فَقَالَ: (أَعْطُوهُ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً). (متفق عليه).

****

السابعة والخمسون: التفريق بين اثنين جالسين دون إذنهما

هـذا العمـل ممـا يشـعر بقلـة الأدب، وقلـةِ المراعـاة لمشـاعر الآخـرين، فقـد يقطـع حـديثاً كـان متصـلاً بـين اثنـين، وقـد يحـرم صـاحباً مـن محادثـة صـاحبه، وقـد يثقـل علـى المتجالسين بجلوسه بينهما ونحو ذلك.

فهـذا كلـه ممـا يولـد الكراهيـة والمعـاداة، ولأجـل ذلـك نُهـي عـن هـذا العمـل؛ حفاظـاً علـى استبقاء روح المودة بين المسلمين.

فعـن عمـرو بـن شـعيب عـن أبيـه عـن عبـد الله بـن عمـرو أن رسـول الله ﷺ قـال: (لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما)، (رواه أبو داود والترمذي).

قـال ابـن عبـد الـبر رحمـه الله: لا يجـوز لأحـد أن يـدخل علـى المتنـاجيين في حـال تناجيهما.

وهـذا يعـم عـدم الـدخول بينهمـا حـتى ولـو تباعـد عنهمـا، حـتى لـو جلـس بعيـداً عنهمـا إلا بإذنهمـا، إذا قـال: عـن إذنكـم أنا أدخـل وأجلـس في المجلـس وهمـا يتكلمـان، فـأذنا لـه فـيجلس بعيـداً عنهمـا؛ لأنهمـا لمـا افتتحـا حـديثهما سـراً ولـيس عنـدهما أحـد دل علـى أن مرادهمـا ألا يطلـع أحـد علـى كلامهمـا، ويتأكـد ذلـك إذا كـان صـوت أحـدهما جهـورياً لا يتـأتى لـه إخفـاء كلامـه ممـن حضـره، بعـض النـاس طبيعـة صـوته أنـه مرتفـع، فقـد لا يسـتطيع أن يهمـس همسـاً ويسـر إسـراراً فلـذلك نهـي عـن الـدخول بـين المتنـاجيين، وقـد يكـون لـبعض النـاس قـوة فهـم، بحيـث إذا سمـع بعـض أطـراف الكـلام استنتج فحوى الكلام كله، ولذلك لا يجوز الدخول على المتناجيين.

ويقـول عليـه الصـلاة والسـلام في تأكيـد المنـع في هـذه المسـألة: (ومـن اسـتمع إلى حـديث قـوم وهـم لـه كـارهون؛ صـب في أذنـه الآنـك) والآنـك: هـو الرصـاص المـذاب مـن شـدة الحـرارة، يـوم القيامـة يصـب في أذنـه الآنـك وهـو الرصـاص المـذاب؛ لأنـه قـد

دخل في حديث رجلين يستسران بينهما بغير إذنهما، وهذا يبين خطورة التجسس والتنصت على أسرار المسلمين.

وفي حديث جابر بن سمرة (كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلسنا حيث ينتهي بنا المجلس) سنده حسن، رواه أبو داود والترمذي.

****

الثامنة والخمسون: ترويع المسلم أخاه

في حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: (قال لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار). (رواه البخاري ومسلم).

(ينزع): معناه بالمهملة يرمي وبالمعجمة يرمي ويفسد، وأصل النزع: الطعن.

وفيه النهي عن رفع السلاح بوجه المسلم سواء كان على سبيل الهزل أو الجد، لأن ترويع المسلم وتخويفه حرام، ولعن الملائكة لفاعل ذلك دليل على عظم التحريم.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: (من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينزع وإن كان أخاه لأبيه وأمه). (متفق عليه).

قال النووي في شرح مسلم: (فِيهِ تَأْكِيد حُرْمَة الْمُسْلِم، وَالنَّهْي الشَّدِيد عَنْ تَرْوِيعه وَتَخْوِيفه وَالتَّعَرُّض لَهُ بِمَا قَدْ يُؤْذِيه). وَقَوْله ﷺ: (وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمّه) مُبَالَغَة فِي إِيضَاح عُمُوم النَّهْي فِي كُلّ أَحَد، سَوَاء مَنْ يُتَّهَم فِيهِ، وَمَنْ لَا يُتَّهَم، وَسَوَاء كَانَ هَذَا هَزْلًا وَلَعِبًا، أَمْ لَا؛ لِأَنَّ تَرْوِيع الْمُسْلِم حَرَام بِكُلِّ حَال، وَلِأَنَّهُ قَدْ يَسْبِقهُ السِّلَاح كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى، وَلَعْن الْمَلَائِكَة لَهُ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ حَرَام".

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسيرٍ، فخفق رجلٌ على راحلته، فأخذ رجل بسهماً من كنانته، فانتبه الرجل ففزع، فقال رسول الله ﷺ: "لا يحل لرجل أن يروّع مسلماً". (رواه أبو داود وصححه الألباني)

خفق الرجل: إذا نعس، وقال الجوهري: "خفق الرجل": إذا حرك رأسه وهو ناعس.

عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ خالد بن الوليد ﷺ القائد العام للجيوش الإسلامية في بلاد الشام، وعين مكانه أبا عبيدة ﷺ الذي أخفى خبر تعيينه، أخر

إظهاره وإشهاره، حتى علم خالد ﷺ من غيره، فقال عندئذ لأبي عبيدة: يرحمك الله ما دعاك إلى ألا تعلمني؟!

فأجابه قائلاً: كرهت إن أروعك!!

ولقد سبب التفريط بالأخذ بهذه الأحاديث كثيرا من المشاكل وأودى بكثير من الأرواح، وكثيرا ما يظن المرء أن سلاحه ليس فيه رصاص فيشير إلى أخيه ويضغط على الزناد فيقتل أخاه فيندم ولات ساعة مندم، وكم من أخ قتل أخاه بهذه الطريقة.

كذلك من الترويع المذموم ما يسمى اليوم بالمقالب ربما أحيانا توصل الى الفشل الكلوي أو الذبحة الصدرية أو الخوف المزمن باسم المقالب.

فقد روى الشيخان عن النبي ﷺ قال: (إذا مر أحدكم في مسجدنا وسوقنا بنبل فليمسك على نصالها لا يصيب أحدا من المسلمين بأذى).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: (مَنِ اتَّخَذَ كَلْبًا -إِلاَّ كَلْبَ مَاشِيَةٍ، أَوْ صَيْدٍ، أَوْ زَرْعٍ- انْتُقِصَ مِنْ أَجْرِهِ كلَّ يَوْمٍ قِيراطٌ)، (مُتَّفَقٌ عَلَيْه).

قال العلماء: حكمة التحريم في بقاء الكلب في البيت واقتنائه، هو ما يسبب من ترويع النَّاس، وامتناع دخول الملائكة في بيتٍ فيه كلب، وما فيه من النجاسة والقذارة.

****

التاسعة والخمسون: الحديث عن النفس على سبيل المفاخرة

ينظر غيرها.

****

الستون: تحجيم الأخطاء

قد يقع الإنسان في خطأ عن اجتهاد أو هوى فنضخم الخطأ، ونعطيه أكبر من حجمه، ومنطق الحق والاعتدال أن نضع الخطأ في إطاره الطبيعي وحجمه المعقول، وقل مثل ذلك مثلاً في أسلوب الإنسان مع نفسه حين يضخم الأخطاء التي يقع فيها ويعطيها أكبر من حجمها فيتولد عنده شعور بأنه فاشل، وأنه غير مؤهل للنجاح، فيجب أن نضع الخطأ في إطاره الطبيعي ولا نضخمه.

لا تُهول الأمور وتعطها أكبر من حجمها تجعل من الحبة قبة، ومن البعرة بعيرا، ومن البحر عسلا وطحينة كما يقولون ومن القردة وردة، ومن المبتدئ إماما وعالما جليلا. ومن الهفوة خطيئة لا تغفر، ومن النملة فيلاً ومن النقطة بحراً ومن الشرارة ناراً عظيمة.

وبعض الناس يجعل من الحبة قبة، ويرى القذى في إناء أخيه ولا يبصر الجذع في إنائه.

ينسى من المعروف طودًا شامخًا ... وليس ينسى ذرة ممن أساء

قال أحمد أمين: "هناك رجلٌ ينغِّصُ على نفسِه وعلى مَنْ حوله، مِن كلمةٍ يسمعُها أو يؤوِّلها تأويلاً سيِّئاً، أو مِنْ عملٍ تافِهٍ حدثَ له، أو حدثَ منه، أو من رِبْحٍ خسِرهُ، أو منْ رِبْحٍ كان ينتظرُه فلم يحدثُ، أو نحو ذلك، فإذا الدنيا كلُّها سوداءُ في نظرِه، ثم هو يسوِّدُها على منْ حوله. هؤلاء عندهمْ قدرةٌ على المبالغةِ في الشرِّ، فيجعلون من الحبَّةِ قُبَّةً، ومن البذرةِ شجرةً، وليس عندهمْ قدرةٌ على الخيرِ، فلا يفرحون بما أُوتوا ولو كثيراً، ولا ينعمون بما نالوا ولو عظيماً" أ هـ.

فلماذا نعذب نحن أنفسنا، ليس شرطاً أن يكون كل ما يقع حولك مرضياً لك 100%.

وإن تجد عيباً فسدَّ الخللا ... جل من لا عيب فيه وعلا

****

الحادية والستون: العجلة والتسرع

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بعدم الاستعجال وترك العجلة في تلاوة القرآن حيث قال سبحانه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 16-19].

كَانَ الرَّسُولُ ﷺ، حِينَمَا يَتَلَقَّى الوَحْيَ، حَرِيصاً عَلَى حِفْظِهِ، فَكَانَ يُسَابِقُ الوَحْيَ فِي قِرَاءَةِ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ لِيَحْفَظَهُ، وَلاَ يُضَيِّعَ مِنْهُ شَيئاً، فَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَةِ بِأَنْ يَسْتَمِعَ إِلَى الوَحْي إِذَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَقَدْ ضَمِنَ اللهُ لِرَسُولِهِ الكَرِيمِ ﷺ بِأَنْ يُيَسِّرَ لَهُ حِفْظَهُ وَأَدَاءَهُ، وَأَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُ وَيُفَسِّرَهُ.

إِنَّ اللهَ تَكَفَّلَ لَكَ بِجَمْعِ القُرْآنِ وَتَثْبِيتِهِ فِي صَدْرِكَ.

فَإِذَا قَرَأَهُ عَلَيْكَ المَلَكُ فَاسْتَمِعْ لَهُ، وَتَابِعْهُ فِي قِرَاءَتِهِ، ثُمَّ اقْرَأْهُ أَنْتَ كَمَا قَرَأَهُ عَلَيْكَ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى تَكَفَّلَ لَكَ بِبَيَانِ القُرْآنِ، وَتَوْضِيحِهِ لَكَ.

ووصف الله الإنسان بأنه عجول، وبأنه خلق من عجل فقال سبحانه ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11].

قال تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ [النساء: 83].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسير هذه الآية: "فيه نهيٌ عن العجلة والتسرّع لنشر الأمور من حين سماعها، وفيه الأمر بالتأمّل قبل الكلام، والنظر فيه هل هو مصلحة فيُقدم عليه أم لا فيُحجم" أ هـ.

الشيطان يورث العجلة فعَنْ أَنَسٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ، قَالَ: (التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَمَا شَيْءٌ أَكْثَرُ مَعَاذِيرَ مِنَ اللهِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْحَمْدِ).

ومعلوم أن الأناة يحبها الله سبحانه، ولهذا قال ﷺ لأشجِّ عبد القيس: (إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ).

قال الشّاعر:

لا تعجلنّ فربّما ... عجل الفتى فيما يضرّه
ولربّما كره الفتى ... أمرا عواقبه تسرّه

وقال محمّد بن عيسى بن طلحة بن عبيد الله:

فلا تعجل على أحد بظلم ... فإن الظّلم مرتعه وخيم
ولا تفحش وإن ملّيت غيظا ... على أحد فإنّ الفحش لوم
ولا تقطع أخا لك عند ذنب ... وإنّ الذّنب يغفره الكريم
ولكن دار عوراه برفق ... كما قد يرقع الخلق القديم
ولا تجزع لريب الدّهر واصبر ... فإنّ الصّبر في العقبى سليم
فما جزع بمغن عنك شيئا ... ولا ما فات ترجعه الهموم

قال أبو حاتم ابن حبان رحمه الله تعالى: "إنّ العجلة من شيم الأحمق، وإنّه ليتكلّم في السّاعة بكلام يعجز عنه غيره، ويتكلّم في السّاعة الأخرى بكلام مثله".

وكان يقال لا يوجد العجول محمودا ولا الغضوب مسرورا ولا الشره غنيا.

وإذا كانت العجلة مذمومة في حق الإنسان، ففي حق المجاهد أشدَّ ذماً، إذْ إن المجاهد مأمور بالتثبت والأناة، ولأن في العجلة الندامة والخطأ، ولذا كان النبي صلى

الله عليه وسلم أعظم أناةً، وأشدّ تثبتاً، وأبعد عن العجلة والتسرّع، حتى في فرائض الله، فكان ﷺ وهو في الجهاد لا يقاتل أحداً من الكفار إلا بعد التأكد بأنهم لا يقيمون شعائر الإسلام فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النبي ﷺ (كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ..)، (متفق عليه).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، قال فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، قال: فكف عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ، قال: فقال لي: (يا أبا أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذا، قال: فقال: (أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم).

وفي رواية قال أسامة: قلت يا رسول الله: إنما قالها خوفا من السلاح، قال: (أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا)، فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.

وفي رواية: (كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟) قال: يا رسول الله: استغفر لي، قال: (وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟)، قال: فجعل لا يزيده على أن يقول: (كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة).

وقد كانت العربُ في القديم تكنّي العجلة أم الندامات.

******

الثانية والستون: سرعة الغضب

سرعة الغَضَب آفة خطيرة يفقد المرء فيها السيطرة على نفسه، وربما اعتدى على غيره بلسانه أو بيده، فيندم بعد ذلك، ويعتذر لما بدر منه تجاه غيره، وكان في غنى عن ذلك بتحكمه في انفعال الغضب.

الغضب عدو العقل، وهو له كالذئب للشاة قلَّما يتمكن منه إلا اغتاله.

لا تغضب فإن الغضب يفسد المزاج، ويغير الخلق، ويسيء العشرة، ويفسد المودة، ويقطع الصلة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِي ﷺ أوصني، فقَالَ: (لاَ تَغْضَبْ). فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: (لاَ تَغْضَبْ)، (متفق عليه).

قال الخطابي: معنى قوله "لا تغضب" اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه.

وقال ابن بطَّال رحمه الله: "في الحديث أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو لأنه ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوة، ولعل السائل كان غضوباً، وكان النبي ﷺ يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب، فللغضب مفاسد كبيرة ومن عرف هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ" لا تغضب "من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفاسد" أ هـ.

وقال ابن التِّين: "جمع ﷺ قوله لا تغضب خير الدنيا والآخرة، لأن الغضب يؤول إلى التقاطع ومنع الرفق" أ هـ.

قال الشيخ سليمان بن ناصر العلوان: "الغضب يمنع العدل في القول والعمل.

فيه أن عدم الغضب دليل على وفور العقل وكماله" أ هـ.

قَالَ عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النبي ﷺ قَالَ اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النبي ﷺ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النبي ﷺ: (إِنِي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِى يَجِدُ). فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النبي – ﷺ – وَقَالَ: (تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ). فَقَالَ أَتُرَى بِي بَأْسٌ أَمَجْنُونٌ أَنَا اذْهَبْ. (متفق عليه).

قال الإمام النووي رحمه الله معلقاً على هذا الحديث: "لهذا يخرج به الغضب الإنسان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض، وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب وما ينشأ عنه" أ هـ.

وقال جعفر بن مُحَّد: الغضب مفتاح كل شر.

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا الخلق في كلمة، قال: "ترك الغضب"

قال الإمام أحمد رحمه الله: "حسن الخلق: أن لا تغضب ولا تحقد".

قال الماوردي: "فينبغي لذي اللب السوي، والحزم القوي أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها، ويقابل دواعي شِرَّته بحزمه فيردها; ليحظى بأجل الخيرة، ويسعد بحميد العاقبة".

يقول ابن قدامة المقدسي: "متى قويت نار الغضب والتهبت، أعمت أصحابها، وأصمته من كل موعظة، لأن الغضب يرتفع للدماغ، فيغطي على معادن الفكر، وربما تعدى إلى معادن الحس، فتظلم عينيه حتى لا يرى بعينيه".

قال النبي ـ ﷺ ـ: (وما من جرعة أحب إليَّ من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً).

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله).

قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى–: "ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حِلْم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة؛ وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم، وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم، والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب، وإن كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن، ولهذا يحمرُّ الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة، ويصفرُّ عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز" ا. هـ

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: "وهكذا الغضبان فإنه إذا اشتد به الغضب يألم بحمله فيقول ما يقول، ويفعل ما يفعل؛ ليدفع عن نفسه حرارة الغضب فيستريح بذلك، وكذلك يلطم وجهه، ويصيح صياحاً قوياً، ويشق ثيابه، ويلقي ما في يده؛ دفعاً لألم الغضب، وإلقاء لحمه منه، وكذلك يدعو على نفسه وأحب الناس إليه؛ فهو يتكلم بصيغة الطلب والاستدعاء والدعاء، وهو غير طالب لذلك في الحقيقة؛ فكذلك يتكلم بصيغة الإنشاء وهو غير قاصد لمعناها، ولهذا يأمر الملوك وغيرهم عند الغضب بأمور يعلم خواصهم أنهم تكلموا بها دفعاً لحرارة الغضب وأنهم لا يريدون مقتضاها فلا يمتثله خواصهم، بل يؤخرونه فيحمدونهم على ذلك إذا سكن غضبهم، وكذلك الرجل وقت شدة الغضب يقوم ليبطش بولده أو صديقه، فيحول غيره بينه وبين ذلك فيحمدهم بعد ذلك كما يحمد السكران والمحموم ونحوهما من يحول بينه وبين ما يهم بفعله في تلك الحالة" ا. هـ.

وللغضب الذي هو انتصار للنفس، وهيجان من أجلها أسباب كثيرة منها: العجب والافتخار، والزهو، والمراء، والجدال، والاستهزاء بالآخرين، وفي جميعها تبدو شهوة الانتقام، ومن لواحقه الندامة وتوقع العقاب عاجلا أو آجلا، وربما كان سببا لأمراض صعبة، فضلا عن أنه يمنع من التفكير، أو المنطق الصائب.

يقول جعفر لابنه: يا بني من غضب من إخوانك عليك ثلاث مرات، فلم يقل فيك سوءاً، فاتخذه لنفسك خلاً.

قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: "متى رأيت صاحبك قد غضب، وأخذ يتكلم بما لا يصلح فلا ينبغي أن تعقد على ما يقول خِنصراً – أي لا تأخذ ما يقول بعين الاعتبار – ولا أن تؤاخذه به؛ فإن حاله حال السكران، لا يدري ما يجري. بل اصبر لفورته، ولا تعول عليها؛ فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر".

****

الثالثة والستون: والتّكلّف والكلفة

قال بعض الحكماء: من سقطت كلفته دامت ألفته.

فحري بمن يريد لأخيه الخير وتدوم الألفة أن يريحونا من عناء "التكلف" في كل شيء.. الزيارات السفريات المأوى الشعاب وأن يقدم كل واحد منا ما يستطيعه، ولو الكلمة الجميلة فقط، وقد قيل لأحدهم: من نصحب؟! فقال: "من يرفع عنك ثقل التكلف".

عن سلمان ﵁ أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلف للضيف، (رواه البخاري).

وروى الترمذي وأبو داود الطيالسي وأحمد بسند صحيح عن جابر بن سمرة ﵁ قال: جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أصحابه ﷺ يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ﷺ، فربما تبسم معهم.

وروى البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح: (كان أصحابه ﷺ يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال).

قال جعفر بن مُحَمَّد: أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.

وقد جعل أمير المؤمنين علي ﵁ المتكلف من الأشرار، فقال: "شر الأصدقاء من تكلف لك".

قال الفضيل: "إنما تقاطع الناس بالتكلف، يزور أحدهما أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه، وقالوا: من سقطت كلفته دامت ألفته ومن خفت مؤنته دامت مودته".

وعن شقيق بن سلمة قال: "دخلت أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي فقال سلمان: لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلف لتكلفت لكم ثم جاء بخبز وملح، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا عنقز فبعث سلمان بمطهرته فرهنها ثم جاء بعنقز،

فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة". (رواه الطبراني وصححه الألباني).

ودخل مالك بن دينار ومُحَمَّد بن واسع منزل الحسن وكان غائبًا، فأخرج مُحَمَّد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل، فقال له مالك: كُفْ يدك حتى يجيء صاحب البيت، فلم يلتفت مُحَمَّد إلى قوله وأقبل على الأكل، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقًا، فدخل الحسن وقال: هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضًا حتى ظهرت أنت وأصحابك، وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة، كيف وقد قال تعالى ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وقال ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض له التصرف كما يريد.

وقال هشام بن عبد الملك: "أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لواحد منهما طعماً، وشممت الطيب حتى ما أجد له رائحة، وأتيت النساء حتى ما أبالي امرأة أتيت أم حائطاً، ما وجدت شيئاً ألذ إلي من جليس تسقط بيني وبينه مؤونة التحفظ".

قال الشافعي رحمه الله:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا ... فدعه ولا تُكثر عليه التأسفا
ففي النفس أبدال وفي الترك راحة ... وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ... ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة ... فلا خير في ودّ يجيء تكلفا
ولا خير في خلّ يخون خليله ... ويلقاه من بعد المودّة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده ... ويظهر سرا كان بالأمس قد خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق صادق الوعد مُنصفا

****

الرابعة والستون: التعصب المذموم

بعض الناس إذا أحب شخصًا تولع به، فلا يكاد يبصر إلا رأيه أو اجتهاداته، ولو كانت خاطئة.

وهذا المنهج غير صحيح؛ لأن المعصوم هو محمد ﷺ، وكل واحد منا يرد من قوله ويؤخذ إلا محمدًا ﷺ.

والكتب كلها يقع فيها اختلاف إلا القرآن الكريم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

وبعض الناس يرى أن منهجه ووسيلته وطريقته هي الصائبة فقط، ولا أصوب منها، أما غيرها فخطأ، وأنه يجب على الناس أن يمضوا على منهجه، وأن يسلموا لطريقته، وأن يسلِّموا لما يقول.

وهذا ليس بصحيح، ولذلك يقول أهل هذا المبدأ كما وصفهم الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: "يا علي، أتظن أن الحق معك والباطل مع طلحة والزبير وعائشة؟" يعني في معركة الجمل.

قال: "ويلك!! اعرف الحق تعرف أهله، ولا تعرف الحق بالرجال".

فالتعصب للأشخاص والمناهج مصيبة، وقد أضرت بالأمة الإسلامية وأخرت ركبها وأشغلتها بالخلافات والردود، حتى أحاط بنا الأعداء من كل جانب، يستثنى من ذلك إذا كان هذا التعصب لأمر كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فهو حق لا بد من التمسك به.

ومـا أروع مـا سـطره الإمـام ابـن القـيم رحمـه الله بقولـه: "عادتنـا في مسـائل الـدين كلهـا دقهـا وجلهـا أن نقـول بموجبهـا ولا نضـرب بعضـها بـبعض ولا نتعصـب لطائفـة علـى طائفـة بـل نوافـق كـل طائفـة علـى مـا معهـا مـن الحـق ونخالفهـا فيمـا معهـا مـن خـلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة".

ويقـول ابـن تيميـة رحمـه الله في شـأن مـن يـوالي طائفتـه أو زعيمـه ولاءاً مطلقـاً في الحـق والباطـل، ومبينـاً حكمـه: "مـن مـال مـع صـاحبه –سـواء كـان الحـق لـه أو عليـه– فقـد حكم بحكم الجاهلية وخرج من حكم لله ورسوله".

وقـال الشـوكاني في تفسـيره عـن المتعصـب: "والمتعصـب وإن كـان بصـره صـحيحاً فبصـيرته عميـاء، وأذنـه عـن سمـاع الحـق صـماء، يـدفع الحـق وهـو يظـن أنـه مـا دفـع غـير الباطـل، ويحسـب أن مـا نشـأ عليـه هـو الحـق غفلـةً منـه وجهـلاً بمـا أوجبـه الله عليـه مـن النظـر الصـحيح، وتلقِّـي مـا جـاء بـه الكتـاب والسـنة بالإذعـان والتسـليم، ومـا أقـل المنصـفين بعـد ظهـور هـذه المـذاهب في الأصـول والفـروع؛ فإنـه صـار بهـا بـاب الحـق مرتجّاً، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله ـ سبحانه ـ والهداية منه".

قـال الشـيخ أسـامة: "أنصـح نفسـي والمسـلمين عامَّـة والإخـوة في تنظـيم القاعـدة خاصَّـة في كـلِّ مكـان أن يحـذروا مـن التعصُّـب إلى الرجـال والجماعـات والأوطـان والحـق هـو مـا قالـه الله تعـالى ومـا قالـه رسـوله ﷺ، وكـل يؤخـذ مـن قولـه ويـردُّ إلا الرَّسـول ﷺ فـأمره على الرأس والعين.

فـإياكم ثم إياكـم أن يكـون حظكـم مـن هـذه المسـألة الفهـم النظـري فقـط ثم تخـالفوه في واقعكـم العملـي، فكـل مـن يقـول قـولا اعرضـوا قولـه علـى كتـاب الله تعـالى وسـنة رسـوله ﷺ فمـا وافـق الحـق فخـذوه ومـا عارضـه فـاتركوه وقـد قـال رسـول الله ﷺ: (مـن قتـل تحت راية عميَّة ينصر العصبية ويغضب للعصبية فقتلته جاهليه)، (رواه مسلم).

وقال: (وقال ما بال دعوى الجاهلية دعوها فإنها منتنة)، (متفق عليه).

فـأخوة الإيمـان هـي الرَّابطـة بـين المسـلمين ولـيس الانتسـاب إلى القبيلـة أو الـوطن أو التَّنظـيم ومصـلحة الجماعـة مقدَّمـة علـى مصـلحة الفـرد ومصـلحة الدولـة المسـلمة مقدَّمـة على مصلحة الجماعة ومصلحة الأمة مقدَّمة على مصلحة الدولة..

فيجب أن تكون هذه المعاني واقعاً عملياً في حياتنا،

وأقـول حـريٌّ بعلمـاء المسـلمين وقـادة المجاهـدين وزعمـاء الجماعـات الصـادقة أن يـردِّد كـلُّ مـنهم علـى إخوانـه مـا قالـه الصِّـديق ﵁: "أطيعـوني مـا أطعـت الله ورسـوله فـإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ".

وقـال: "أيهـا النـاس إنمـا أنا متبـع ولسـت بمبتـدع فـإذا أنا أحسـنت فـأعينوني وإن أنا زغت فقوموني "أ. هـ

****

الخامسة والستون: الهَجْرُ

البعض يبادر إلى الهجر دون مراعاة أحكامه وآدابه، يرون التعذّر بالهجر للزجر أسهل، مع إن الكثير من الناس ربما كانوا من المسلمين الأفاضل الذين يتقبلون الحق ولا يبطرونه، فيجب ابتداء محاولة نصحهم ووعظهم وتذكيرهم، أما أن يهجر الأخ أخاه أسابيع أو شهوراً بل أحيانا سنوات، دون أن يقدم بين يدي ذلك الهجر، وعظاً أو نصحاً أو بياناً، بل دون أن يعلمه بسبب هجره والداعي له، فكيف سيدرك الأخ سبب هجره!!!!، وعن أي شيء سينزجر، بل ربما حمل ذلك على أنه سوء طباع، أو سوء عشرة، أو كبر وسوء أخلاق!

في غالب الأحيان يُلبَس هذا التهاجر والتدابر لبوساً شرعياً، بينما في الحقيقة تكون دوافعه شخصية لا علاقة لها بالهجر الشرعي، فالهجر الشرعي لا بد أن يكون دافعه خالصاً لله تعالى أولاً وأن يكون بصورة مشروعة ثانياً، وأن يغلب على الظن أنه يؤدي إلى تحقيق المقصود منه ثالثاً.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "فالهجرة الشرعية هي من الأعمال التي أمر الله بها ورسوله، فالطاعة لا بد أن تكون خالصة لله تعالى وأن تكون موافقة لأمره، فتكون خالصة لله صواباً، فمن هجر لهوى في نفسه أو هجر هجراً غير مأمور به كان خارجاً عن هذا، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه ظانة أنها تفعله طاعة لله... فينبغي أن يفرق بين الهجر لحق الله وبين الهجر لحق نفسه، فالأول مأمور به والثاني منهي عنه ".

وقد نهى الشرع الحنيف عن الهجر في نصوص كثيرة منها قوله ﷺ: (لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ).

وهـذا نـص صـريح في النهـي عـن الحقـد والضـغينة وعـن الهجـران، ومنهـا قولـه صـلى الله عليه وسلم:

(تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا).

فـالهجر إنمـا شـرع أصـلاً لتأديـب المهجـور، فـإذا تـرجح أنـه يتـأدب بالهجـر فبهـا، أمـا إن كـان الهجـر يزيـده إصـراراً علـى مـا هـو واقـع فيـه أو لا يـؤثر فيـه فإنـه لا يشـرع، بـل قـد يكـون تأليـف قلبـه أنفـع لـه في هدايتـه، لأن القصـد هـو دفعـه لطريـق الهدايـة، فـإذا حصـل بالتـأليف فبهـا ونعمـت دون الحاجـة إلى الهجـر، وفي ذلـك يقـول شـيخ الإسـلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى:

"وهـذا الهجـر يختلـف باخـتلاف الهـاجرين في قـوتهم وضـعفهم وقلـتهم وكثـرتهم، فـإن المقصـود بـه زجـر المهجـور وتأديبـه ورجـوع العامـة عـن مثـل حالـه. فـإن كانـت المصـلحة في ذلـك راجحـة بحيـث يفضـي هجـره إلى ضـعف الشـر وخفيتـه كـان مشـروعاً، وإن كـان لا المهجـور ولا غـيره يرتـدع بـذلك بـل يزيـد الشـر والهـاجر ضـعيف، بحيـث يكـون مفسـدة ذلـك راجحـة علـى مصـلحته، لم يشـرع الهجـر، بـل يكـون التـأليف لـبعض النـاس أنفـع مـن الهجـر، والهجـر لـبعض النـاس أنفـع مـن التـأليف. ولهـذا كـان النـبي صـلى الله عليـه وسـلم يتـألف قومـاً ويهجـر آخـرين. كمـا أن الثلاثـة الـذين خلفـوا كـانوا خـيراً مـن أكثـر المؤلفـة قلـوبهم، لمـا كـان أولئـك سـادة مطـاعين في عشـائرهم فكانـت المصـلحة الدينيـة في تأليـف قلـوبهم، وهـؤلاء كـانوا مـؤمنين، والمؤمنـون سـواهم كثـير، فكـان في هجـرهم عـز الـدين، وتطهـيرهم مـن ذنـوبهم، وهـذا كمـا أن المشـروع في العـدو القتـال تارة، والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحول والمصالح.

وجـواب الأئمـة كأحمـد وغـيره في هـذا البـاب مبـني علـى هـذا الأصـل. ولهـذا كـان يفـرق بـين الأمـاكن الـتي كثـرت فيهـا البـدع، كمـا كثـر القـدر في البصـرة، والـتجهم بخراسـان،

والتشـيع بالكوفـة، وبـين مـا لـيس كـذلك. ويفـرق بـين الأئمـة المطـاعين وغـيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة، سلك في حصوله أوصل الطرق إليه".

واسـتثنى أهـل العلـم مـن هـذا الهجـران: أهـل البـدع والفسـوق وغـيرهم؛ مسـتدلين بأحاديـث، منهـا: مـا أخرجـه الشـيخان أن قريبًـا لعبـد الله بـن مغفـل خـذف، فنهـاه، وقـال: إن رسـول الله ﷺ نهـى عـن الخـذف، فعـاد، فقـال: أحـدثك أن رسـول الله ﷺ نهى عنه ثم تخذف؟! لا أكلمك أبدًا.

والخذف: هو الرمي بالحصى بين أصبعين.

قـال النـووي في «شـرح صـحيح مسـلم»: "فيـه هجـران أهـل البـدع والفسـوق ومنابـذي السنة مع العلـم، وأنـه يجـوز هجرانـه دائمًـا، والنهـي عـن الهجـران فـوق ثلاثـة أيام إنمـا هـو فـيمن هجـر لحـظ نفسـه ومعـايش الـدنيا، وأمـا أهـل البـدع ونحـوهم فهجـرانهم دائمًـا، وهذا الحديث مما يؤيده، مع نظائر له؛ كحديث كعب بن مالك وغيره".

****

السادسة والستون: الحماقة أو صحبة الأحمق

قال الماوردي: "فإن الحمق لا تثبت معه مودة، ولا تدوم لصاحبه استقامة ".

وقال بعض الحكماء: عداوة العاقل أقل ضررًا من مودة الأحمق؛ لأن الأحمق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع، والعاقل لا يتجاوز الحد في مضرته، فمضرته لها حد يقف عليه العقل، ومضرة الجاهل ليست بذات حد..

وقال ربيعة بن عامر الدارمي المعروف بالمسكين:

اتق الأحمق أن تصحبه	إنما الأحمق كالثوب الخلق
كلما رقعت منه جانبًا	حركته الريح وهنًا فانخرق

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري! ولذلك قال الشاعر:

إني لآمن من عدو عاقلٍ	وأخاف خِلًّ ا يعتريه جنون
فالعقل فن واحد وطريقه	أدرى فأرصد والجنون فنون

ولذلك قيل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله.

وقال الثوري: "النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة".

قال أبو حاتم ابن حبان رحمه الله: "من علامات الحمق التي يجب للعاقل تفقدّها ممن خفى عليه أمره:

سرعة الجواب، وترك التثبت، والإفراط في الضحك، وكثرة الالتفات، والوقيعة في الأخيار والاختلاط بالأشرار، والأحمق إذا أعرضت عنه اغتمّ، وإن أقبلت عليه اغترّ،

وإن حلمت عنه جهل عليك، وإن جهلت عليه حلم عنك، وإن أسأت إليه أحسن إليك، وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإذا ظلمته انتصفت منه، ويظلمك إذا أنصفته، وما أشبه عشرة الحمقى بما أنشدني مُحَّد بن إسحاق الواسطي:

لي صديق يرى حقوقي عليه — نافلات وحقّه كان فرضا
لو قطعت الجبال طولا إليه — ثم من بعد طولها سرت عَرضا
لرأى ما صنعت غير كبير — واشتهى أن أزيد في الأرض أرضا

قال عمر بن عبد العزيز: "ما عدمت من الأحمق فلن تعدم خلّتين: سرعة الجواب، وكثرة الالتفات".

عن أبي إسحاق؛ قال: "«إذا بلغك أنّ غنيّا افتقر فصدّق، وإذا بلغك أنّ فقيرا استغنى فصدّق، وإذا بلغك أنّ حيّا مات فصدّق، وإذا بلغك أنّ أحمق استفاد عقلا فلا تصدّق".

قيل لإبراهيم النّظّام: ما حدّ الحمق؟

فقال: "سألتني عمّا ليس له حدّ".

عن الأوزاعيّ أنّه قال: "بلغني أنّه قيل لعيسى ابن مريم عليهما السّلام: يا روح الله إنّك تحيي الموتى؟ قال: نعم. بإذن الله. قيل: وتبرأ الأكمه؟

قال: نعم. بإذن الله. قيل: فما دواء الحمق؟ قال: هذا الّذي أعياني".

وقد نظم هذا المعنى بعضهم فقال:

لكلّ داء دواء يستطبّ به — إلّا الحماقة أعيت من يداويها

في مجمع الأمثال: "أحمق من ربيعة البكاء".

هو ربيعة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. ومن حمقه أن أمه كانت تزوجت رجلاً من بعد أبيه فدخل يوماً عليها الخباء، وهو رجل قد التحى، فرأى أمه تحت زوجها يباضعها، فتوهم أنه يريد قتلها، فرفع صوته بالبكاء وهتك عنهما الخباء وقال: وا أماه. فلحقه أهل الحي وقالوا: ما وراءك؟ قال: دخلت الخباء فصادفت فلاناً على بطن أمي يريد قتلها. فقالوا: أهون مقتول أم تحت زوج. فذهبت مثلاً وسمي ربيعة البكاء، فضرب بحمقه المثل".

قال مسكين الدارمي:

اتق الأحمق أن تصحبه ... إنما الأحمق كالثوب الخرق

كلما رقعت منه جانبا ... حركته الريح وهنا فانخرق

أو كصدع في زجاج بين ... أو كفتق وهو يعيي من رتق

وإذا جالسته في مجلس ... أفسد المجلس منه بالخرق

وإذا نهنهته كي يرعوي ... زاد جهلا وتمادى في الحمق

وإذا الفاحش لاقى فاحشا ... فهنا كم وافق الشن الطبق

إنما الفحش ومن يعتاده ... كغراب السوء ما شاء نعق

أو كحمار السوء إن أشبعته ... رمح الناس وإن جاع نهق

أو كعبد السوء إن جوعته ... سرق الجار وإن يشبع فسق

أو كغيرى رفعت من ذيلها ... ثم أرختها ضرارا فانخرق

أيها السائل عما قد مضى ... هل جديد مثل ملبوس خلق

******

السابعة والستون: المبالغة في المعاريض

لا ريب أن في المعاريض مندوحةً عن الكذب، ولكن هناك من يبالغ في المعاريض، ويتوسع فيها توسعًا يخرجه عن طوره، ويجعله يدخل فيها ما ليس منها، فتجده يقلب الحقائق، وينال من الآخرين، ويُلبس عليهم، ويحصل على مآربه بالمراوغة والمخاتلة، مما يوقعه في الكذب، فَتُفْقَدُ الثقة به، وبحديثه.

أما إذا اقتضت الحكمة أن يلجأ الإنسان إلى المعاريض فلا بأس؛ ذلك أن الإنسان في هذه الدنيا معرض للبلاء ومن أشد البلاء ما يمنعك من أن تقضي حقَّ فضيلة؛ فقد يلاقي الإنسان حالاً ترغمه على أن ينطق بما يكره، أو أن يسلك في القول ما لم يألف.

ولو وقف على علم الأخلاق أمام هذه الأحوال المُرْغِمة صلباً جامداً لضاقت سبيله، ولوجدت بعض النفوس مناصاً للخروج عليه.

إلا أن علم الأخلاق الذي أرسى الإسلام قواعده، ورفع مناره فسيحُ الصدر بمقدار ما يسع مقتضيات الحياة الفاضلة.

فصدق اللهجة يعد من الفضائل؛ نظراً إلى ما هو شأنه من حفظ المصالح ودرء المفاسد، ولو عرضت على وجه الندرة حالٌ يكون حديث الرجل فيها على نحو ما يعلم جالباً عليه، أو على غيره ضرراً فاحشاً لوجد في نظام الأخلاق مرونةً تسمح له بأن يصوغ حديثه في أسلوب لا يجلب ضرراً.

فإذا وقع الإنسان في حال لا يليق معه التصريح بأمر واقع، ولم يكن بدٌّ من أن يقول في شأنه شيئاً فها هنا يُفْسَحُ له أن يأخذ بالمعاريض.

والمعاريض: هي ألفاظ محتملة لمعنين؛ يفهم السامع منها معنى، ويريد المتكلم منها معنى آخر.

وإن شئت فقل: هي ألفاظ ذات وجهين، أحدهما: غير حقيقة، وهو ما يسبق إلى فهم السامع.

وثانيهما: حقيقة، وهو ما يقصده المتكلم.

فهذه الحالة لا تخرج المرء من أهل الصدق، ولا تلحقه بزمرة الكذابين.

وهذا ما يفعله الذين أشربوا صدق اللهجة متى عرفوا أن في القول الصريح حرجاً، أو خطراً. (رسائل الإصلاح)

****

الثامنة والستون: الانتصار للنفس

قال الله تعالى ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [فصلت: 34].

لما خرج رسول الله ﷺ من ثقيف أتاه ملك الجبال للانتقام، عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ﷺ؛ أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ـ قرن المنازل ـ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ "فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً)، (متفق عليه).

وعندما فتح مكة، فقد آذاه قومه في بداية الدعوة، واتهموه باتهامات باطلة كالكذب والسحر والجنون والشعر، ووضعوا سلا الجزور على رقبته الشريفة، ومنهم من خنقه حتى كاد يقتله، وتآمروا على قتله، لكن نجاه الله عز وجل، وقتلوا أصحابه، وضيقوا عليهم الخناق في مكة إبان الدعوة المحمدية الجهرية، مما اضطر الصحابة الكرام إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين لكنه ﷺ ما انتصر لنفسه، بل قال اذهبوا فأنتم الطلقاء.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: (مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّه سُبْحَانَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلائِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ)، (أخرجه أبو داود والترمذي، وقال الألباني رحمه الله: حسن).

علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه في معركة وقتال مع الأعداء علا بسيفه على رجل من أهل الشرك، فسبه وبصق في وجهه، فأمسك علي سيفه وتركه، قيل له لم؟ قال: خشيت أن أنتصر لنفسي.

قال شيخ الإسلام: "وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ: مَنْ يَغْضَبُ لِرَبِّهِ لَا لِنَفْسِهِ وَعَكْسِهِ وَمَنْ يَغْضَبُ لَهُمَا وَمَنْ لَا يَغْضَبُ لَهُمَا... فَأَعْلَاهُمْ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْ اتَّبَعَهُ: أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى أَذَى النَّاسِ لَهُمْ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ وَيُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُعَاقِبُونَ وَيَغْضَبُونَ وَيَنْتَقِمُونَ لِلَّهِ لَا لِنُفُوسِهِمْ يُعَاقِبُونَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِعُقُوبَةِ ذَلِكَ الشَّخْصِ وَيَجِبُ الِانْتِقَامُ مِنْهُ كَمَا فِي جِهَادِ الْكُفَّارِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وأدناهم عكس هؤلاء، يغضبون وينتقمون ويعاقبون لنفوسهم، إذا أخذت ريالاً من دراهمه ثارت ثورته، إذا آذيت ولده ثارت ثورته، ولكن إذا انتهكت محارم الله؟ فإذا أوذي أحدهم أو خولف هواه غضب وانتقم وعاقب، ولو انتهكت محارم الله أو ضيعت حقوقه لم يهمه ذلك، وهذا حال الكفار والمنافقين. ".

وقع للملك الناصر انقلاب في زمن شيخ الإسلام فذهب عليه ملكه؛ وكان الذي قام بهذا الانقلاب ملك يقال له المظفر ركن الدين بيبرس؛ وكان العلماء والفقهاء والقضاة والحسدة الذين لم يفتئوا، ولم يألوا جهداً في الوشاية بشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كانوا قد التفوا حول هذا الملك الجديد، وصاروا حاشية له، وأداروا ظهورهم للأول:

فتركوه وتوجهوا من جديد إلى هذا الملك الجديد، وصاروا حاشيته وجلسائه وندمائه، ثم استطاع الملك الناصر أن يسترد ملكه من جديد، فجاء وجلس على سرير ملكه، وأحضر هؤلاء القضاة والعلماء والفقهاء وأجلسهم بين يديه، وقد طأطئوا رؤوسهم،

لا يدرون ماذا سيصنع بهم؟ ولا يعرفون كيف سيفتك بهم وينتقم منهم حينما أعرضوا عنه، والتفوا حول عدوه وخصمه؟ فهؤلاء ليس لهم وفاء في نظر هذا الملك، وبينما هم كذلك، وقد طأطئوا رؤوسهم يضربون أخماساً بأسداس إذ طلع عليهم رجل من بعيد ولم يميزوه في أول الأمر؛ فلما اقترب إذا هو شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كان في السجن قد أمر الملك بإخراجه من جديد؛ ودعاه إلى مجلسه فأسقط في أيديهم، وقالوا: الآن يتم الانتقام بفتوى ونذبح على الطريقة الإسلامية كما يقال، فقام الملك يمشي إلى شيخ الإسلام توقيراً وتعظيماً في الظاهر لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، ولم يكن من عادته ذلك هو يجرجره من سجن إلى سجن، فقام إليه يمشي مظهراً لتعظيمه، ثم عانقه وأخذه إلى شرفة وناحية في القصر وسارّره، وجلس يتحدث معه سراً فماذا قال له؟ قال له: ماذا تقول في هؤلاء؟ يقول شيخ الإسلام: فعلمت أنه قد حنق عليهم، وأنه أراد أن ينتقم لنفسه -فلاحظ فقه شيخ الإسلام- لا ينتقم لشيخ الإسلام ولا للدين، وإنما لأن هؤلاء قد تركوه وأعرضوا عنه يقول: فعلمت أنه قد حنق عليهم، وأراد أن ينتقم لنفسه، فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، ولا قيام لملكك إلا بهم، فهم قضاة البلد وفقهائه، فأخرج لي أوراق وقراطيس من جيبه فيها فتاوى بخطوطهم يقول: انظر ماذا قالوا فيك؟ كفروه، وأفتوا بقتله، وهذه محفوظة بملفات، آن الأوان لإخراجها لفضحهم لينتقم لنفسه، المظنون لو كان الإنسان صاحب نفس صغيرة أن تأخذه العزة بالإثم، ويستطيع بكل سهولة أن يتدثر بدثار السنة والدفاع عن العقيدة: أن هؤلاء مبتدعة فنخلص منهم البلاد والعباد، فماذا قال شيخ الإسلام: قال أما أنا فهم في حل من جهتي قد عفوت عنهم، يقول: فسكَّنت ما عنده – أي هدأه.

قال ابن الجوزي قَالَ: كنا جلس إلى الوزير ابن هبيرة، فيملي علينا كتابه"الإفصاح "فبينا نحن كذلك إذ قدم رجل – معه رجل ادعى عليه أنه قتل أخاه، فقال له عون

الـدين: أقتلتـه؟ قَـالَ: نعـم. جـرى بيـني – بينـه كـلام فقتلتـه: فقـال الخصـم: سـلمه إلينـا حـتى نقتلـه فقـد أقـر بالقتـل، فقـال عـون الـدين: أطلقـوه ولا تقتلـوه، قـالوا: كيـف ذلـك، وقـد قتـل أخـانا. قَـالَ: فتبيعونيـه، فاشـتراه مـنهم بسـتمائة دينـار، وسـلم الـذهب إلـيهم وذهبـوا، قَـالَ للقاتـل: اقعـد عنـدنا لا تـبرح. قَـالَ: فجلـس عنـدهم، وأعطـاه الـوزير خمسـين دينـارا. قَـالَ!: فقلنـا للـوزير: لقـد أحسـنت إلى هـذا وعملـت معـه أمـرا عظيمـا وبالغـت في الإحسـان إليـه فقـال الـوزير: مـنكم أحـد يعلـم أن عيـني اليمـنى لا أبصـر بهـا شـيئا. فقلنـا: معـاذ الله، فقـال: بلـى والله. أتـدرون مـا سـبب ذلـك. قلنـا: لا. قَـالَ: هـذا الـذي خلصـته مـن القتـل جـاء إلي وأنا في الـدور ومعـي كتـاب مـن الفقـه أقـرأ فيـه، ومعـه سـلة فاكهـة، فقـال: احمـل هـذه السـلة، قلـت لـه: مـا هـذا شـغلي فاطلـب غـيري، فشاكلني، ولكمني فقلع عيني، ومضى ولم أره بعد ذلك إلى يومي هذا.

****

التاسعة والستون: قلة المروءة

المروءة: أن تستعمل ما يجملك ويزينك وأن تجتنب ما يدنسك ويشينك، فهي كيفية نفسانية تحمل المرء على ملازمة التقوى وترك الرذائل.

والمروءة لها ثلاث مراتب:

المروءة مع النفس.. والمروءة مع الخلق.. والمروءة مع الحق.

فالمروءة مع النفس، تكون بحملها قسراً على ما يجمل ويزين، وترك ما يدنس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية.

فمن أراد شيئاً في سره وخلوته ملكه في جهره وعلانيته، فلا يفعل خالياً ما يستحي من فعله في الملأ إلا ما يحضره الشرع والعقل كالجماع والتخلي ونحو ذلك.

الثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم الحياء والخلق الجميل، وحسن الأدب، ومكارم الأخلاق، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره.

الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه، بالاستحياء من نظره إليك، وإصلاح عيوب النفس قدر الإمكان، فإن الله قد اشتراها منك، وليس من المروءة تسليم المبيع على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملاً.

مررتُ على المروءةِ وهي تبكي   فقلتُ علام تنتحب الفتاةُ؟
فقالت كيف لا أبكي وأهلي   جميعاً دون خلق اللهِ ماتوا

قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: "المروءة مروءتان، فللسفر مروءة، وللحضر مروءة: فأما مروءة السفر فبذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير

مَساخط الله؛ وأما مروءة الحضر: فإدْمان الاختلاف إلى المساجد، وكثرة الإخوان في الله، وقراءة القرآن".

قال أبو بكر الواسطي: "ابتُلِينا بزمان ليس فيه آدابُ الإسلام، ولا أخلاقُ الجاهلية، ولا أخلاقُ ذوي المروءة".

ذات مرة قال سليمان بن عبد الملك لبوابه: التمس لي أحداً يتغدى معي ونتفكه معه قليلاً، والأعراب رغم أنهم جفاة إلا أن لهم لفتات جميلة، فيمكن أن ينادمك بأبيات من الشعر، وبحكايات، وغيرها.

فجاء بأعرابي ووضعوا خروفاً محشواً بالفستق واللوز، فوضعه أمام الأعرابي وجعل يأكل، وكانت هناك شعرة على الخروف، فأخذها الأعرابي، فقال له سليمان: استل الشعرة من اللقمة، فوضع الأعرابي اللقمة على المائدة، وقال له: إنك لتراقبني مراقبة من يرى الشعر أي: أن تركيزك علي لدرجة أنك ترى الشعرة! وهو لم يكن يقصد أن يراقبه أبداً، ولكن غرضه أن يزيل الشعرة من الطعام فقال الأعرابي: والله لا آكلتك بعد اليوم أبداً، فقام وذهب.

إذا جلست وكان مثلك قائماً   فمن المروءة أن تقوم وإن أبى
وإن اتكأت وكان مثلك جالساً   فمن المروءة أن تزيل المتكأ
وإذا ركبت وكان مثلك ماشياً   فمن المروءة أن مشيت كما مشى

ما يخرم المروءة:

1- عدم الإحساس والشعور بالرجولة من قبل بعض الناس تجاه نفسه والآخرين، فبعض الشباب لا يقدر كبار السن ولا يحتفي بهم، ولا يسألهم عن أحوالهم وأحوال أولادهم، ولا يدعو لهم، ولا يعطف على الصغار ولا يتلطف بالكلام معهم.

2- عدم معرفة أصول ومبادئ الكلام مع الكبار، فتارةً يقاطع، وتارةً يوجه ظهره لهذا.

3- عدم الاهتمام بالجلسة في المجلس بل يضطجع أو ينام في أي مكان وبأي لباس كان، ويكون هذا في المجلس.

4- كذلك لا يراعي الآخرين، فيمد رجليه أو يجلس على ظهره، أو يعبث بأنفه أو رجليه، وذلك بحجة أنه بين الأحباب تسقط الآداب، وهذه حكمة بائسة وليست بحكمة ذات حكمة.

5- الكسل وعدم المساعدة في تجهيز الطعام وغيره.

6- عند وضع الطعام تجد بعضهم أول من يتقدم للطعام ويبدأ بالأكل، بينما نجد أشخاصاً أكبر منه لم يحضروا، وقد يكون هناك العدد لم يكتمل.

7- لا يعرف الترحيب بالضيوف وسؤالهم عن حالهم ومشاركتهم في الكلام.

8- عدم التفرقة بين الأشخاص الموجودين، فكل الناس عنده سواء، العالم والصغير والكبير، ففيثرثر عند هذا وعند ذاك، فكلهم بمنزلة واحدة، لا يعطي كل ذي حق حقه.

9- تجده يرى غيره ممن هو أكبر منه يصب القهوة ويقدم الطعام وهو جالس لا يحرك ساكناً.

10- كذلك يكثر المزاح في كل وقت حتى عند إقامة الصلاة، ويقول كثيراً الجدل والمراء على أتفه الأسباب ولا يخرج من ذلك بطائل ولا فائدة.

11- تجده مع زملائه لربما حسن التعامل، وإذا رجع إلى بيته فهو سبع ضار. (خالد السبت)

قيل لسفيان بن عيينة رحمه الله: قد استنبطت من القرآن كل شيء، فأين المروءة فيه؟!

فقال: في قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]. (المروءة للشيخ خالد السبت).

****

السبعون: اصطناع المعروف إلى اللئام

وقال الشافعي رحمه الله: "أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام".

وفي قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: 13].

قال عكرمة هو اللئيم الذي يعرف بلؤمه كما تعرف الشاة بزنمتها.

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: (لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا: لُكَعِ ابن لُكَع). (رواه الترمذي وصححه الألباني).

لكع ابن لكع: معناه اللئيم ابن اللئيم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "والحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا القليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد. لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه".

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كُنْ مِنْ خَمْسَةٍ عَلَى حَذَرٍ مِنْ لَئِيمٍ إِذَا أَكْرَمْتَهُ، وَكَرِيمٍ إِذَا أَهَنْتَهُ، وَعَاقِلٍ إِذَا أَحْرَجْتَهُ، وَأَحْمَقَ إِذَا مَازَحْتَهُ، وَفَاجِرٍ إِذَا مَازَجْتَهُ".

صَافِ الكَرِيْمَ فَخَيْرُ مَنْ صَافَيْتَهُ ... مَنْ كان ذا دَايِنٍ وكان عَفِيفَا
وَاحْذَرْ مُؤاخَاةَ اللَّئيمِ فإنَّهُ ... يُبْدي القَبِيحَ وَيُنكِّرُ المعْرُوفَا
وَاحْذَرْ مُصَاحَبَةِ اللَّئِيم فَإِنَّهُ ... يُعْدِي كَمَا يُعْدِي الصَّحِيحَ الأَجْرَبُ

وقيل أيضاً: "امسكوا المعروف عن ثلاثة، اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعته له إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت".

وترى اللَّئيم إذا تمكن من أذى   يطغى فلا يبقى لصلح موضعا

قال الماورديّ- رحمه الله تعالى-: "اعلم أنّ الكريم يجتزى بالكرامة واللّطف، واللّئيم يجتزى بالمهانة والعنف، فلا يجود إلّا خوفا، ولا يجيب إلّا عنفا، كما قال الشّاعر:

رأيتك مثل الجوز يمنع لبّه   صحيحا ويعطي خيره حين يكسر

فاحذر أن تكون المهانة طريقا إلى اجتدائك، والخوف سبيلا إلى عطائك، فيجري عليك سفه الطّغام، وامتهان اللّئام، وليكن جودك كرما ورغبة، لا لؤما ورهبة".

قال الأصمعي: "قال لي أبو عمرو: كن على حذر من الكريم إذا أهنته، ومن اللئيم إذا أكرمته، ومن العاقل إذا أحرجته، ومن الأحمق إذا مازحته، ومن الفاجر إذا عاشرته".

روى البيهقي في الشعب، عن الأصمعي، قال: "دخلت البادية فإذا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وجرو ذئب مقع، فنظرت إليها فقالت: أتدري ما هذا؟. قلت: لا. قالت: جرو ذئب أخذناه وأدخلناه بيتنا، فلما كبر قتل شاتنا. وقد قلت في ذلك شعراً قلت لها: ما هو؟ فأنشدته:

بقرت شويهتي وفجعت قلبي   وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا   فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء   فليس بنافع فيها الأديب

في مجمع الأمثال (كَمُجِيرِ أُمّ عَامِرٍ) ".

كـان مـن حديثـه أن قومـاً خَرَجُـوا إلى الصـيد في يـوم حـار، فـإنهم لكَـذَلك إذ عَرَضَـتْ لهـم أُمَّ عـامرٍ، وهـي الضـبع، فطَرَدُوهـا وأتـبعهم حـتى ألجؤهـا إلى خِبـاه أعـرابي، فاقتحمتـه، فخـرج إلـيهم الأعـرابي، وقَـال: مـا شـأنكم؟ قَـالوا: صَـيْدُنا وطَريـدتنا، فَقَـال: كـلا، والـذي نفسـي بيـده لا تصـلون إليهـا مـا ثَبَـتَ قـائمُ سـيفي بيـدي، قَـال: فرجَعُـوا وتركـوه، وقـام إلى لِقْحَـةٍ فحلَبَهَـا ومـاء فقـرب منهـا، فأقبلـت تَلِـغُ مـرةً في هـذا ومـرة في هـذا حـتى عاشـت واسـتراحت، فبينـا الأعـرابي نائـم في جَـوْف بيتـه إذ وّثَبَـتْ عليـه فبَقَـرَتْ بطنـه، وشـربت دَمَـه وتركتـه، فجـاء ابـن عـم لـه يطلبـه فـإذا هـو بَقِـيرٌ في بيتـه، فالتفـت إلى موضـع الضـبع فلـم يرهـا، فَقَـال: صـاحبتي والله، فأخـذ قوسـه وكنانتـه واتبعهـا، فلـم يـزل حـتى أدركها فقتلها، وأنشأ يقول:

وَمَـنْ يَصْـنَعِ المِعْـرُوفَ مـعْ غَـيرِ أَهْـــلِهِ ... يُـــلاَقِ الَّـــذي لاَقَـــى مُجِـــيرُ امِّ عَامِـــرِ
أدامَ لهـــا حِـــينَ اســتَجَارَتْ بقُرْبِــــــهِ ... لهـــا محْـــضَ ألبَـــانِ اللقَـــــاحِ الـــدَّرَائِرِ
وَأَسْمَنَهَـــا حَـــتَّى إذَا مَـــا تَكَـــــــامَلَتْ ... فَرَتْـــهُ بأنْيَـــابٍ لَهَـــا وَأظَـــــــــافِرِ
فَقُـلْ لِـذِوِي المِعْـرُوفِ هَـذَا جَـزَاءُ مَـنْ ... بَـدَا يَصْـنَعُ المِعـرُوفَ فِي غَـيْرِ شَـاكِرِ

******

الحادية والسبعون: المداهنة

يقول الله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9].

وقال أبو السعود رحمه الله: "تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم، أي: دم على ما أنت عليه من عدم طاعتهم، وتصلب في ذلك، أو نهى عن مداهنتهم ومداراتهم بإظهار خلاف ما في ضميره ﷺ استجلابا لقلوبهم لا عن طاعتهم كما ينبئ عنه قوله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ فإنه تعليل للنهي أو الانتهاء، وإنما عبر عنها بالطاعة للمبالغة في الزجر والتنفير، أي: أحبوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الأمور، ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: فهم يدهنون حينئذ، أو فهم الآن يدهنون طمعا في إدهانك"أ هـ.

قال سهل بن عبد الله التستري: "لا يشم رائحة الصدق من داهن نفسه أو غيره".

قال شوقي في إحدى حكاياته الشعرية قصيدة عنوانها"نديم الباذنجان"قال فيها:

كان لسلطان نديم واف ... يعيد ما قال بلا اختلاف
وقد يزيد في الثناء عليه ... إذا رأى شيئا حلا لديه
وكان مولاه يرى ويعلم ... ويسمع التمليق لكن يكتم
فجلسا يوما على الخوان ... وجيء في الأكل بباذنجان
فأكل السلطان منه ما أكل ... فقال: هذا في المذاق كالعسل
قال النديم: صدق السلطان ... لا يستوي شهد وباذنجان
هذا الذي غنى به الرئيس ... وقال فيه الشعر جالينوس
يذهب ألف علة وعلة ... ويبرد الصدر ويشفي الغلة
قال: ولكن عنده مراره ... وما حمدت مرة آثاره
قال: نعم مر وهذا عيبه ... مذ كنت يا مولاي لا أحبه

هـــذا الـــذي مـــات بـــه بقـــراط وســـم في الكـــأس بـــه سقـــــراط

فالتفـــت الســـلطان فـــيمن حولـــه وقـــال: كيـــف تجـــدون قولـــــه

قـــال النـــديم: يا مليـــك الـــناس عـــذرا فمـــا في فعلـــتي مـــن بـــاس

جعلـــت كـــي أنادم الســـلطانا ولم أنادم قـــــط باذنجانـــــــا

هـذه هـي حـال أهـل المداهنـة، يراوغـون، ويخـاتلون، ويخـادعون، ويكـذبون، ويسـترون وجه الحقيقة الأبلج، ولا يبالون بما يترتب على ذلك من عواقب.

"كـل مـن يشـكر ظالما علـى ظلمـه أو مبتـدعا علـى بدعتـه أو مـبطلا علـى أبطالـه وباطلـه فهـي مداهنـه حـرام لأن ذلـك وسـيلة لتكثـير ذلـك الظلـم والباطـل مـن أهلـه. وروى عـن أبي موسـى الأشـعري أنـه كـان يقـول إنا لنكشـر في وجـوه أقـوام وإنا قلوبنـا لتلعـنهم. يريـد الظلمـة والفسـقة الـذين يتقـى شـرهم ويبتسـم في وجـوههم ويشـكرون بالكلمـات الحقـة فهـذا قـد يكـون مباحـا وقـد يكـون واجبـا إن كـان يتوصـل بـه القائـل لـدفع ظلـم محـرم أو محرمـات لا تنـدفع إلا بـذلك القـول ويكـون الحـال يقتضـى ذلـك وقـد يكـون منـدوبا إن كـان وسـيلة لمنـدوب أو منـدوبات وقـد يكـون مكروهـا إن كـان عـن ضـعف لا ضـرورة تتقاضـاه بـل خـور في الطبـع أو يكـون وسـيلة للوقـوع في مكـروه فانقسـمت المداهنـة علـى هـذه الأحكـام الخمسـة الشـرعية وظهـر حينئـذ الفـرق بـين المداهنـة المحرمـة وغـير المحرمـة وقـد شـاع بـين النـاس أن المداهنـة كلهـا محرمـة ولـيس كـذلك بل الأمر كما تقدم تقريره". (الفروق للإمام القرافي).

واعلـم أنـه لـيس مـن الأخـوة موافقـة الأخ فيمـا يخـالف الحـق في أمـر يتعلـق بالـدين بـل الأخـوة لـه المخالفـة فقـد كـان الشـافعي ﷺ آخـي مُحَّد بـن عبـد الحكـم وكـان يقربـه ويقبـل عليـه ويقـول مـا يقيمـني بمصـر غـيره فاعتـل مُحَّد فعـاده الشـافعي رحمـه الله تعـالى فقال

مـــــرض الحبيـــــب فعدتـــــه فمرضـــت مـــن حـــذري عليـــه

وأتـــــى الحبيـــــــب يعــــــودني فبرئــــــت مــــــن نظــــــري إليــــــه

وظـن النـاس لصـدق مودتهمـا أنـه يفـوض أمـر حلقتـه إليـه بعـد وفاتـه فقيـل للشـافعي في علته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟

فاستشـرف لـه مُحَّد بـن عبـد الحكـم وهـو عنـد رأسـه ليـومئ إليـه فقـال الشـافعي سـبحان الله أيشــك في هــذا أبــو يعقــوب البــويطي فانكســر لهــا مُحَّد بــن عبــد الحكــم ومــال أصـحابه إلى البـويطي مـع أن مُحَّدا كـان قـد حمـل عنـه مذهبـه كلـه لكـن كـان البـويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع.

فنصــح الشــافعي لله وللمســلمين وتــرك المداهنــة ولم يــؤثر رضــا الخلــق علــى رضــا الله تعـالى فلمـا تـوفى انقلـب مُحَّد بـن عبـد الحكـم عـن مذهبـه ورجـع إلى مـذهب أبيـه ودرس كتب مالك رحمه الله وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله

وآثـر البـويطي الزهـد والخمـول ولم يعجبـه الجمـع والجلـوس في الحلقـة واشـتغل بالعبـادة وصـنف كتـاب الأم الـذي ينسـب الآن إلى الربيـع بـن سـليمان ويعـرف بـه وإنمـا صـنفه البــويطي ولكــن لم يــذكر نفســه فيــه ولم ينســبه إلى نفســه فــزاد الربيــع فيــه وتصــرف وأظهره.

المداهنـة تقيـدك مـن الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر فقـد روى عـن بعـض المشـايخ أنـه كـان لـه سـنور وكـان يأخـذ مـن قصـاب في جـواره كـل يـوم شـيئا مـن الغـدد لسـنوره فـرأى علـى القصـاب منكـرا فـدخل الـدار أولا وأخـرج السـنور (يعـني طـرده مـن البيـت) ثم جــاء واحتســب علــى القصــاب فقــال لــه القصــاب: لا أعطينــك بعــد هــذا شــيئا لسنورك فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك.

قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك بين قومك؟ قال: حسنة، قال: إن التوراة تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه.

فقال أبو مسلم: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم.

****

الثانية والسبعون: أن يكون صاحب وجهين

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهة وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه). (رواه البخاري ومسلم).

وعن مُحَمَّد بن زيد أن ناسا قالوا لجده عبد الله بن عمر ﷺ: "إننا ندخل على سلطاننا فنقول بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عنده فَقَالَ: كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله ﷺ". رواه البخاري.

وعن عمار بن ياسر ﷺ قال: "قال رسول الله ﷺ من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار "، (رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه).

قال إبراهيم بن مُحَمَّد:

وكم من صديق وده بلسانه ... خؤون بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكني عجبا إذا ما لقيته ... ويصدفني منه إذا غبت أسهم

قال المثقب العبدي:

إن شر الناس من يكشر لي ... حين يلقاني وإن غبت شتم

قال الهيتمي: "تَنْبِيهٌ: عَدُّ مَا ذُكِرَ هُوَ صَرِيحُ الْحَدِيثَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ الصَّحِيحَيْنِ، وَكَأَنَّهُمْ إنَّمَا لَمْ يُفْرِدُوهُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي النَّمِيمَةِ، وَفِي إطْلَاقِهِ نَظَرٌ ".

فَقَـدْ قَـالَ الْغَـزَالِيُّ: "ذُو اللِّسَـانَيْنِ مَـنْ يَتَـرَدَّدُ بَـيْنَ مُتَعَـادِيَيْنِ وَيُكَلِّـمُ كُـلًّا بِمَـا يُوَافِقُـهُ، وَقَـلَّ مَـنْ يَتَـرَدَّدُ بَـيْنَ مُتَعَـادِيَيْنِ إِلَّا وَهُـوَ بِهَـذِهِ الصِّـفَةِ وَهَـذَا عَـيْنُ النِّفَـاقِ. وَعَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ خَبَـرُ: (تَجِـدُونَ مِـنْ شَـرِّ عِبَـادِ اللَّهِ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ ذَا الْـوَجْهَيْنِ الَّـذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِحَدِيثِ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ بِحَدِيثِ هَؤُلَاءِ).

وَفِي رِوَايَةٍ: (يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً".

قَالُوا وَمَا الْإِمَّعَةُ؟ قَالَ يَجْرِي مَعَ كُلِّ رِيحٍ ".

قَـالَ: أَعْـنِي الْغَـزَالِيَّ: وَاتَّفَقُـوا عَلَـى أَنَّ مُلَاقَـاةَ اثْنَـيْنِ بِـوَجْهَيْنِ نِفَـاقٌ، وَلِلنِّفَـاقِ عَلَامَـاتٌ كَثِـيرَةٌ، وَهَـذِهِ مِـنْ جُمْلَتِهَـا، ثُمَّ قَـالَ: فَـإِنْ قُلْـت: فِي مَـاذَا يَصِـيرُ ذَا لِسَـانَيْنِ وَمَـا حَـدُّ ذَلِـكَ؟ فَـأَقُولُ: إِذَا دَخَـلَ عَلَـى مُتَعَـادِيَيْنِ وَجَامَـلَ كُـلَّ وَاحِـدٍ مِنْهُمَـا وَكَـانَ صَـادِقًا فِيـهِ لَمْ يَكُـنْ مُنَافِقًـا وَلَا ذَا لِسَـانَيْنِ، فَـإِنَّ الْوَاحِـدَ قَـدْ يُصَـادِقُ مُتَعَـادِيَيْنِ وَلَكِـنَّ صَـدَاقَتَهُ ضَـعِيفَةٌ لَا تَنْتَهِي إِلَى حَدِّ الْأُخُوَّةِ، إِذْ لَوْ تَحَقَّقَتْ الصَّدَاقَةُ لَاقْتَضَتْ مُعَادَاةَ الْأَعْدَاءِ.

نَعَـمْ لَـوْ نَقَـلَ كَـلَامَ كُـلِّ وَاحِـدٍ إِلَى الْآخَـرِ فَهُـوَ ذُو لِسَـانَيْنِ وَذَلِـكَ شَـرٌّ مِـنْ النَّمِيمَـةِ؛ لِأَنَّـهُ يَصِـيرُ نَمَّامًـا بِمُجَـرَّدِ نَقْلِـهِ مِـنْ أَحَـدِ الْجَـانِبَيْنِ، فَـإِذَا نَقَـلَ مِـنْ كُـلٍّ مِنْهُمَـا فَقَـدْ زَادَ عَلَـى النَّمِيمَـةِ، وَإِنْ لَمْ يَنْقُـلْ كَلَامًـا، وَلَكِـنْ حَسَّـنَ لِكُـلِّ وَاحِـدٍ مِنْهُمَـا مَـا هُـوَ عَلَيْـهِ مِـنْ الْمُعَـادَاةِ مَـعَ صَـاحِبِهِ فَهُـوَ ذُو لِسَـانَيْنِ أَيْضًـا؛ وَكَـذَا إِذَا وَعَـدَ كُـلًّا مِنْهُمَـا بِأَنَّـهُ يَنْصُـرُهُ أَوْ أَثْـنَى عَلَـى كُـلٍّ فِي مُعَادَلَـةٍ أَوْ عَلَـى أَحَـدِهِمَا مَـعَ ذَمِّـهِ لَـهُ إِذَا خَـرَجَ مِـنْ عِنْـدِهِ فَهُـوَ ذُو لِسَانَيْنِ فِي كُلِّ ذَلِكَ.

وَقَـدْ مَـرَّ عَـنْ ابْـنِ عُمَـرَ أَنَّ الثَّنَـاءَ عَلَـى الْأَمِـيرِ فِي حَضْـرَتِهِ وَذَمِّـهِ فِي غَيْبَتِـهِ نِفَـاقٌ، وَمَحَلُّـهُ إِنْ اسْـتَغْنَى عَـنْ الـدُّخُولِ عَلَـى الْأَمِيرِ وَالثَّنَـاءِ عَلَيْـهِ، وَلَا عِبْـرَةَ بِرَجَائِـهِ مِنْـهُ مَـالًا أَوْ جَاهًـا، فَإِذَا دَخَلَ لِضَرُورَةِ أَحَدِهِمَا وَأَثْنَى فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَهَذَا مَعْنَى حَدِيثِ.

(حُبُّ الْجَاهِ وَالْمَالِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ): أَيْ: لِأَنَّهُ يُحْوِجُ إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْأُمَرَاءِ وَمُرَاعَاتِهِمْ وَمُرَاءَاتِهِمْ، فَإِنْ اضْطَرَّ لِلدُّخُولِ لِنَحْوِ تَخْلِيصِ ضَعِيفٍ لَا يُرْجَى خَلَاصُهُ بِدُونِ ذَلِكَ وَخَافَ مِنْ عَدَمِ الثَّنَاءِ فَهُوَ مَعْذُورٌ، فَإِنَّ اتِّقَاءَ الشَّرِّ جَائِزٌ.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: "إِنَّا لَنَكْشِرُ أَيْ نَضْحَكُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ، وَمَرَّ خَبَرُ: (أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِمُسْتَأْذِنٍ عَلَيْهِ ائْذَنُوا لَهُ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، فَسَأَلَتْهُ عَائِشَةُ فَقَالَ: إِنَّ شَرَّ النَّاسِ الَّذِي يُكْرَمُ اتِّقَاءً لِشَرِّهِ)، وَلَكِنَّ هَذَا وَرَدَ فِي الْإِقْبَالِ وَنَحْوِ التَّبَسُّمِ "أ. هـ.

****

الثالثة والسبعون: التقصير في أدب الهاتف

هذا الجهاز الذي وفّر على الناس كثيراً من أوقاتهم وأموالهم، وأنجز كثيراً من معاملاتهم وأمورهم، ورفع مشقة الذهاب والإياب، بل والسفر أحياناً لأمور تُقضى بواسطة الهاتف.

تسمع بخبر عن قريب أو صديق، إما خبراً مفرحاً، أو محزناً، وأنت في طرف من أطراف الأرض، وهو في الطرف الآخر، ففي ثوانٍ تدير قرص الهاتف وتتحدث معه، فإما أن تهنيه، أو تعزيه، وتأخذ أخباره، وتعرف أحواله، فلله الحمد على نعمه.

عدم المراعاة لوقت الاتصال، فإذا كان لك حاجةً في الاتصال فاذكر أن للناس أشغالاً وحاجاتٍ، ولهم أوقات طعام، وأوقات نوم وراحة، فعليك تَحَرِّي الوقت المناسب، مراعياً ظروف العمل، وارتباطات أخيك، وما عليه من واجبات ومسؤوليات، ومراعياً ما لدى أهل البيت من أوقات نوم، وراحة، وطعام.

حتى لا تُقلقهم، وتُؤذي مشاعرهم، وتُفسِد نومهم، وتقطعَهم عن أكلهم أو عملهم أو حاجاتهم، فيحصل بذلك الإيذاء النفسي، وإيذاء الغير منهي عنه في الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام: (لا تؤذوا المسلمين)، (رواه الترمذي عن ابن عمر).

قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاء ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ

نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: 58-60].

كذلك الإطالة بالمكالمة بلا داعٍ، والمقياس في ذلك أن لكل مقام مقالاً، ولكل مقال مقداراً؛ فاحذر الثرثرة، والإملال، والإطالة، والإثقال.

فتطويل المكالمة وتمديدها بغير رضا المتكلم مساهمة في ضياع ماله وارتفاع فاتورة مكالماته واستنزاف جيبه، وهذا ما لا يرضاه الإسلام في التعامل مع الناس، وإذا كان الله قد كَرِه القيل والقال في الكلام العادي الذي لا يضيع معه مال، فكيف بالكلام الكثير الفارغ التافه الذي كلما زاد واسترسل ازداد معه المال ضياعًا؟! قال الرسول الكريم: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا)، فذكر ما يرضاه الله وقال: (ويكره قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)، (رواه مسلم عن أبي هريرة)، والكراهة هنا تحريمية.

كذلك تسجيل صوت المتكلم دون إذنه وعلمه، فهذا ضرب من ضروب الخيانة، وإذا نشرت هذه المكالمة للآخرين فهي زيادة في التخون وهتك الأمانة.

قال الشيخ العلامة الدكتور بكر أبو زيد حفظه الله: "لا يجوز لمسلم يرعى الأمانة ويبغض الخيانة أن يسجل كلام المتكلم دون إذنه وعلمه مهما يكن نوع الكلام: دينياً، أو دنيوياً كفتوى، أو مباحثة علمية، أو مالية، وما جرى مجرى ذلك". (أدب الهاتف).

وقال حفظه الله: "فإذا سجلت مكالمته دون إذنه وعِلْمِه فهذا مكر وخديعة، وخيانة للأمانة، وإذا نشرت هذه المكالمة للآخرين فهي زيادة في التَّخون، وهتك الأمانة، وإن فعلت فعلتك الثالثة: التصرف في نص المكالمة بتقطيع، وتقديم، وتأخير، ونحو ذلك إدخالاً أو إخراجاً -دبلجة- فالآن ترتدي الخيانة مضاعفة، وتسقط على أم رأسك في: (أم الخبائث) غير مأسوف على خائن. والخلاصة أن تسجيل المكالمة

هاتفيـة أو غـير هاتفيـة دون علـم المـتكلم وإذنـه فجـور، وخيانـة، وجرحـة في العدالـة، ولا يفعلهـا إلا الضـامرون في الـدين، والخلـق، والأدب، لاسـيما إن تضـاعفت -كمـا ذكر- فاتقوا الله - عباد الله- ولا تخونوا أماناتكم، ولا تغدروا بإخوانكم"أ. هـ.

على كـل مـن أراد أن يتصـل هاتفيًّا بأحـد أن يتأكـد مـن صـحة الـرقم الـذي يطلبـه قبـل بـدء الاتصـال، حـتى لا يركِّـب رقمًـا خاطئًـا؛ لكـي لا يـوقظ نائمًـا، أو يـزعج مريضًـا، أو يقلـق آمنًـا، أو يُـروّع مطمئنًّـا، قـال الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام: (لا يحـل لرجـل أن يُروّع مسلمًا)، (رواه الطبراني في الكبير عن النعمان بن بَشِير ورواته ثقات).

ثالثًـا: علـى كـل مـن طلبـه أحـد في الهـاتف أن يجيبـه، ولا يقطـع عنـه مكالمتـه، فكثـير مـن النـاس إذا اتصـل بـه أحـد ولم يرغـب في الكـلام معـه قطـع عنـه المكالمـة، وأغلـق الخـط، وأطفـأ الجهـاز، وربمـا كـذَب وقـال لـه: أنا لسـتُ الـذي تطلبـه، أو لسـتُ في مكـان قريـب منـك. وهـذا لـيس مـن أخـلاق الإسـلام؛ لأن إجابـة المنـادي وردّ الجـواب وإجابـة الـدعوة مـن الواجبـات، قـال الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام: (للمسـلم علـى المسـلم سـت)، وذكـر منهـا: (ويجيبـه إذا دعـاه)، (رواه الترمـذي). قـال صـاحب تحفـة الأحوذي شارح جامع الترمذي: "أي: إلى دعوة أو حاجة".

ومـن لم يرغـب في الكـلام مـع أحـد فيصـارحه بـذلك، وليصـدق معـه، وليعتـذر لـه بعـذر مقبـول كالمعَـارِيض، روي عـن الرسـول أنـه قـال: (إن في المعَـارِيض لَمَنْدُوحَـة عـن الكذب)، وعلى منِ اعتُذِر إليه أن يقبل الأعذار، وليحسِّن الظن بمن اعتذر له.

الحـذر مـن إحـراج المتَّصَـلِ عليـه: كـأن يَمْتَحِنَ المتَّصِـلُ المتَّصَـلَ عليـه بقولـه: هـل تعـرفني؟ فـإذا قـال: لا، بـدأ يلومـه، ويعاتبـه علـى نسـيانه لـه، وعـدم تخزينـه لـرقم هاتفـه، مـع أن المتَّصَـل عليـه قـد يكـون ذا مكانـة في العلـم أو القـدر أو السـن، وقـد يكـون ممـن لا يخـزن الأرقـام في جوالـه، وقـد يكـون جوالـه مليئـاً ولا يتسـع للمزيـد؛ فـأولى للمتصـل أن يخـبر عن اسمه في البداية إن كان يريد أن يُعْرف، وأن ينأى عن تلك الأساليب المحرجة.

جاء في الصحيحين جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما- قال: أتيت النبي - ﷺ- فدعوت، فقال النبي - ﷺ-: (من هذا؟) فقلت: أنا، فخرج وهو يقول: (أنا أنا!!)، (البخاري ومسلم).

النظر في جوالات الآخرين واستعراض الرسائل دون رضاهم: فذلك من كشف الستر، ومن التطفل المذموم، بل هو ضرب من ضروب الخيانة، وباب من أبواب سوء الظن؛ لأن الناظر في رسائل جوال غيره ربما رأى رسالة ففهمها على غير وجهها، أو ظن أنها أرسلت إلى امرأة يعاكسها وقد يكون صاحب الجوال أرسلها إلى زوجته، وقد تكون الرسالة وردت إليه وهو لم يرض بها، فيسيء الناظرُ الظنَّ في صاحبه وهو براء من ذلك. وهذا يؤكد ما مضى التنبيه عليه من حفظ الجوال، والحذر من إلقائه بين الآخرين، ويوجب أن يستحضر العاقل أنه ربما استعرض الجوالَ غير صاحبه فيرى الرسائل ويكشف الستر، وربما أساء الظن.

****

الرابعة والسبعون: ضيقُ الأفق

فبعض الناس ضيق الأفق، لا يتسع صدره للمحاورة ولا للنقاش، فهو يغلق عليك الطريق منذ أول وهلة مقرراً رأيه ومسفها لما سواه.

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6]، أي: اتركه حتى يسمع النور، واتركه حتى يسمع الوحي، واجعل له فرصة حتى يظهر لك ما في صدره.

ولا يفوتنا هنا: قصة"عتبة بن ربيعة وهو من رؤساء الشرك في قريش، عندما ذهب إلى النبي ﷺ ليحاوره، فتركه ﷺ حتى انتهى وفرغ من قوله وهو يعلم أنه باطل وإفك وزور.

ثم قال ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد".

وكأنه ﷺ مستعد لسماع محاضرة ودرس أطول من هذا المشرك.

لأنه ﷺ يريد هداية الناس، فلا بد أن يسمع منهم ليعرف عللهم فيعالجهم بموجبها.

فما بالك إذا كان المحاور لك أخا من إخوانك المؤمنين؟ أفلا يكون أحق بالسماع من ذلك المشرك؟

يقول الشافعي: "قولنا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب ".

بعضهم كما قيل: "جبان رعديد، يخاف الأمور الصغيرة، ويشتد فزعه من الحوادث التافهة الحقيرة، ويغضب أشد الغضب للكلمة النابية، ويصل إلى أقصى حد من الغضب للحوادث اليومية التي يكفي لمرورها غض الطرف عنها، ويمكن بقليل من سعة العقل، ورحابة الصدر أن ينظر إليها، ويبتسم من حدوثها، ولكنه يمعن في الألم منها؛ لضيق أفقه، وقلة تحمله.

فالـذي يؤمـل أن يسـير النـاس كمـا يشـتهي، ويعملـوا علـى وفـق مـا يريـد فخـيرٌ لـه ألا ينتظر طويلًا؛ لأنه قد رام مستحيلًا.

ولكـن خـير مـن ذلـك أن تأخـذ النـاس كمـا هـم، وأن تتلقـى شـرورهم، وأعمـالهم الصـغيرة بصدر رحب، وأفق واسع، ونفس مطمئنة.

وبالجملـة فمـن ضـاق صـدره، وقـلَّ احتمالـه تنغصـت حياتـه، ولم يصـدر عنـه خـير كثـير، أو عمل كبير.

قـال الرافعـي: "إذا اسـتقبلت العـالم بالـنفس الواسـعة رأيـت حقـائق السـرور تزيـد وتتسـع، وحقـائق الهمـوم تصـغر وتضـيق، وأدركـت أن دنيـاك إذا ضـاقت فأنـت الضـيِّق لا هـي" (مع المعلمين)

أبرز أسباب ضيق الأفق:

1 – الجهل وقلَّة البضاعة.

2 – قلـة الفهـم والـوعي؛ وهمـا أمـران زائـدان علـى مجـرَّد الجهـل، فـرب صـاحب علْـمٍ لا يفيـده علمـه كبـيرَ فائـدةٍ بسـبب ضـعف فهمـه وعسـر إدراكـه؛ لأنَّـه وقـف عنـد حـروف الألفاظ، ولم ينفذ إلى معانيها ومراميها.

قـال ابـن القـيم – رحمـه الله –: "ربّ شـخص يفهـم مـن الـنص حكمـاً أو حكمـيْن، ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين".

3 – التقليـد الأعمـى الـذي يسـد منافـذ التفكـير، ويجعـل المـرء مجـرد تابـع لغـيره، فـلا يسـتطيع أن يبـني رأيـه وفكـره بنـاءً صـحياً متجـرداً؛ ولهـذا تجـد أنَّ المقلـد لشـيخ أو لمذهب أو لطائفة من أكثر الناس ضيقاً في الأفق؛ وذلك لأنه لم ينظر إلا من نافذة.

4 – الاكتفـاء بالنظـر إلى ظـواهر الأمـور المجـردة، والتعلـق بقشـورها القريبـة، دون النفـاذ إلى أعماقها، أو النظر إلى أبعادها ومقاصدها.

وانظر إلى صفة المنافقين في القرآن ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ﴾ [المنافقون: 4]. فهل تكفي هذه الصفة الظاهرية

لأجسامهم وأقوالهم في إعطاء تصور صحيح متكامل عن هؤلاء القوم؟

القرآن يوضح حقيقة هذا المظهر ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4].

5 – الخلط في تقدير المصالح والمفاسد، والجهل في ترتيب الأولويات، مما قد يؤدي إلى التعلق بالمصلحة القريبة العاجلة، وإن ترتب عليها مفاسد كبيرة في العاجل أو الآجل، أو يؤدي إلى تقديم المصالح المفضولة على حساب المصالح الفاضلة. (الصويان).

****

الخامسة والسبعون: المن في العطية

يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264].

قال ابن كثير رحمه الله: "يمدح الله تبارك وتعالى الّذين ينفقون في سبيله ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات، والصّدقات منّا على من أعطوه، فلا يمنّون به على أحد، ولا يمنّون به لا بقول ولا بفعل، وقوله: وَلا أَذىً، أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها، يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثمّ وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، أي ثوابهم على الله، لا على أحد سواه وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ، أي على ما خلّفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدّنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها؛ لأنّهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك) ".

وعن أبي ذر – ﷺ – عن النبي – ﷺ – قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم" قال: فقرأها رسول الله ﷺ، ثلاث مراتى، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: "المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب"، (رواه مسلم).

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة ولد زِنْيَةٍ ولا منَّانٌ ولا عاقٌ ولا مدمن خمرٍ)، (رواه ابن حبان وصححه الألباني).

ويقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 264].

ينهى عباده تعالى لطفا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذى ففيه أن المنّ والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: 2]، فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات. (السعدي).

سمع ابن سيرين رجلاً يقول لآخر: "أحسنت إليك وفعلت، وفعلت، فقال له ابن سيرين: "اسكُت فلا خير في المعروف إذا أحُصى ".

و أنشد الشافعي:

لا تحملنَّ من الآثام	بأن يمنوا عليك منه
واختر لنفسك حظَها	واصبر فإن الصبرَ جُنة
منُ الرجالِ على القلوب	أشدُ من وقعِ الأسنة

و قال آخر:

أفسدت بالمنِّ ما قدمن من حسن	ليس الكريمُ إذا أعطى بمنانِ

ممن يقع المن؟

قال القرطبي رحمه الله: "المن يقع غالباً من البخيل والمعجب:

فالبخيل: تعظم في نفسه العطية وإن كانت حقيرة في نفسها.

والمعجب: يحمله العُجب على النظر لنفسه بعين العظمة، وأنه مُنعِم بماله على المعْطَى. وموجب ذلك كله الجهل، ونسيان نعمة الله فيما أنعم به عليه"أ هـ.

قال رجل لبنيه: "إذا اتخذتم عند رجل يدا فانسوها".

وقالوا: "المنة تهدم الصنيعة".

المن قلة في المروءة:

أهدى رجل للأعمش بطيخة فلما أصبح قال: يا أبا محمد كيف كانت البطيخة؟ قال: طيبة! ثم أعاد عليه ثانياً: كيف كانت البطيخة؟ قال: طيبة! فأعادها ثالثاً فقال: إن خففت من قولك وإلا قئتها.

وأهدى أبو الهذيل الى أستاذ له ديكاً، فكان بعد ذلك إذا خاطبه أرّخ بديكه، فيقول: أنه كان يوم أهديت اليك الديك، وأنه كان قبل الديك بكذا، وبعد الديك بكذا، وكلما ذكر شيئاً بجمال أو سمن قال: هو أحسن من الديك أو أسمن من الديك الذي أهديته إليكم. وأصبح هذا مثلاً لمن يستعظم الهدية.

****

السادسة والسبعون: الحديث بما لا يناسب المقام

فتراه يتكلم بالهزل في مواقف الجد، ويحاول إضحاك السامعين في مجلس يسوده الحزن، ومن الناس من يخاطب الأذكياء بخطاب لا يناسب إلا قاصري العقول، وربما خاطب محدود الذكاء بكلام لا تدركه أفهامهم، ومن هنا يفقد الكلام قيمته، ويصبح ضربًا من الهذيان، بل ربما عرض صاحبه للمز للناس وعيبهم إياه.

ولئن كان مراعاة مقتضى الأحوال حسنًا مطلوبًا من كل أحد ـ فلهو من الخطيب حال الخطابة أولى وأحرى؛ فلكل مقام مقال، ولكل جماعة من الناس لسان تخاطب به؛ فالأغنياء يرضي كبرياءهم نزعٌ من الكلام لا يقتضيه مقام الخطبة ليسوا كذلك.

والعلماء يجتذبهم الثناء الحسن، وأن يكون الكلام الذي يلقى عليهم أقرب إلى العمق والسلامة؛ ليسترعي انتباههم. ثم إن الجماعة الثائرة تخاطب بعبارات هادئة. والجماعة الخنسةُ تخاطب بعبارات مثيرة للحمية، موقظة للهمة، حافزة للعزيمة. والجماعة التي شطت وركبت رأسها تخاطب بعبارات فيها قوة العزم، ونور الحق، وفيها إرعادة المنذر، ويقظة المنقذ، وفيها روح الرحمة، وحسن الإيثار؛ ليجتمع الترهيب مع الترغيب، ومع سيف النقمة ريحان الرحمة. لذلك وجب على الخطيب أن يكون قادرًا على إدراك حال الجماعة، وما تقتضيه تلك الحال، والإتيان بالأسلوب الذي يلائمها؛ ليصل إلى مواضع التأثير فيها. (أخطاء في أدب المحادثة).

****

السابعة والسبعون: احتقاره لصنعته

لا خلاف بين الفقهاء في أنّ الاحتراف بصنعة يحرم الاحتراف بها شرعاً تسقط المروءة والعدالة.

واختلفوا في سقوط المروءة بالاحتراف بصنعة دنيئة عرفاً مباحة شرعاً.

فذهب المالكيّة والشّافعيّة إلى أنّ الاحتراف بصنعة دنيئة عرفاً تنخرم المروءة بها وإن كانت مباحةً شرعاً، كحجامة وكنس لزبل ونحوه ودبغ وكقيّم حمام وحارس وقصّاب وإسكاف ممّن لا تليق به، وليست مهنة آبائه ولم يتوقّف عليها قوته وقوت عياله، لإشعار ذلك بقلّة مروءته، أما إذا كان ممّن تليق به أو كانت حرفة آبائه أو توقّف عليها قوته وقوت عياله فلا تسقط المروءة بها في الأصحّ، لأنّه لا يعيّر بها في هذه الحالة، ولأنّها حرفة مباحة يحتاج إليها النّاس.

وفي قول للشّافعيّة والحنفيّة تسقط مروءته بها، لأنّ في اختياره لها مع اتّساع طرق الكسب إشعاراً لسقوط الهمّة وقلّة المروءة.

وقال الحنفيّة في الصّحيح: تقبل شهادة أصحاب الصّنائع الدّنيئة إذا كان غالب أحوالهم الصّلاح.

قال السّمنانيّ: من استقام منهم في الطّريقة وعرف بصدق اللّهجة في بيعه وشرائه ليست الصّناعة بضائرة له، ولولا ذلك لما عرفنا بشهادتهم قيم الدّوابّ وعيوب الحيوان، ولا بدّ في كلّ صنعة من مستور وصالح مستقيم، وعلى هذه الأحوال وجد النّاس بعضهم بعضاً. وذهب الحنابلة: إلى أنّه لا تسقط المروءة بحرفة مباحة، فتقبل شهادة من صناعته دنيئة عرفاً، كالحجّام والكنّاس والحائك والحارس.

أما ما اتّخذه أرباب الدنيا من العادات الّتي لم يقبّحها السّلف ولا اجتنبها أصحاب رسول الله ﷺ مثل تقذرهم من حمل الحوائج والأقوات للعيال، ولبس الصوف، وركوب الحمار وحمل الماء على الظّهر والرّزمة إلى السوق فلا يعتبر شيء من ذلك من المروءة الشّرعيّة، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يحمل الواحد منهم الماء لأهله، ويحمل الرّزمة إلى السوق، وقد «ركب المصطفى ﷺ الحمار»، «واحتذى المخصوف» مع كونه قد أوتي مكارم الأخلاق فلا ازدراء في ذلك، ولا إسقاط مروءة.

****

الثامنة والسبعون: التجسس

الله تعالى يقول ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ يقول: (ولا تجسسوا).

قال ابن جرير رحمه الله تعالى قوله: "﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره، ثم ذكر أثر ابن عباس: نهى الله المؤمن من أن يتتبع عورات المؤمن.

وقال قتادة: هل تدرون ما التجسس، أو التجسس؟ هو أن تتبع، أو تبتغي عيب أخيك لتطلع على سره"أ هـ.

بل في صحيح البخاري، في كتاب التعبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: (من تحلم بحلم لم يره، كلف أن يعقد بين شعيرتين يعني يوم القيامة وليس بفاعل، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صب في أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ).

والآنك هو: الرصاص المذاب، والجزاء من جنس العمل، فكما أنه تصنت على الناس بأذنه، فإنه يعاقب يوم القيامة بأن يصب الآنك -وهو الرصاص المذاب- في أذنه يوم القيامة، هذا جزاء من تسمع أو استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، وهذا كمن نظر إلى قوم وهم لا يأذنون له في النظر في دارهم مثلاً، كما في الحديث: (من نظر إلى قوم ففقئوا عينه فعينه هدر) وهذا في الصحيح.

عن أبي قلابة، أن عمر بن الخطاب، حدث أن أبا محجن الثقفي شرب الخمر في بيته هو وأصحابه، فانطلق عمر حتى دخل عليه فإذا ليس عنده إلا رجل واحد، فقال له أبو محجن يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يحل لك، قد نهاك الله عن التجسس،

فقال عمر: ما يقول هذا؟ فقال زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم: صدق يا أمير المؤمنين هذا التجسس قال: فخرج عمر وتركه.

قال أبو حاتم البستي رحمه الله في روضة العقلاء: "التجسس من شعب النفاق، كما أن حسن الظن من شعب الإيمان، والعاقل يحسن الظن بإخوانه وينفرد بهمومه وأحزانه، كما أن الجاهل يسيء الظن بإخوانه، ولا يفكر في جناياته وأشجانه".

وقال أيضاً: "الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه ولم يُتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه وتعذر عليه ترك عيوب نفسه"أ هـ.

(إني لم أومر أنْ أُنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم).

قال بعض الحكماء: وترك التجسس عن عيوب الناس يثمر صلاح العيوب.

قال بعض العلماء: "اعلم أن من يتجسس على عورات المسلمين، وأحوالهم الخاصة وبخاصة منهم المجاهدين! لينقلها إلى أعدائهم من الكفرة المجرمين؛ سواء كان كفرهم كفراً أصلياً أم كان كفر ردة فهو كافر مثلهم، وموالٍ لهم الموالاة الكبرى التي تخرجه من دائرة الإسلام، يُقتل كفراً ولا بد".

وقال ﷺ: (من أكل بمسلمٍ أكلةً فإن الله يُطعمه مثلها من جهنم، ومن كُسِي ثوباً برجل مسلم فإن الله عز وجل يكسوه من جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام رياءٍ وسمعة فإن الله يقوم مقام رياء وسمعة يوم القيامة)، (رواه أبو داود).

****

التاسعة والسبعون: البخل

قال الجاحظ: "البخل خلق مكروه من جميع النّاس، إلّا أنّه من النّساء أقلّ كراهية، بل قد يستحبّ من النّساء البخل (بمال أزواجهنّ إلّا أن يؤذنّ بالجود)، فأمّا سائر النّاس فإنّ البخل يشينهم، وخاصّة الملوك والعظماء، فإنّ البخل أبغض منهم أكثر ممّا هو أبغض من الرّعيّة والعوامّ، ويقدح في ملكهم لأنّه يقطع الأطماع منهم ويبغّضهم إلى رعيّتهم"أ هـ.

يقول الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: 24].

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن النبي ﷺ قال لبني ساعدة: "من سيِّدُكم؟"قالوا: الجَدُّ بن قيس؛ قال: "بِمَ سَوَّدتموه؟"قالوا: إنه أكثرنا مالاً، وإنا على ذلك لنَزُنُّه بالبخل؛ فقال النبي ﷺ: (وأيُّ داءٍ أدوى من البخل؟)، قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال: (بشْر بن البَرَاء بن مَعْرور).

وفي رواية: (من سيِّدُكم؟) فقالوا: الجد بن قيس، على بخل فيه؛ فقال: (وأيُّ داءٍ أدوى من البخل! سيِّدُكم الجَعْدُ الأبيض عمرو بن الجموح).

قال ابن القيم في الوابل الصيب: "والسخي قريب من الله تعالى، ومن خلقه، ومن أهله، وقريب من الجنة، وبعيد من النار، والبخيل بعيد من خلقه، بعيد من الجنة، قريب من النار، فجود الرجل يحببه إلى أضداده، وبخله يبغّضه إلى أولاده"أ هـ.

قال بشر بن الحارث الحافي: "النظر إلى البخيل يُقسِّي القلب، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين".

وقال بشر الحافي أيضاً: "لا تزوج البخيل ولا تعامله ".

وقال بعض الأدباء: "البخيل ليس له خليل ".

فتجد من الناس من يبخل بفضل ماله، مع أن لديه من المال ما يكفيه وذريته آلاف السنين لو عاشوها.

ومن الناس من يبخل بجاهه، فلا يبذله في سبيل الخير من إعانة لمظلوم، أو شفاعة حسنة لمستحقها، أو نحو ذلك.

ومن الناس من يبخل بنصحه، فلا ينصح أحدا، بل ربما لو استنصح لبخل بالنصيحة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى في كتابه الاستقامة: "إنّ الجميع يتمادحون بالشّجاعة والكرم، حتّى إنّ ذلك عامّة ما تمدح به الشّعراء ممدوحيهم في شعرهم، وكذلك يتذامّون بالبخل والجبن. ثمّ قال: ولما كان صلاح بني آدم لا يتمّ في دينهم ودنياهم إلّا بالشّجاعة والكرم، بيّن الله سبحانه أنّه من تولّى عنه بترك الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، ومن تولّى عنه بإنفاق ماله أبدل الله به من يقوم بذلك. فقال: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾"أ هـ.

يقول أنس بن مالك ﷺ كنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل، فكنت أسمعه كثيرا يقول: (اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدّين، وغلبة الرّجال)، (رواه البخاري ومسلم).

قال أبو محمّد إسحاق الموصليّ- رحمه الله تعالى-:

وآمرة بالبخل قلت لها أقصري ... فليس إلى ما تأمرين سبيل
أرى النّاس خلّان الجواد ولا أرى ... بخيلا له في العالمين خليل
وإنّي رأيت البخل يزري بأهله ... فأكرمت نفسي أن يقال بخيل

ومن خير حالات الفتى لو علمته إذا نال شيئا أن يكون ينيل
عطائي عطاء المكثرين تكرّما ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأي أمير المؤمنين جليل

قال الجاحظ: ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر. وذلك أن رجلاً من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر، وينزل على رجل من أهل العراق، فيكرمه ويكفيه مؤنته. ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقي: ليت أني رأيتك بمرو، حتى أكافئك لقديم إحسانك، وما تجدد لي من البر في كل قدمة. فأما هاهنا فقد أغناك الله عني.

قال: فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية. فكان مما هون عليه مكابدة السفر، ووحشة الاغتراب، مكان المروزي هناك. فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره، وفي عمامته وقلنسوته وكسائه، ليحط رحله عنده، كما يصنع الرجل بثقته، وموضع أنسه.

فلما وجده قاعداً في أصحابه أكب عليه وعانقه. فلم يره أثبته، وسأل به سؤال من رآه قط. قال العراقي في نفسه: لعل إنكاره إياي لمكان القناع. فرمى بقناعته وابتدأ مسألته. فكان له أنكر. فقال: لعله أن يكون إنما أتي من قبل العمامة، فنزعها. ثم انتسب وجدد مسألته، فوجده أشد ما كان إنكاراً. قال: فلعله إنما أتي من قبل القلنسوة.

وعلم المروزي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل. قال: لو خرجت من جلدك لم أعرفك!.

****

الثمانون : الحسد

داء الحسد قديم في الناس، قال رسول الله ﷺ: (دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ)، (رواه الترمذي).

ونهى النبي ﷺ عن الحسد فقال: (ولا تحاسدوا).

وقال بعض السلف: أول خطيئة هي الحسد، حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله على الحسد والمعصية.

وقال ابن سيرين رحمه الله: "ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على الدنيا وهي حقرة في الجنة؟ وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟".

وقال معاوية ﷺ: "كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة لا يرضيه إلا زوالها".

ولهذا قيل:

كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك من حسد

قال الغزالي في الإحياء: "اعلم أن الحسد إنما يكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات... ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد إذ مقصد

البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون وإنما ينازعه فيه بزاز آخر إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق فلا جرم يكون حسده للجار أكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض..."أ هـ.

قال معاوية ﷺ: ليس في خصال الشر أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل للمحسود. وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى:

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وقال بكر بن عبد الله المزني التابعي: "كان رجل يغشى بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء سيكفيه إساءته. فحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر. فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: ندعوه إليك، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر. فقال له: انصرف حتى أنظر. فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته، فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء سيكفيه إساءته. فقال الملك: ادن مني. فدنا، فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم. فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا صدق. قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله: إذا أتاك كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به إلي. فأخذ الكتاب وخرج. فلقيه الرجل الذي سعى به، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: خط الملك له بصلة. قال: هبه لي! فقال: هو لك.

فأخـذه ومضـى بـه إلى العامـل. فقـال لـه العامـل: في كتابـك أن أذبحـك وأسـلخك. قـال: إن الكتـاب لـيس هـو لي، فـالله الله في أمـري حـتى ترجـع إلى الملـك. فقـال: لـيس لكتـاب الملـك مراجعـة. فذبحـه وسـلخه وحشـا جلـده تبنـاً وبعـث بـه. ثم عـاد الرجـل إلى الملـك كعادتـه، وقـال مثـل قولـه، فعجـب الملـك، وقـال: مـا فعـل الكتـاب؟ فقـال: لقيـني فـلان فاسـتوهبه مـني فوهبتـه لـه. قـال لـه الملـك: إنـه ذكـر لي أنـك تـزعم أني أبخـر. قـال: مـا قلـت ذلـك. قـال: فلـم وضـعت يـدك علـى فيـك؟ قـال: لأنـه أطعمـني طعامـاً فيـه ثـوم فكرهت أن تشمه. قال: صدقت، ارجع إلى مكانك، فقد كفى المسيء إساءته".

****

الحادية والثمانون: الجشع

هو الحرص الشديد، والطمع في حق الغير.

والباعث عليه كما يقول الماردى: "شيئان، الشره، وقلة الأنفة، فلا يقنع بما أوتى وإن كان كثيرا لأجل شرهه، ولا يستنكف مما منع وإن كان حقيرا لقلة أنفته، وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدرا، ويرى المال أعظم خطرا، فيرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مغنما"أ هـ.

والجشع في باب المال يجر صاحبه إلى حرمان من فضائل هامة،"ومن أحب المال حتى استعبده المال لم يؤهل لهذه الرتبة (رتبة الفضائل) فإن حرصه على جمع المال يصده عن استعمال الرأفة وامتطاء الحق وبذل ما يجب، يضطره إلى الخيانة والاختلاق والزور ومنع الواجب.

ومن الجشع الحرص على أن يتصدر اسمه المجالس يجر إلى الكذب والرياء والتصنع، وقبول الدنية سرا، والتظاهر بضدها علنا، رغبة في إرضاء من يريد منه مكانة أو صلة وبرا.

فالجشع الذي هو أسوأ الطمع والحرص مرض نفسى يسبب لصاحبه الهم والذل، لأنه لا يستريح ولا يقنع حتى ولو يحقق ما يسعى إليه، فيظل في كدر دائم، وذل للحاجة مستمر.

وعلاجه في النزاهة، وهي الترفع عن المطامع الدنية، وفي القناعة والزهد، ففي القناعة رضا تسكن النفس به وتستريح، وفى الزهد استعلاء على ما يذل ففيه عزة، لأنه قيل: "أذل الحرص أعناق الرجال".

وهذا لا يتحقق إلا لمن آمن بأن للعبد رزقا يطلبه كما يطلبه أجله، وآمن بأنه (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)، وآمن بأنه (قد أفلح من أسلم

ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه)، وعلم نصيحة رسول الله لأمته: (إن روح القدس نفث فى روعى: إن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، ولا يحملنكم إبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصى الله تعالى، فإن الله عزوجل لا يدرك ما عنده إلا بطاعته، وكل هذه النصائح النبوية صدى لآيات الله فى الرزق ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6].

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 56- 58]. (أبو اليزيد العجمي).

****

الثانية والثمانون: عدم التأدب بآداب الخلاف

فاختلافك مع أخيك في الرأي لا يؤثر على مودته في قلبك، ولك في الإمام أحمد قدوة، يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن الإمام اسحاق بن راهويه: "لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق بن راهويه، وإن كان يخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً".

آداب الاختلاف:

1) البدء بنقاط الاتفاق قبل نقاط الخلاف.

2) عدم الجرح والاستطالة، فالمتخالفان لا بد أن يتأدبا بأدب شرعي فلا يستطيل أحدهما على الآخر.

3) عدم رفع الصوت، فرفع الصوت في حال الخلاف مدعاة لدخول الشيطان ومدعاة للاستطالة ولهذا حذر الله منه فقال تعالى ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: 148].

4) قبول الحق والإنصات له، فلا بد أن يكونا المختلفان يطلبان الحق وينصتان له ويقبلانه، فالذي يصم عن الحق ولا يقبله لا يمكن أن يتأدب بأدب الخلاف أصلا، ولهذا قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 18] فهم يستمعون أولا ثم يتبعون.

ولهذا قال الشافعي رحمه الله تعالى: "ما ناظرت أحدا إلا سألت الله أن يظهر الحق على لسانه قيل ولم؟ قال: إن ظهر على لسانه عرفت الحق ولم يفتن وإن ظهر على لساني خشيت أن أفتن".

5) عدم التعصب والاحتكار، فلا بد أن يأتي المتناظران المختلفان منطلقين من مبدأ طلب الحق وللاستسلام له إذا حصل، الشافعي رحمه الله كان يقول: "رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

6) الإنصاف، بمعنى أن يكون الإنسان منصفا لخصمه، فإذا وقع هو في خطأ سهل عليه الاعتراف به.

كما قال عمر بن الخطاب ﷺ في كتابه إلى أبي موسى الأشعري: "ولا يمنعك قضاء قضيته فيه بالأمس فراجعت فيه نفسك فهديت فيه إلى رشدك أن تراجع إلى الحق فإن الحق قديم لا ينقضه شيء، وإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل".

7) الأمانة في النقل.

8) حسن الظن والتماس أحسن المخارج، ولهذا قال علي ﷺ في قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: 47]، قال: نزلت فينا أصحاب مُحَمَّد ﷺ حين اختلفنا. (الددو).

****

الثالثة والثمانون: إيذاؤه وهو نائم

البعض ربما يأتي وإخوانه نيام، فيقوم بازعاجهم، إما برفع الصوت، أو بالأضواء، أو بكثرة الدخول والخروج، أو بعمل شيء يصدر أصواتاً، كأن يشغل التلفاز، أو المسجل، أو يصلح شيئاً يصدر صوتاً.

فيستحب خفض الصوت بالسلام ليلا، أو إذا أتى قوما بينهم نيام، عن المقداد ﵁ قال: "كنا نرفع للنبي ﷺ نصيبه من اللبن، فيجيء من الليل، فيسلم تسليما لا يوقظ نائما، ويسمع اليقظان" (رواه مسلم).

قال اللاحقي

اخفض الصوت إن نطقت بليل   والتفت بالنهار قبل الكلام

واحذر الحيط أن يكون وراءه   سارق السمع واعيا للكلام

****

الرابعة والثمانون: أخذ أغراضه من دون إذن

البعض يفهم مفهوم الأخوة فهماً خاطئاً، يظن أن كل ما يملكه أخوه ملكاً له، فتارة يلبس حذائه، وتارة يلبس ثوبه، وتارة يأخذ سيارته، ربما لا يسلم غرضاً من أغراضه إلا وتصرف فيها، وهذا مما يفسد الأخوة.

كم من أخ رأيته يمشي حافي القدمين فإذا سألته أين حذائك؟!!!

ربما كان الجواب لا أدري من أخذه من الأخوة.

وأخر يقول لي هل ترى اللباس الذي على فلان، هذا لباسي أخذه من دون استئذان، جلست أياما أبحث عنها وها هي على جلده.

وعن السائب بن يزيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يأخذن أحدكم متاع أخيه جادا ولا لاعبا، وإذا أخذ أحدكم عصا أخيه فليردها عليه)، (رواه أبو داود).

****

الخامسة والثمانون: إحراجه

في الحديث الصحيح: (ولا يحل لامرئ من مال أخيه شيء إلا بطيب نفس منه)، (رواه أحمد).

وكما قيل "ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام" ليس بحديث ولكن معناه صحيح.

لقوله عليه الصلاة والسلام: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، والضيافة ثلاثة أيام، فما زاد بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه). (الحديث رواه البخاري).

وفي رواية لمسلم: (ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه)، قالوا: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟ قال: (يقيم عنده ولا شيء له يقريه به).

قال ابن كثير: "وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده" أ هـ.

****

السادسة والثمانون: أذيته إذا كان جاراً

في حـــديث أَبي هريـــرة ﷺ: أن النَّـــبيّ ﷺ، قَـــالَ: (واللهِ لاَ يُـــؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُـــؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُـــؤْمِنُ!) قِيـــلَ: مَـــنْ يَا رَسُـــول الله؟ قَـــالَ: (الَّـــذِي لاَ يَأمَـــنُ جَـــارُهُ بَوَائِقَـــهُ!)، (مُتَّفَـــقٌ عَلَيهِ).

البوائق: جمع بائقة وهي الداهية أي الغوائل والشرور.

روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: (من أغلق بابه دون جاره مخافة على أهله وماله فليس ذلك بمؤمن وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه. أتدري ما حق الجار إذا استعانك أعنته وإذا استقرضك أقرضته وإذا افتقر عدت عليه وإذا مرض عدته وإذا أصابه خير هنأته وإذا أصابته مصيبة عزيته وإذا مات اتبعت جنازته ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها وإن اشتريت فاكهة فأهد له فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها). (رواه الطبراني وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب).

وقد بين رسول الله ﷺ خطورة الجار المجرم على جاره وعظم حق الجوار بقوله (لأن يزني الرجل بعشر نسوة خير له من أن يزني بامرأة جاره، ولأن يسرق من عشرة أبيات أيسر له من أن يسرق من بيت جاره)، (أخرجه الإمام أحمد وغيره من حديث المقداد ﷺ).

إن مصيبة الإنسان بجاره أعظم من مصيبته بالبعيد عنه، فإن جاره قريب منه ويعرف عوراته ومواطن الضعف في بيته، فالتحرز منه أصعب من التحرز من غيره بكثير، فلهذا كان إثم من اعتدى على عرض جاره أو بيته مضاعفا عشر مرات على ما إذا فعل ذلك بالبعيد عنه.

وقد بين النبي ﷺ أن أذية الجار سبب من أسباب دخول النار حتى لو كان للمؤذي أعمال صالحة أخرى وذلك فيما رواه أحمد والبزار رحمهما الله تعالى من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رجل: يارسول الله إن فلانة، فذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: (هي في النار)، قال: يارسول الله فإن فلانة، فذكر من قلة صيامها وصلاتها وأنها تصدَّق بالأثوار من الأقط، لاتؤذي بلسانها جيرانها، قال: (هي في الجنة).

ولقد كان العرب في الجاهلية والإسلام يحمون الذمار، ويتفاخرون بحسن الجوار، وعلى قدر الجار يكون ثمن الدار.

اطلب لنفسك جيراناً تجاورهم لا تصلح الدار حتى يصلح الجار

نعم والله إن الدار لا تصلح حتى يصلح الجار:

يلومونني أن بعت بالرخص منزلي ولم يعرفوا جاراً هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملام فإنها بجيرانها تغلوا الديار وترخص

ويقول عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وقال أبو حازم: كان أهل الجاهلية أحسن منكم جواراً، فإن قلتم: لا، فبيننا وبينكم قول شاعرهم:

ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضر جاراً لي أجاوره ألا يكون لبيته ستر

أعمـــــى إذا جـــــارتي بـــــرزت حـــتى يـــواري جـــارتي الخـــدر

إن الجـار الصـالح أخـو لـك لم تلـده أمـك، يـذب عـن عرضـك، ويعـرف معروفـك، ويكتم عيوبك، ويفرح إذا فرحت، ويتألم إذا حزنت.

وصدق رسول الله إذ يقول: (أربع من السعادة وذكر منها الجار الصالح)، ثم قال: (أربع من الشقاوة: وذكر منها الجار السوء)، رواه ابن حبان، وكان رسول الله، يتعوذ من جار السوء فيقول: (اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول).

وقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (إذا أثـنى عليـك جيرانـك أنـك محسـن؛ فأنـت محسـن، وإذا أثنى عليك جيرانك أنك مسيء؛ فأنت مسيء).

تأخـذ صـوراً شـتى؛ فمـن مضـايقةِ الجـارِ إيقـافُ السـيارات أمـام بابـه حـتى يضـيقَ عليـه دخولُ منزله، أو الخروج منه.

ومن ذلك مضايقته بالأشجار الطويلة التي تطل على منزله، وتؤذيه بتساقط الأوراق عليه.

ومـن ذلـك تـرك المياه تتسـرب أمـام منـزل الجـار ممـا يشـق معهـا دخـول الجـار منزلـه، وخروجه منه.

ومن ذلك إيذاء الجيران بالروائح المنتنة المنبعثة من مياه المجاري.

وقـد لا يُـلام المـرء علـى هـذا في بدايـة الأمـر، ولكـن يُـلام إذا لم يحـرص علـى إصـلاحها أو تعاهدها.

ومـن ذلـك مضـايقتهم بمخلفـات البنـاء وأدواتـه؛ حيـث تمكـث طـويلاً أمـام بيـوت الجيران بلا داع.

ومـن مضـايقتهم حفـر الآبار وتركهـا مكشـوفة دون وضـع حمايـة لهـا، فتكـون عرضـة لسقوط أحد أبناء الجيران فيها.

ومن المضايقة للجيران وضع الزبل أمام أبوابهم. (فقر المشاعر).

****

السابعة والثمانون: رد الهدية

حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أجيبوا الداعي، ولا تردوا الهدية، ولا تضربوا المسلمين). (البخاري في الأدب المفرد وصححه الألباني في صحيح الجامع).

على المسلم أن يقبل الهدية، فيقبل الهدية ولو كانت يسيرة، فإن رد الهدية وعدم قبولها فإنه يذهب المحبة، ويقطع أواصرها.

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو قائد الجيش ومعلم البشرية أُرسِلت له فخذ أرنب طُبِخَت، فَقَبِلَها ﷺ ودعا لأبي طلحة.

وكان يهدى إليه سمن فيأخذه ولكنه يرد ويثيب على الهدية، فيقول عليه الصلاة والسلام: (لو دعيت إلى كراع لأجبته، ولو أهدي إليّ ذراع لقبلت) وهذا من تواضعه ﷺ.

فالحكمة أنك تقبل الهدية إذا علمت أنه لا يترتب عليها مفسدة في عرضك ولا في دينك، لأنك إذا رددت الهدية وجد صاحبها عليك.

مر الرسول عليه الصلاة والسلام بالصعب بن جثامة بوادي ودان فأهدى له شقاً من حمار أي: حمار وحشي فرده ﷺ، وقال: (إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم)؛ لأنه صاده من أجله، فإذا علمت أنه يجرح شعوره رد الهدية فلا ترد الهدية، بل اقبلها وأثب عليها بالدعاء.

وذات مرة أهدى أحد الصحابة خميصة لها أعلام نوع من الملابس فيه زينه للنبي ﷺ، فلبسه النبي ﷺ، فلما قام للصلاة صار هذا الثوب يشغله في الصلاة، وهو لا يحب أن يشغله شيء عن الصلاة، فخلعها وقال: (اذهبوا بها إلى أبي جهم).

ولـو ردهـا إلى الصـحابي لتـأثرت نفسـيته وشـعر بالحـزن، فقـال عليـه الصـلاة والسـلام: (وأتـوني بأنبجانيـة أبي جهـم)، قـال: ردوا عليـه هـذه، لكـن أحضـروا لي مـن عنـده نوعـاً آخر من الملابس لا تشغل في الصلاة، فصارت واحدة بدل واحدة.

فلماذا قال: ردوها وأتوا لي بدلاً منها؟ حتى لا يحزن.

عمـر بـن الخطـاب ﷺ قـال: كـان رسـول الله ﷺ يعطيـني العطـاء فـأقول لـه أعطـه لمـن هـو أفقـر إليـه مـني فقـال: (إذا جـاءك مـن هـذا المـال شـيء وأنـت غـير مستشـرف ولا سـائل فخـذه فتمولـه فـإن شـئت فكلـه وإن شـئت فتصـدق بـه ومـا لا [أي ومـا لم يأتـك من غير استشراف نفس] فلا تتبعه نفسك). (متفق عليه).

قـال سـالم فلأجـل ذلـك كـان عبـد الله بـن عمـر لا يسـأل أحـدا شـيئا ولا يـرد شـيئا أعطيه.

ويـزداد الأمـر تأكيـدا علـى عـدم رد الهديـة، إذا كانـت إحـدى ثـلاث أشـار إليهـا النـبي في قوله: (ثلاث لا ترد، الوسائد والدهن واللبن)، (رواه الترمذي).

قال سفيان: لما قعد أبو حنيفة، قال للناس مُساور الوراق:

كنـا مـن الـدين قبـل اليـوم في سـعة حـتى بلينـا بأصـحاب المقـاييس
قـوم إذا اجتمعـوا صـاحوا كـأنهم ثعالـب ضـبحت بـين النـواويس

قال: فبلغ ذلك أبا حنيفة، فبعث إليه بمال، فقال مساور حين قبض المال:

إذا مـا النـاس يومـاً قايسـونا بآبـدة مـن الفتيـا طريفـة
أتينـاهم بمقيـاس صحيـح مصـيب مـن طـراز أبي حنيفـة
إذا سمـع الفقيـه بهـا وعاهـا وأثبتهـا بحـبر في صحيفـة
إن الهديـة حلـوةٌ كالسـحر تجتـذب القلـوبا

تـــدني البعيـــد عـــــــن الهـــوى حـــــتى تصـــــيِّره قريبـــــــــــاً
وتعيـــــــــــد مضـــطغن العـــدا وة بعـــــد بغضـــــته حبيبـــــــــاً
تنفـــي الســـخيمة عـــن ذوي الشـــ ـــــــحنا وتمتحـــــق الذنوبـــــــــا

****

الثامنة والثمانون: كتم الشهادة

من صفات المؤمنين التي مدح الله أهلها وأثنى عليهم: إقامة الشهادة والقيام بها، فقال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: 33].

وقد أمر الله تعالى في سورة الطلاق بإقامة الشهادة لله، فقال تعالى ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق:2]. أي: أدوها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقا، خالية من التحريف والتبديل والكتمان.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالعدل، شهداء لله لا لغيره ولو على أنفسهم أو الوالد أو القريب، فيشهد بالحق، وإن عاد ضرر الشهادة عليهم، قال الله تعالى في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:135].

وقال سبحانه في آية المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:8].

وقد توعد الله من كتم الشهادة وتركها أو حرّفها وغيرها، وتعمّد الكذب فيها فإنه سيلقى جزاءه عند الله؛ لأن الله تعالى خبير بعمله وقصده ونيته، فيجازيه على ذلك بما يستحقه قال تعالى ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:135]. وقال تعالى ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:283].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك، وقد قال الله تعالى ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

وقد قيل: ما أوعد الله على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة؛ قال: فإنه آثم قلبه، أراد به مسخ القلب، وخص القلب لأنه موضع العلم والشهادة.

وقال تعالى ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: 106]. فقد أضاف الشهادة إلى الله؛ تشريفا لها وتعظيما لأمرها؛ لأنها تفرز الحقوق، وتبين الحق من الباطل.

وقد نهى الله تعالى الشهداء عن الامتناع من تحمل الشهادة إذا دعوا إلى ذلك، وكذا إذا دعوا إلى إقامة الشهادة وأدائها، بل عليهم الإجابة إذا تعينت عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾]البقرة: 282[وتحمّل الشهادة فرض كفاية على الصحيح.

وقد ثبت في صحيح مسلم ورواه أهل السنن أيضا من حديث زيد بن خالد الجهني ﵁ عن النبي ﷺ إنه قال: (ألا أخبركم بخير الشهداء؟ هو الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها).

****

التاسعة والثمانون: إخلاف الوعد

قال الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ [مريم: 54].

إذا فشا في أُمَّة إخلاف الوعد قلَّت الثِّقة بين أفرادها وانحلَّت عُرى الروابط بينهم، وأصبحوا عِقْداً متناثراً لا يُنتَفعُ به، فلا يهابهم عدوٌّ إذا اشتدَّت الأزمات، وعظُمت الخطوب.

إن صدق الوعد خصلةٌ كريمةٌ من خصال الإيمان وخلقٌ عظيمٌ من أخلاق الإسلام، عز وجوده وندر في هذه الأيام. وإخلاف الوعد صفةٌ قبيحةٌ من صفات المنافقين، وخُلُق سيءٌ من أخلاق الكذابينَ، وقد مدح الله بصدق الوعد المؤمنين المتقين الصادقين فقال تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾] البقرة:177 [، فالوفاء بالعهد صفة من صفات المؤمنين، وإخلاف الوعد من علامات النفاق كما قال ﷺ: (آية المنافق ثلاث وذكر منها إذا وعد أخلف) وقال الثوري رحمه الله: "لا تعد أخاك موعداً فتخلفه فتستبدل المودة بغضه" يحل محل المودة البغض، وقال نصر المروزي رحمه الله:

يا واعد الوعد الذي أخلفا ... ما الخلف من سيرة أهل الوفا
ما كان ما أظهرت من ودنا ... إلا سراجاً لاح ثم انطفا

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "وأما إخلاف الوعد فحرام يجب الوفاء بالوعد سواء وعدته مالا أو وعدته إعانة تعينه في شيء أو أي أمر من الأمور إذا وعدت

فيجب عليك أن تفي بالوعد وفي هذا ينبغي للإنسان أن يحدد المواعيد ويضبطها فإذا قال لأحد إخوانه أواعدك في المكان الفلاني فليحدد الساعة الفلانية حتى إذا تأخر الموعود وانصرف الواعد يكون له عذر حتى لا يربطه في المكان كثيرا وقد اشتهر عند بعض السفهاء أنهم يقولون أنا واعدك ولا أخلفك وعدي إنجليزي يظنون أن الذين يوفون بالوعد هم الإنجليز ولكن الوعد الذي يوفى به هو وعد المؤمن ولهذا ينبغي لك أن تقول إذا وعدت أحدا وأردت أن تؤكد إنه وعد مؤمن حتى لا يخلفه لأنه لا يخلف الوعد إلا المنافق" أ هـ.

قال أبو بكر بن العربي. قال في كتابه أحكام القرآن: "والصحيح عندي أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر" أ. هـ

وقال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في تفسيره: "إخلاف الوعد من علامات المنافق يدل على أن المسلم لا يجوز له أن يتسم بسمات المنافقين" أ هـ.

كان العرب قديماً في الجاهلية يعتزون بصدق الوعد، وينقمون نقمة شديدة على من يخلفه، ومن أجمل ما قرأت في هذا: أن النعمان بن المنذر -وكان ملكاً على الحيرة قبل الإسلام- كان له يومان: يوم بؤس ويوم نعيم، فإذا لقيه أحد في يوم بؤسه قتله وأرداه، وإذا لقيه أحد في يوم نعيمه قربه وأعطاه وحباه.

وفي يوم من أيام بؤسه لقيه رجل من قبيلة طيء، فعلم الطائي أنه مقتول لا محالة بعد ما علم أن هذا اليوم للنعمان بن المنذر هو يوم بؤسه، فاقترب الطائي من النعمان بن المنذر وقال: حيا الله الملك، حيا الله الملك، لقد خرجت وتركت أولادي على شفا تلف من الجوع، وقد خرجت اليوم مبكراً أبحث لهم عن رزق، ففتح الله عليَّ بصيد هذا الأرنب، فإن رأى الملك أن يأذن لي في إتيانهم والرجوع إليهم لأطعمهم ولأوصي بهم، وله عليَّ وعد وعهد أن أرجع إليه مرة أخرى في الموعد الذي يحدده حتى أضع يدي في يده، فرق له النعمان بن المنذر وقال له: لن أسمح لك بالرجوع إليهم إلا إذا ضمنك رجل منا، فضمنه رجل ممن مع الملك وهذا الرجل

يقال له: شريك بن عمرو بن شراحيل، ضمن شريك هذا الرجل الطائي، وقال له: أنا أضمنه، قال: إن لم يرجع قتلناك مكانه، قال: افعل.

فانصرف هذا الرجل الطائي فأطعم أولاده وأوصى بهم، وفي الوقت المحدد عاد فوقف بين يدي النعمان بن المنذر، فوقف النعمان منبهراً بهذا الخلق، ومبجلاً لهذا الصدق، ومكبراً لهذه الأخلاق، فنظر النعمان إلى هذا الرجل الطائي، وقال: أيها الرجل! لقد صدقت في وعدك حتى لم تترك للصدق بعد ذلك سبيلاً، ونظر النعمان إلى شريك بن عمرو الذي جاد بحياته ضامناً لهذا الرجل وقال: أما أنت يا شريك بن عمرو فقد جدت وأكرمت حتى لم تدع للجود سبيلا، ثم قال النعمان: والله لا أكون ألأم الثلاثة، فكافأ الطائي وأطلقه، ورفع يوم بؤسه، فأنشد الرجل الطائي بين يديه قائلاً:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فأبيت عند تجهم الأقوال
إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذب مفضال

******

التسعون: عدم قرضه مع الاستطاعة

على الأخ ألا يتردد في قرض إخوانه، إذا طلبوا منه، ما دام مستطيعاً، البعض يتردد ويتلكأ في أن يقرض إخوانه، فيؤثر التجارة أو ادخار المال على قرض إخوانه، فلا يقرض إخوانه الذين ينتفعون بهذا المال، وقد قال النبي ﷺ: (إن السلف يجري مجرى شطر الصدقة)، (رواه الإمام أحمد وقال أحمد شاكر إسناده صحيح). يعني أن السلف يعتبر نصف صدقة، فإذا أقرضت إنسانا مائة ألف ريال كأنك تصدقت عليه بخمسين ألف ريال. وفي حديث آخر (ما من مسلم يقرض قرضاً مرتين إلا كان كصدقتها مرة) فالقرض ثوابه أنه يعتبر نصف صدقة فمن أقرض مبلغاً من المال فليعلم أنه كأنما تصدق بنصف هذا القرض.

روى ابن ماجه عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (رأيت، ليلة أُسْرِي بي، مكتوباً على باب الجنة: "الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر. فقلت: يا جبريل، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل قد يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة).

وقال: (ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقتهما مرة)، (رواه ابن ماجه وحسنه الألباني رحمه الله في الإرواء).

وقال أبو الدرداء – ﷺ –: "لأن أقرض مسلماً دينارين ثم يُردان ثم أقرضهما أحب إلى من أن أتصدق بهما".

عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ السَّلَفَ يَجْرِي مَجْرَى شَطرِ الصَّدَقَةِ)، (رواه أحمد وصححه الألباني).

وعَن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ – ﷺ – يَقُولُ: (مَنْ مَنَحَ مَنِيحَةَ لَبَنٍ أَوْ وَرِقٍ أَوْ هَدَى زُقَاقاً –الزقاق الطريق يريد من دل الضال أو الأعمى على طريقه –كَانَ لَهُ مِثلَ عِتقِ رَقَبَةٍ). (رواه الترمذي وصححه الألباني).

******

الحادية والتسعون: عدم الشفاعة له

قال الله تعالى ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: 85].

أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال: (اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء)، (رواه البخاري ومسلم).

قال بعض العلماء: "حث على الشفاعة الحسنة، فهو يطلب من أصحابه أن يشفعوا لذوي الحاجات عنده، سواء أكان الرسول مستعداً لتلبية الشفعاء أو لم يكن مستعداً لذلك. وفي هذا توجيه لهم أنه لا ينبغي أن يربطوا شفاعتهم برجاء الإجابة، فإنهم يأجرون على شفاعتهم مهما كانت النتائج، وأنه لا ينبغي أن تتأثر قلوبهم إذا لم يجابوا إلى ما شفعوا فيه، فالأمور مرهونة بالقضاء الرباني، وهذا القضاء ينبغي للمؤمن أن يتقبله بالرضا التام"أ هـ.

قال ابن عباس: "إن لله عباداً يستريح الناس إليهم في قضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم أولئك هم الآمنون من عذاب يوم القيامة".

قال الضحاك في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في قصة يوسف عليه السلام: "كان إحسانه إذا مرض رجل بالسجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان وسع له إذا احتاج جمع سأل له".

الوجاهة والمكانة لها زكاة، وزكاتها الشفاعة والإعانة للمحتاجين، على أن لا يبخس بها حق الآخرين، فإن الشفاعات من أعظم العبادات إذا قصد بها وجه الله عز وجل.

كتب الحسن بن سهل كتاب شفاعة فجعل الرجل يشكره، فقال الحسن: يا هذا علام تشكرنا؟ إنا نرى الشفاعات زكاة مروءتنا، ثم أنشد، يقول:

فُرِضت عليّ زكاةُ ما ملكت يدي وزكاة جاهي أن أعين وأشفعا
فإذا ملكت فجد فإن لم تستطع فأجهد بوسعك كله أن تنفعا

وقد شفع النبي ﷺ لمغيث لما تركته بريره، فإن مغيثاً كانت تحته بريره، كان يحبها حباً شديدا...، وكانت تبغضه بغضاً شديداً، وكان كلاهما مولى، فلما عتقت بريرة، خيرت بريرة بين البقاء معه والفسخ، فاختارت الفسخ. لأن الأمة إذا عتُقت وكانت تحت عبد فإنها تخير بين البقاء معه أو الفسخ، فلما كانت تكره كراهية شديدة اختارت الفسخ، ولكنه حزن عليها حزناً شديداً، فكان يلاحقها في الشوارع يمشي خلفها ودموعه تتحادر من عينيه على وجهه ولحيته، ويقول رسول الله (لأصحابه: ألا تعجبون من حب مغيث بريرة، وبغضها له؟!. فاستشفع مغيث الرسول (وطلب منه أن يتدخل في الأمر فشفع إليه. فتأمل الرسول (يتدخل في شأن رجل وامرأته، فشفع وقال: لعلك ترجعين إليه. فقالت: يا رسول الله أتأمرني، أم تشير علي؟ قال: بل أشير. قالت: لا حاجة لي به.

****

الثانية والتسعون: العود في الهبة

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله – ﷺ –، قَالَ: (الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ فِي قَيْئِهِ، لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ). (متفق عَلَيْهِ).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "قوله: (لَيْسَ لَنَا مَثَلُ السَّوْءِ) أي: لا ينبغي لنا معشر المؤمنين أنْ نتصف بصفةٍ ذميمةٍ، يشابهنا فيها أخسُّ الحيوانات، في أخسِّ أحوالها، قال الله سبحانه وتعالى ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلهِ المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل: 60]، ولعلَّ هذا أبلغ في الزجر عن ذلك وأدلُّ على التحريم، مما لو قال مثلاً: (لا تعودوا في الهبة)"أ هـ.

وفي رواية: (مَثَلُ الَّذِي يَرْجِعُ فِي صَدَقَتِهِ، كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقِيءُ، ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ فَيَأْكُلُهُ). وفي روايةٍ: (العائِدُ في هِبَتِهِ كالعائِدِ في قَيْئِهِ).

قال الدهلوي: "إنما كره الرجوع في الهبة لأن منشأ العود فيما أفرزه عن ماله، وقطع الطمع عنه إما شح بما أعطى، أو تضجر منه، أو إضرار له، وكل ذلك من الأخلاق المذمومة.

وأيضاً ففي نقض الهبة بعد ما أحكم، وأمضى وحر وضغينة، بخلاف ما لم يعط من أول الأمر، فشبه النبي ﷺ. العود فيما أفرزه من ملكه بعود الكلب في قممه، يمثل لهم المعنى بادي الرأي وبيّن لهم قبح تلك الحالة بأبلغ وجه"أ هـ.

حتى شراء الهدية لا يجوز قال ابن القيم في إعلام الموقعين: "وللمنع من شرائه علتان إحداهما أنه يتخذ ذريعة وحيلة إلى استرجاع شيء منها لأن الفقير يستحي منه فلا يماسكه في ثمنها وربما أرخصها ليطمع أن يدفع إليه صدقة أخرى وربما علم أو توهم أنه إن لم يبعه إياها استرجعها منه فيقول ظفري بهذا الثمن خير من الحرمان.

العلة الثانية قطع طمع نفسه عن العود في شيء أخرجه لله بكل طريق فإن النفس متى طمعت في عوده بوجه ما فآمالها بعد متعلقة به فلم تطب به نفسا لله وهي متعلقة به فقطع عليها طمعها في العود ولو بالثمن ليتمحض الإخراج لله وهذا شأن النفوس الشريفة ذوات الأقدار والهمم أنها إذا أعطت عطاء لم تسمح بالعود فيه بوجه لا بشراء ولا بغيره وتعد ذلك دناءة ولهذا مثل النبي ﷺ العائد في هبته بالكلب يعود في قيئه لخسته ودناءة نفسه وشحه بما قاءه أن يفوته"أ هـ.

ويستثنى من ذلك:

1- هبة الوالد لولده لقوله ﷺ: (لا يحل لرجل أن يعطي عطية أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده....). رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم، وصححه الألباني في (صحيح الجامع)، وجاء في (فقه السنة): حكم الأم مثل الأب عند أكثر العلماء، وسواء كان الولد صغيرًا أو كبيرًا.

2- الهدية بعوض: لقوله ﷺ: (من وهب هبة فهو أحق بها ما لم يثب منها). (رواه مسلم).

في فقه السنة: ما لم يثب منها: أي يعوض عنها وهذا هو ما رجحه ابن القيم في (إعلام الموقعين) أي: يُكافأ عليها. اهـ. كأن يقول له: أهبك هذه الساعة على أن تهبني هذا القلم.

****

الثالثة والتسعون: تصعير الخد

يقول الله تعالى ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور﴾ [لقمان: 18].

أصل الكلمة من قولهم: أصاب البعير صَعَرٌ، والصعر مرض تصاب به الناقة في عنقها فتلوي رأسها يمنة أو يسرة، لذلك فتصعير الخد في الناقة مرض جسدي وفي الإنسان مرض خلقي، وحال هذا المرض في الإنسان أشد نكراً وشيناً وعيباً لأن الأول في الناقة نازل ومتسلط والثاني في الإنسان مكتسب واختياري.

لا تُمِلْ وجهك عن الناس إذا كلَّمتهم أو كلموك؛ احتقارًا منك لهم واستكبارًا عليهم، ولا تمش في الأرض بين الناس مختالا متبخترًا، إن الله لا يحب كل متكبر متباه في نفسه وهيئته وقوله.

ولا تكلم الناس وأنت معرض عنهم بل أقبل عليهم بوجهك وتواضع وابتسم فالابتسامة صدقة والله لا يحب كل مختالٍ فخور، المختال الذي يُظهر أثر الكبر في أفعاله.

قال ابن كثير في تفسيرها: قال ابن عباس: يقول لا تتكبر فتحتقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك.

قال القرطبي في تفسيره: "معنى الآية: ولا تمل خدك للناس كبرا عليهم وإعجابا واحتقارا لهم.

وهذا تأويل ابن عباس وجماعة.

وقيل: هو أن تلوي شدقك إذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره، فالمعنى: أقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا، وإذا حدثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه.

وكذلك كان النبي ﷺ يفعل.

قلت: ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث).

فالتدابر الاعراض وترك الكلام والسلام ونحوه.

وإنما قيل للإعراض تدابر لان من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك، وكذلك يصنع هو بك.

ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسره ويسرك، فمعنى التدابر موجود

فيمن صعر خده، وبه فسر مجاهد الآية.

وقال ابن خويز منداد: قوله: "ولا تصاعر خدك للناس" كأنه نهى أن يذل الانسان نفسه من غير حاجة، ونحو ذلك روي عن النبي ﷺ أنه قال: (ليس للانسان أن يذل نفسه)"أ هـ.

****

الرابعة التسعون: عدم نصرته

عَنْ جَابِرٍ وَأَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنِ امْرِىءٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ ويُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ).

وعن عبد الله يعني ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: (أُمِرَ بعبدٍ من عباد الله يُضرب في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه نارا فلما ارتفع عنه وأفاق قال علام جلدتموني قال إنك صليت صلاة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره)، (رواه أبو الشيخ ابن حبان وهو في صحيح الترغيب والترهيب).

قال أحد المفكرين الإسلاميين: وهذه الآثار تبين روح الدين فيما يجب أن تكون عليه العلاقات بين الناس، وإنك لتمر الآن بالطريق فتجد شرطيا يصفع بائعا جائلا أمام جمهور ضخم من النظارة الذين يرون هذا العمل الآثم ثم يمضى أكثرهم غير آبه، ويقف الباقون ليزجوا الرجاء إلى الجندى كى يعفو ويصفح.. عن عدوانه!!. لو أن سوط الظلم إذا مس جسد مسكين تأوه له ألوف، وسرى الألم إلى جلودهم فلسعها، فبدلا من أن يصرخ للعدوان صوت فذ، تجاوبت بالوجع والغضب أصوات جمهور غفير، إذن لفكر الظالم ألف مرة ومرة قبل أن يفكر فى الانفراد بمخلوق لينهشه.

ولكن تقطع الأواصر، وضعف الثقة، ورقة الإيمان، جعلت كل أحد يعيش فى نطاقه الخاص، ويقول معلقا على أحزان الآخرين: "وما لى أنا "ثم يجىء دوره فى تجرع الكأس الذى شربه غيره قبلا، فيزدرده فى صمت! ولو حدثته نفسه بالصدق لقال: إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض.. لقد نبه الرسول ﷺ إلى ضرورة الوقوف إلى

صف المظلوم حتى يندفع الضر عنه فقال: "لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما، فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه"أ هـ.

وقال ابن رجب رحمه الله: "ومن ذلك خذلان المسلم لأخيه: فإن المؤمن مأمور أن ينصر أخاه كما قال النبي ﷺ: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) قال: يا رسول الله، أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما؟. قال: (تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه) خرجه من حديث أنس، وخرجه من حديث جابر، وخرج أبو داود من حديث أبي طلحة الأنصاري وجابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: (ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلما في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وتنتهك فيه حرمته إلا نصره الله في موضع يحب فيه نصرته)، وخرج الإمام أحمد من حديث أبي أمامة بن سهل عن أبيه عن النبي ﷺ قال: (من أُذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدره على أن ينصره أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة) قال الإمام المناوي رحمه الله شارحاً لهذا الحديث: (من أُذِلَّ) بالبناء للمجهول (عنده) أي بحضرته أو بعلمه (مؤمن فلم ينصره) على من ظلمه (هو) أي والحال أنه (يقدر على أن ينصره أذله الله على رؤوس الأشهاد يوم القيامة) فخذلان المؤمن حرام شديد التحريم دنيوياً كان ـ مثل أن يقدر على دفع عدوّ يريد أن يبطش به فلا يدفعه ـ أو دينياً) ". أهـ.

وقال النووي رحمه الله تعالى: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره: أما كون المسلم أخا المسلم فسبق شرحه قريبا، وأما لا يخذله: فقال العلماء: الخذل ترك الإعانة والنصر، ومعناه: إذا استعان به في دفع السوء ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي"أ هـ.

كان بين خالد بن الوليد وبين سعد بن أبي وقاص كلام، كما يحصل بين الناس عند الاختلاف، فتناول رجل خالداً عند سعد، أي: ذكره بأمر، ومعلوم أن المذكور خالد، والسامع سعد، فربما يظن الظان أنه قد يفرح بذلك أو يسكت عنه؛ لأن بينهما شيئاً من الخلاف، فقال سعد: إن الذي بيننا لم يبلغ ديننا.

****

الخامسة والتسعون: التشبع بما لم يعط

قال الله تعالى ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: 188]، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ: (من ادعى دعوة كاذبة ليتكثر بها، لم يزده الله إلا قلة)، وفي الصحيح أيضاً"المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور".

قال النووي: المتشبع: "هو الذي يظهر الشبع وليس بشبعان، ومعناها هنا أنه يظهر أنه حصل له فضيلة وليست حاصلة ولابس ثوبي زور أي: ذي زور وهو الذي يزور على الناس بأن يتزي بزي أهل الزهد أو العلم أو الثروة ليغتر به الناس وليس هو بتلك الصفة وقيل غير ذلك والله أعلم"أ هـ.

يقول الشيخ بكر أبو زيد حفظه الله: "في الجماعة أفراد يحملون همَّ العظمة، وأن يحمدوا بما لم يفعلوا، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور).

****

السادسة والتسعون: لعنه

اللعن كبيرة من الكبائر، صح عن الرسول ﷺ أنه قال: (لا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة) وقال: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء).

وأخرج البخاري ومسلم عن النبي ﷺ أنه قال: (لعن المؤمن كقتله).

وروى مسلم عن النبي ﷺ: (لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً) قال العلماء: "يحرم لعن إنسان بعينه أو دابة".

وأخرج أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض، فتغلق أبواب الأرض دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإن لم تجد مساغاً- أي: مسلكاً- رجعت إلى الذي لعن، فإن كان أهلاً وإلا رجعت إلى قائلها).

قال الإمام النووي رحمة الله عليه: "واتفق العلماء على تحريم اللعن فإنه في اللغة الابعاد والطرد وفي الشرع الإبعاد من رحمة الله فلا يجوز أن يبعد من رحمة الله من لا يعرف حاله وخاتمة أمره معرفة قطعية فلهذا قالوا لا يجوز لعن أحد بعينه مسلما كان أو كافرا أو دابة إلا من علمنا بنص شرعي أنه مات على الكفر أو يموت عليه كأبي جهل وإبليس" أ هـ.

والرسول عليه الصلاة والسلام رأى امرأة تلعن ناقتها، فقال: (خذي ما عليها من متاعك واتركي هذه الناقة لا تصحبونا بملعون) فكيف بمن يلعن أطفاله وأهله وقرابته ومواشيه؛ نعوذ بالله من ذلك الخسران ومن هذا الذنب العظيم.

في صحيح مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ بَعَثَ إِلَىَ أُمّ الدّرْدَاءِ بِأَنْجَادٍ مِنْ عِنْدِهِ. فَلَمّا أَنْ كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، قَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنَ اللّيْلِ، فَدَعَا خَادِمَهُ

فَكَأَنَّـهُ أَبْطَـأَ عَلَيْـهِ فَلَعَنَـهُ. فَلَمَّـا أَصْـبَحَ قَالَـتْ لَـهُ أُمّ الـدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُـكَ اللَّيْلَـةَ لَعَنْـتَ خَادِمَـكَ حِـينَ دَعَوْتَـهُ. فَقَالَـتْ: سَمِعْـتُ أَبَا الـدَّرْدَاءِ يَقُـولُ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: لاَ يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

والأنجاد: هو متاعُ البيت الذي يزيّنُه.

****

السابعة والتسعون: الفحش والتفحش

قال الراغب: الفحش والفحشاء ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال.

النطق بألفاظ الخنا على الملأ مما يستبشع، فإنه يسقط مروءة الإنسان، حتى قال بعضهم: لا تقبل شهادته، قال ابن الهمام رحمه الله: "إظهار الشتيمة مجون وسفه، ولا يأتي به إلا أوضاع وأسقاط".

عن عبدِ الله بن مسعود ﵁ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: (لَيْسَ المؤْمِنُ بالطّعّانِ ولاَ اللّعّانِ ولا الفَاحِشِ ولا البَذِيّ). (حديث صحيح. رواه أحمد والترمذي).

عن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا يحب الفحش والتفحش)، (رواه مسلم).

عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: (ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله ليبغض الفاحش البذيء)، (الترمذي وصححه).

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنهما قال كنت في مجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم وسمرة وأبو أمامة فقال: (إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا)، (رواه أحمد).

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله لا يحب الفحش أو يبغض الفاحش المتفحش)، (رواه أحمد).

من الناس من يلازمه الشر والفحش حتى يخشاه الناس اتقاء شره أخرج الشيخان عن عائشة ﵂ قالت: قال النبي ﷺ: (إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من ودعه الناس أو تركه الناس اتقاء فحشه).

وعنـد أبي داود والترمـذي ـ بسـند صـحيح ـ عـن أَبي الـدَّرْدَاء ﷺ: أَنّ النّـبي ﷺ قـالَ: (مَـا مـن شـيْءٌ أَثْقَـلُ فِي مِيـزَانِ المـؤْمِنِ يَـوْمَ القِيَامـةِ مِـنْ خُلُـقٍ حَسَـنٍ، فَـإِنّ الله تعـالى ليُبْغِضُ الفاحِشَ البَذِيءَ).

وقـد قَـرَنَ رسـولُ الله ﷺ التحـذير مـن الفحـش بالتحـذير مـن الظلـم. فعـن عبـد الله بـن عمـرو رضـي الله عنهمـا قـال: قـال رسـول الله ﷺ: (اتّقُـوا الظّلْـمَ فَإِنّـهُ ظُلُمَـاتٌ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ، وَاتّقُـوا الْفُحْـشَ فَـإِنّ الله لا يُحِـبّ الْفُحْـشَ وَالـتّفَحّشَ، وَإِيّاكُـمْ وَالشّـحّ فَإِنّـهُ أَهْلَـكَ مَـنْ كَـانَ قَـبْلَكُمْ أَمَـرَهُمْ بِالظّلْـمِ فَظَلَمُـوا وَأَمَـرَهُمْ بِالْفُجُـورِ فَفَجَـرُوا، وَأَمَـرَهُم بِالْقَطِيعَةِ فَقَطعُوا)، (رواه أحمد والحاكم وابن حبان وهو حديث صحيح).

والفحش ينافي الحياء.

وأنـت تلاحـظ أن الإنسـان الفـاحش ـ في الغالـب ـ يكـونُ صـفيق الوجـه، قليـل الحيـاء، يشـتمُ لأتفـه الأسـباب، ويسُـبُّ لأدنى سـبب، بخـلاف الحيـي فإنـه يسـتحي إذا سـابّه أحدٌ أن يردّ عليه فلا يُتوقّع منه أن يبتدئ هو بالسب والشتم.

وهـذه المعـاني يوضّـحها حـديثُ أنـسٍ ﷺ حيـث يقـول: قـال رسـول الله ﷺ: (مـا كـان الفحـش في شـيء قـط إلا شـأنه، ولا كـان الحيـاء في شـيء قـط إلا زانـه). (حـديث صحيح. أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي).

كمـا أن الفحـش ينـافي الرفـق. فإنـك لا تجـد الفـاحش رفيقـاً بعبـاد الله، ولا رحيمـاً بضعفائهم، يسُبُّ كلَّ أحد، ويشتم كلَّ إنسان.

وعنـد ابـن حبّـان: "مـا كـان الرفـق في شـيء إلا زانـه ولا كـان الفحـش في شـيء قـط إلا شانه".

******

الثامنة والتسعون: إخفاء العيب في السلعة

من الغش إخفاء عيوب السلعة وكتمانها، أو إظهارها بمظهر ترغب المشتري بها. قال ﷺ: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما) (متفق عليه). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال: (ما هذا يا صاحب الطعام؟) قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس مني)، (رواه مسلم).

وهذا الخيار يثبت للمشتري بسبب وجود عيب في السلعة، ولم يخبره البائع عن ذلك العيب، وكان ذلك العيب مما ينقص من قيمة السلعة أو ينقص عين المبيع، والمعتبر في ذلك قول أهل الخبرة في السلعة المشتراة، فما عدوه عيباً ينقص في السلعة أو في عين المبيع فهو عيب يثبت به الخيار. فإن شاء المشتري أمسك السلعة مع أخذ مقدار الفرق بين قيمة المبيع صحيحاً وقيمته معيباً. وإن شاء رد السلعة.

****

التاسعة والتسعون: عدم إعطائه أجرته

عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه رواه ابن ماجة

وروى البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجره).

على الأخ أن يعطي أخاه أجرته كاملة موفاة من غير أن ينقص أو يقتطع شيئاً منها بغير حق، فإن إنقاصها أو تأخيرها مما يفتت أوصال الأخوة، وليكن كأحد الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار فجاءت صخرة فسدت عليهم الباب فقال "اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم إلا رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أدِ إليّ أجري. فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي! فقلت: إني لا أستهزىء بك. فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون".

****

المئة: الأخوة لغير الله

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: "فكل من أحب شيئا دون الله ولاه الله يوم القيامة ما تولاه وأصلاه جهنم وساءت مصيرا فمن أحب شيئا لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد فإن فقد عذب بالفراق وتألم وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة.

وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء وكل من أحب شيئا دون الله لغير الله فلإن مضرته أكثر من منفعته فصارت المخلوقات وبالاً عليه إلا ما كان لله وفى الله فإنه كمال وجمال للعبد" أ هـ.

****

